



فِي الْفِكْرِ النُّهْضِيِّ الْإِسْلَامِيِّ

الرسالة النبوية

بَحَثٌ فِي رِسَالَةِ اللَّهِ الْوَاحِدَةِ الْخَالِدَةِ عَلَى مَدَى الزَّمَانِ،
وَاقْتِبَاسٌ مِنْ صَدْرِهَا فِي الْأَهْتِمَاعِ وَبَيَّاسَةِ وَالْحَرْبِ وَالسَّلَامِ
وَالْعِدَاقَاتِ الدَّوْلِيَّةِ، بِإِزَالَةِ أَسْبَابِ الْأَضْطِرَّاتِ الْعَالَمِيَّةِ،
وَأَعْدَادِ الْخَضَائِقِ بِسِتْرِ رُوحِيٍّ، وَإِقَامَةِ نِظَامٍ عَالَمِيٍّ مُهْدِيٍّ

تَأْلِيفُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَسْرَامُ

تَقْيِيمُ

عَصَمَتُ نَصَّارُ

دار الكتاب اللبناني

بيروت

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

دار الكتاب المصري

القاهرة

يستهدف هذا المشروع إعادة عرض كتابات النهضة
وأعلامها في العالم الإسلامي خلال القرنين الثالث
عشر والرابع عشر الهجريين (١٩ - ٢٠م)، ويتوجه
إلى قطاع عريض من القراء والمتقنين من طلاب
الجامعات والمعاهد والباحثين المهتمين بالفكر
النهضوي في تراثنا كي يتمكنوا من الاطلاع على
أفكار هؤلاء الرواد وأعمالهم، والتي تتعرض للاستئثار
والتحديات التي واجهت الأمة العربية والإسلامية،
لدى احتكاكها بالعالم الغربي منذ بدايات القرن
الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، وكيف
حاول علماء الأمة ومفكروها الاجتهاد في الإجابة
عن هذه الأسئلة والتحديات في زمانهم، وما زال
كثير من تلك القضايا مطروحة علينا، مما يلقي
على علماء الأمة ومفكريها الآن استيعاب تلك الأفكار
والاسترشاد بها ومن ثم مسئولية الاجتهاد في هذه
القضايا من منطلق متغيرات العصر.

الرَّسُولُ الْمُرْسَلُ إِلَيْنَا

هذا الكتاب

طُبِعَ لأول مرة عام (١٣٦٥هـ/١٩٤٦م)، وتُعد هذه الدراسة من أهم المؤلفات العربية الحديثة، التي عبّرت بمنحى موضوعي عن حقيقة الخطاب السياسي الإسلامي، الجامع بين الثوابت العقدية التي لا يمكن التفريط فيها ولا تبديلها في المجتمعات الإسلامية، والمتغيرات الحضارية التي يجب الأخذ بها لتجديد وتحديث المشروع الإسلامي، على نحو يمكنه من قيادة العالم وتحقيق العدالة والأمن والسلام العالمي.

كما تكشف كذلك عن أصالة أفكار عبد الرحمن عزام وطرافة نهجه في المصالحة بين القديم والجديد، وصدق جهاده وكفاحه في مناصرة الحركات التحررية في العالم العربي، وجهوده في تأسيس الجامعة العربية، ودعوته لإنشاء منظمة أو اتحاد للأمم الإسلامية. وقد أثرت آراء المؤلف في الدوائر البحثية المعنية بالفكر الإسلامي في الشرق والغرب، وترجمت هذه الرسالة إلى العديد من اللغات، وطُبعت عدة طبعات.

سلسلة

في الفكر النهضوي الإسلامي

الإشراف العام

إسماعيل سراج الدين

إدارة المشروع

صلاح الدين الجوهري

ألقت جافور - حنان عبد الرازق - نهى عمر

اللجنة العلمية

محمد عمارة محمد كمال الدين إمام

صلاح الدين الجوهري منى أبو زيد

الإشراف على الإخراج الفني

ألقت جافور

تصميم جرافيك، عاطف عبد الغني

الإشراف على مراجعة النصوص

أحمد محمد شعبان محمد القاسم

مراجعة لغوية، علياء محمد أحمد

الأعمال التحضيرية والمتابعة

هدى سيد - شيماء التركي



الرسالة الجامعة

بَحَثٌ فِي رِسَالَةِ اللَّهِ الْوَاحِدَةِ الْخَالِدَةِ عَلَى مَدَى الزَّمَانِ،
وَاقْتِبَاسٌ مِنْ صَدَائِمِهَا فِي الْأُمَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَالْحَبِيبِ وَالسَّامِ
وَالْعَلَاَقَاتِ الدُّوَلِيَّةِ، بِإِزَالَةِ أَسْبَابِ الْأَضْطِرَابِ الْعَالَمِيِّ،
وَأَعْدَادِ الْخَضَائِعِ بِسَنَدٍ وَحِيدٍ، وَإِقَامَةِ نِظَامٍ عَالَمِيٍّ حَبِيدٍ

تَأَلِيفُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَسْرَامُ

تَقْيِيمُ

عَصَمَتُ نَمَّارُ

١٤٣٥ هـ / ٢٠١٤ م

دار الكتاب اللبناني
بيروت


مكتبة الإسكندرية

دار الكتاب المصري
القاهرة

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة - أثناء - النشر (فان)

عزام، عبد الرحمن، 1893 - 1976 م.

الرسالة الخالدة / تأليف عبد الرحمن عزام ؛ تقديم عصمت نصار. - الإسكندرية : مكتبة الإسكندرية ، 2014.
ص. سم. (في الفكر النهضة الإسلامي)

تدمك 978-977-452-250-0

يشتمل على إرجاعات بيبليوجرافية

1. الأخلاق الإسلامية. 2. الإسلام -- دعوة. 3. الإسلام و الاستعمار. 4. الإسلام و العلاقات الخارجية. أ. نصار،
عصمت. ب. مكتبة الإسكندرية. ج. العنوان. د. السلسلة.

2013692042

ديوي - 297.5

رقم الإيداع: 17654/2013

ISBN: 978-977-452-250-0

تتقدم مكتبة الإسكندرية بالشكر والتقدير

للكالة السويسرية للتنمية والتعاون (SDC) Swiss Agency for Development and Cooperation

ومؤسسة كارنيجي بنيويورك Carnegie Corporation of New York

على الدعم المادي والمعنوي الذي قدمته للمشروع.

© مكتبة الإسكندرية، ٢٠١٤

جميع حقوق النشر الورقي محفوظة لدار الكتاب المصري / دار الكتاب اللبناني،

وذلك بموجب اتفاق مبرم بين المكتبة والدار

مصر - ٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة - تليفون: ٢٣٩٢٢١٦٨ / ٢٣٩٣٤٣٠١ / ٢٣٩٢٤٦١٤

ص.ب. العتبة الرمز البريدي ١١٥١١ - القاهرة - ج.م.ع، فاكسميلي ٢٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢) +

لبنان - بيروت شارع مدام كوري تجاه فندق بريستول - بيروت - تليفون ٧٣٥٧٣٢، فاكس / ٩٦١١٣٥١٤٣٣ +

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

First Edition

A.D. 2014 - H 1435

Website: www.daralkitabalmasri.com

E-Mail: info@daralkitabalmasri.com

المحتوى

٢١	مقدمة السلسلة
٢٧	تقديم
	كتاب
	الرسالة الخالدة
٣	مقدمة الطبعة الإنجليزية
٩	مقدمة الطبعة الأولى
١٣	(١) في أصول الدعوة
١٥	تمهيد
	تاريخ يتصل ١٥ - شهادة الزمان والتجربة ١٧ - حق من السماء أو من الأرض ١٨
٢١	الدعامتان
٢٣	الإيمان بالله الواحد
	أصل الأصول ٢٣ - الدين فطري ٢٤ - البحث عن الله ٢٥ - قصة إله بشري ٢٦ - التوحيد أعظم أسس الدعوة المحمدية ٢٩ - التسامح هو السبيل إلى الوحدة العالمية ٣٠ - دين واحد وأمة واحدة ٣١
٣٣	آثار التوحيد

التوحيد روح الدين ٣٤ - هو أساس الانتساب والاعتبار الشخصي ٣٤ -
 الشرك سبب لإهدار كرامة المشرك وشخصيته ٣٥ - أخوة عامة في
 الله ٣٦ - الشرك طارئ على الفطرة ٣٧ - وكر الخرافات والأباطيل ٣٧ -
 باعث الظلم والاستبداد ٣٨ - آثار التوحيد في تزكية النفس ٣٩ -
 التوحيد سر حكومة الوجدان ٤٠ - التلازم بين التوحيد وصلاح
 الفكر والحياة ٤١ - أثر التوحيد في تحرير العقل وسمو الحضارة ٤٣ -
 لا احتجاج بالواقع السيئ ٤٤

٤٧

الإحسان

رديف الإيمان ٤٧ - تنظيم دقيق لقواعد الحياة وأساليبها ٤٧ - أثر سريع
 لتطبيق نظم الإحسان ٤٨ - الرحمة والإخاء أساس الإحسان ٥٠ -
 أساس العمران ٥٢ - دفاع لابد منه عن رحمة الأتراك ٥٣ - أمثال
 شعبية تشهد لهم ٥٣ - أثرهم في زوال عهد الإقطاع من أرض الملداف
 والبولونيين ٥٤ - موقف عظيم لشيخ الإسلام في عهد السلطان
 سليم ٥٥ - رحمة الحيوان ٥٦ - حكايات عن الرحمة ٥٧

٥٩

الإخاء

آية هي دستور الإخاء البشري ٥٩ - تصوير عجيب لموقع البر لدى
 الله ٦٠ - تهديد شديد لذوي القسوة والبخل ٦١ - قدماء العرب
 وفهم الإخاء والمساواة ٦١ - إخاء شامل بين المسلمين وأهل

الكتاب ٦٢ - الإخاء معجزة الإسلام ٦٥ - بقايا الإخاء في العالم
الإسلامي ٦٥ - ذكرى إخاء في ألبانيا ٦٥ - إخاء ليس له نظير ٦٨

٧١ (٢) في الإصلاح الاجتماعي

٧٣ التطهير الخلقي للفرد

نموذج الإنسان الكامل ٧٤ - أثر القدوة العملية ٧٤ - العقيدة وأثرها
في التوجيه للخير ٧٥ - سليمان بن عبد الملك وأبو حازم ٧٧ - التاجر
الناصح الزاهد ٧٨ - نظرة عمرية لحقيقة الصلاح ٨٠

٨١ التكافل

أمة واحدة ٨١ - جماعة المسلمين تقوم على التكافل ٨١ - مسئولية
الفرد والجماعة ٨٢ - إيقاظ ضمير الفرد وضمير الجماعة ٨٣ - حراسة
الرأي العام ٨٥ - عزائم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٨٦ -
العلاج بالتشريع ٨٨ - مرد الإصلاح عامة إلى الإحسان ٨٩ - تكافل
المهاجرين والأنصار ٩٠ - مثل من التكافل في قبائل الطوارق ٩١

٩٥ البر

كلمة جامعة ٩٥ - نظرة الإسلام إلى مشكلة الفقر ٩٦ - الفقر لعلة
والفقر لفقد الوسيلة ٩٧ - العمل هو الأصل ٩٨ - مطاردة الترف
والبؤس ١٠١ - القانون والضمير ١٠١ - اشتراكية أبي ذر ١٠١ -
محاربة الترف والاكتمال والربا ١٠٢ - سلطات واسعة لولي الأمر ١٠٤ -

المساواة عقيدة وخلق ونظام ١٠٤ - الأشكال والمظاهر ليست غاية في
الحكم ١٠٨ - حق الفقير حق الله ١٠٩ - البر بغير المسلمين ١١٠ -
فلننظم البر على أسس الإسلام ١١٠ .

١١٣ العدالة والحرية

صور جاهلية ١١٣ - العالم بين الفرس والرومان ١١٤ - تحطيم القيود
 وإزالة الفوارق ١١٦ - مبادئ في السياسة وعقائد في الدين ١١٧ -
 خليفة يبيع في الأسواق ١١٧ - خليفة يلبس المرقع ١١٨ - فجر العدالة
 الدولية ١١٩ - ميزان الخليفة ١٢٠ - ميزان الشريعة ١٢١ - كفالة
 الحريات ١٢١ - الدفاع عن الحريات ١٢٣

١٢٥ (٣) في العلاقات الدولية

١٢٧ الدولة الإسلامية الأولى وعلاقاتها

من تاريخ علاقات المسلمين بالمناهضين للإسلام ١٢٧ - أول معاهدة
 دولية بين المسلمين واليهود والمشركين ١٢٩ - دستور الدولة المحمدية ١٣٦
 - نموذج قديم للأمم المتحدة ١٣٦ - الإذن بالحرب الدفاعية ١٣٨ - حرب
 للأغراض السامية ١٣٨ - تنظيم علاقات الشر خير ١٤٠

١٤١ الحرب المشروعة

تحديد أسباب الحرب وأغراضها ١٤١ - الحرب الدفاعية هي المباحة ١٤٣ -
 وصايا وتحميس إذا وقعت الحرب ١٤٤ - الإسلام دين عملي ١٤٥ -

فريضة الجهاد على المسلم والمسلمة ١٤٦- الحرب الهجومية لا يبيحها
الإسلام ١٤٨- الحرب لأغراض مادية غير مشروعة ١٤٨- ضرورة
تقدر بقدرها ١٤٩- الضعف والذل ظلم للنفس ١٥١

١٥٣

الحرب لنصرة المظلوم

مبدأ شريف في الجاهلية والإسلام ١٥٣- قصة حلف الفضول ١٥٤-
حلف مرغوب فيه دائماً ١٥٦- لا تحالف في الإثم والعدوان ١٥٦- حرب
أخرى مشروعة ١٥٧- حلف جاهلي آخر يجدد بروح إسلامية ١٥٨-
المسيحية والحرب ١٦٠- اختلاف المسيحيين ١٦١- الحرب العادلة
عند بعض المسيحيين ١٦٢- لجوء المسيحيين إلى شبيهه بالنظرية
الإسلامية ١٦٣- نصرة المظلوم ضرب من التكافل ١٦٤

١٦٧

أدب الحرب

الحرب والرق والقضاء عليهما تدريجياً ١٦٧- أدب عام وأدب خاص ١٦٨-
الإنذار ١٦٩- حماية حقوق المستأمن المنتسب للعدو ١٧٠- من
سماحة الفقهاء ١٧٠- لطيفة بين واصل بن عطاء والخوارج ١٧١-
مسألة غير المحاربين ١٧٢- الغارات العصرية على الأمنين ١٧٤- فرار
إلى أخلاق الرحمة في الأديان ١٧٥- التخريب القاسي ١٧٥- حوادث
ونصوص ١٧٦- نظرات في أحكام الأسر والاسترقاق ١٧٨- حادثة
بني قريظة وغموض بعض ظروفها ١٧٨- لا قتل لعله الشرك أو الكفر

وحدها ١٧٩- أدلة العقل ١٧٩ - أدلة التاريخ ١٨٠- احترام النفس
البشرية بدون تخصيص ١٨١- آداب أخرى للحرب ١٨١

١٨٣

السلم الدائمة

السلم دائمة والحرب طارئة ١٨٣- دفع تهم وأوهام ١٨٣- أسباب اضطراب
السلام ١٨٤- نصوص في تدعيم حياة السلام ١٨٦- روح سلمية واحدة
في مكة والمدينة ١٨٩- شهادة الأجانب ١٩٠- شهادة التاريخ ١٩٠

١٩٣

العهود والمواثيق

المسلم والمعاهد ومن لا عهد له ١٩٣- رأي في مسألة التخيير بين الإسلام
أو الجزية أو السيف ١٩٥- السلم بين المؤمنين ١٩٦- الإسلام وطن
المسلم ١٩٧- لا إقليمية في الإسلام ١٩٧- عالمية شاملة ١٩٨- يسعى
بذمتهم أدناهم ١٩٨- أخوة الذمة والعهد ١٩٩- حقوق الذمي وواجباته
١٩٩- غنمه أكثر من غرمه ٢٠٠- بين الذمة الإسلامية ونظام الحماية
الحديثة ٢٠١- الاستعمار الحديث لا يعرفه الإسلام ٢٠٢- كفالة الله
وشهادته على العهود ٢٠٢- الذمي في كفالة الإسلام أينما كان في بلد
إسلامي ٢٠٣- عهود الأمان وتبادل المنافع ٢٠٣- من وصايا الراشدين
٢٠٤- إلى الأخوة والوفاء ٢٠٤- حق واحد للغالب ٢٠٥- موجّهات
الصلح ٢٠٦- من حرب ١٨٧٠ إلى حرب ١٩٣٩ (٢٠٧)- حرمة العهود
فوق صلة الدين ٢٠٨- عبد يعاهد وخليفة يقر عهده ٢٠٩- امرأة تحير

والرسول يقر جوارها ٢٠٩- كرامة الفرد ٢٠٩- مثل رائع لاحترام كلمة
لم تكتب ٢١٠- متى يجوز نقض العهد ٢١٣

٢١٣ (٤) في أسباب الاضطراب العالمي

٢١٥ الاستعمار

إثارة الرغبة في بحث شامل ٢١٥- مقاتلون ومحايدون ٢١٦- الأسباب
الأساسية للاضطراب ٢١٦- الاستعمار أو الخراب ٢١٨ - فرائسه
هي فرسانه ٢١٨- الاستعمار سراب ٢١٩- سبب الحروب في القرنين
الأخيرين ٢١٩- شرّ على الغالب ٢٢٠- شرّ على المغلوب ٢٢٠- آثاره
في الغرب ٢٢٠- وفي الشرق ٢٢١- محاولات لالتماس المخرج ٢٢١ -
التضحية بالاستعمار لنجاة الحضارة ٢٢٢ - الدعوة المحمدية تنكره ٢٢٢-
لا حجة على الإسلام إلا من نصوصه وسننه ٢٢٣

٢٢٥ نزاع الطبقات

التفاوت قديماً وحديثاً ٢٢٥- أمثلة من التاريخ العالمي ٢٢٦- التعقيد
العصري في المذاهب والدعوات ٢٢٧- من آثار البخار والكهرباء ٢٢٩-
الرأسمالية والعمالية ٢٢٩ - في الدول الشيوعية والنازية والفاشية
والديموقراطية ٢٣٠- البساطة الإسلامية في معالجة مشكلات المال ٢٣١-
المبدأ ثابت والتنفيذ مرن ٢٣٢- الشرع مع المصلحة ٢٣٣- مثلاً رائعان
من حرية تصرف الدولة حسب الظروف ٢٣٣- أكبر مهام الدولة ٢٣٦-

لا خصومة ولا نزاع متى خلصت النيات لله ٢٣٦- الإيمان هو الحارس الأول على المصلحة ٢٣٨- إلزام السلطان بمنع نزاع الطبقات وبالتأمين الاجتماعي ٢٣٩- العنصر الروحي التهذيبي ٢٤٠- محاربة الترف والبذخ ٢٤٢- الرسول الزاهد ٢٤٣- المتاع الروحي أبقي ٢٤٤- جمع بين المصحف والسيف ٢٤٥

٢٤٧

النزعات العنصرية والوطنية

العنصرية قديماً وحديثاً ٢٤٧- الوطنية والقومية الحادة عصبية حديثة ٢٥٠- أثر التشدد في الحدود الجغرافية والجنسية ٢٥٠- انتقال العصبية الحادة إلى الشرق ٢٥١- نظريات اختلاف الدم ٢٥٢- أضرار الهجرة الإجبارية ٢٥٢- بارود الحروب الحديثة ٢٥٣- الإسلام لا يعرف وثنية العنصر والوطن ٢٥٣- وضع العلاقات البشرية على أساس معنوي ٢٥٥- خلاف أخف من خلاف ٢٥٥- القوة ليست وسيلة الإسلام لتحقيق أهدافه ٢٥٧- لا سيادة ولا عبودية ٢٥٧

٢٥٩

هزيمة القوى المعنوية

السيطرة على المادة وأثرها في طغيان المادية ٢٥٩- سرعة التطور المادي وبطء التطور الروحي ٢٦١- تباعد الفروق بين الناس تبعاً لحظوظهم من العلم المادي ٢٦١- بلبله وشتات وتناكر ٢٦٢- ضرورة التوفيق السريع بين الروح والمادة ٢٦٣- نعم تستحيل إلى نقم ٢٦٤- جرائم تُرتكب باسم

الحريات ٢٦٥- لا بد من ضوابط أدبية قبل الكارثة الكبرى ٢٦٥- توفيق الإسلام بين الحياتين ٢٦٥ - مدينتنا تتحطم مرتين في ربع قرن ٢٦٦ - أتعмир للتخريب؟ ٢٦٧ فلنرجع إلى منابع الهدى والرحمة في الأديان ٢٦٧- تصوير للحرب تسخر منه العقول ٢٦٨- أجهالات في مكان الكمالات؟ ٢٦٩ أفلح من زكاها ٢٦٩

٢٧١

ثالث الفساد

آثار الثالث في حياة الأفراد ٢٧١ - فلسفة سياسية خطيرة ٢٧٢- آية قرآنية يفخر بها المسلمون ٢٧٢- تشبيه بليغ ٢٧٣- نصوص وحوادث ٢٧٣ - الغدر غير الخدعة في الحرب ٢٧٦- قبح الغدر حتى بين الأشقياء ٢٧٦- الله لا يهدي كيد الخائنين ٢٧٧- الكذب والنفاق في السياسة ٢٧٧- الميكافلية ينكرها الإسلام ٢٧٨- سياسة الوضوح ٢٧٨- صفتان أدناً من الكفر ٢٧٩- أسماء على غير مسمياتها ٢٨٠

٢٨١

(٥) في البحث عن سند روحي للحضارة

٢٨٣

الوصاية على الحضارة للأقوى أم للأتقى؟

الشعلة المتنقلة بين الأجناس ٢٨٣- قصور (علم الإنسان) ٢٨٤- أدوار الحضارة ومن مثلوها ٢٨٦- من (علم الإنسان) ٢٨٦- الفروق البدنية لا تكيف الحضارة ٢٨٧- المدنية ليست اختصاصاً لقوم وحدهم ٢٨٨- هي أثر للحالات النفسية ٢٨٩- قانون قرآني ٢٨٩- مساواة تامة بين

الأرواح البشرية ٢٩٠ - وحدة التكليف الديني ومغزاها ٢٩١ - دعوى
هي أصل الاستبداد والتفاوت ٢٩١ - ميراث النفس الطيبة ٢٩٢

٢٩٣

قيام المدنية ودوامها

مداولة الأيام بين الناس ٢٩٣ - التفسير المادي للتاريخ ٢٩٤ - التفسير
العنصري للتاريخ ٢٩٥ - مناقشة التفسيرين ٢٩٥ - التفسير الروحي ٢٩٦ -
من القرآن ٢٩٧ - بارود القذيفة ٢٩٨ - ساعة الفصل بين التقدم والتأخر ٢٩٨ -
نظرة تشاؤم إلى المدنية الحاضرة ٢٩٩ - بين المدنية والحق ٢٩٩ - الانهيار
الفجائي ٢٩٩ - عوامل فناء المدن ٣٠٠ - الترف ٣٠٠ - الضعف عن حمل
أمانات الحضارة ٣٠١ - هل جاء وعد الله؟ ٣٠٢

٣٠٥

نظام جديد للعالم

صوت مع أصوات الدعاة ٣٠٥ - فلنتحرر من النظريات القديمة ٣٠٦ -
المدنية في رأي (كبلنج) ٣٠٧ - وطأة العيش في عصور الانتقال ٣٠٨ -
هل نستطيع نحن وضع نظام للمستقبل؟ ٣٠٨ - ماذا بين أب جاهل
وابن عالم؟ ٣٠٩ - بين جاهل معاصر وجده الفرعوني ٣١٠ - لنحذر
عقوبة الغرور ٣١١ - إلى نظام سلبي مؤقت ٣١١ - لا أمل في شيوخ
الساسة والعامة. الأمل في القدرة العليا وفي مرونة الطبيعة الإنسانية
٣١٢ - فلنؤجل النظم المثالية المجردة ٣١٢ - من تاريخ الاصطدام بين
المثل العليا والواقع السيئ ٣١٣

٣١٥

الواجب قبل الحق

شغل المفكرين في العالم ٣١٥ - جمعية إنجليزية تضع دستوراً لحقوق الإنسان ٣١٥ - استفتاء عظيمين من مفكري الشرق ٣١٦ - رأي غاندي ٣١٦ - غضب ويلز على غاندي ٣١٧ - رأي نهرو ٣١٧ - مع رأي غاندي ٣١٩ - فلنجرب طريقة غاندي ٣١٩ - طريقة مجربة في الإصلاح ٣١٩ - تحويل التصور البشري ٣٢١ - إعلاء الغرائز وتحويلها ٣٢٢ - تربية يطرد بها روح الأديان ٣٢٣

٣٢٥

علل النظام الحالي

إجماع على فساد الرأسمالية ٣٢٥ - خطر رأسمالية الآلة ٣٢٦ - الآلات بركات كثيرة اللعنات ٣٢٦ - مادية لا سند لها من الروح ٣٢٧ - مشكلة التعطل في الأمم الرأسمالية ٣٢٧ - رجال الكنيسة الإنجيلية يتحولون إلى اليسار ٣٢٧ - إلى التوازن الإسلامي ٣٢٨ - الاستعمار الحديث ٣٢٩ - ويلات عالمية ٣٣٠ - شاهد حق ٣٣٠ - شاهد من العالم الجديد ٣٣١

٣٣٣

مقترحات

البدء بتقرير قواعد بسيطة ٣٣٣ - تطور الرأسمالية والاستعمار واجب ٣٣٤ - عالم واحد لا تجزؤ فيه ٣٣٤ - هيئة عليا عالمية لقيادة مشتركة ٣٣٤ - التدرج إلى حكومة عالمية ٣٣٤ - البدء في قلوب الطفولة ٣٣٥ - من التربية القومية إلى التربية العالمية ٣٣٥ - التدريب

على الغضب للمصلحة العالمية ٣٣٧- فلنتعهد النواة الصالحة في هيئة
الأمم المتحدة ٣٣٧

٣٣٩ (٦) في النظام الأساسي للدولة الإسلامية

٣٤١ بعض أسس الدولة الإسلامية: الإمامة - الشورى - السيادة

دلالة الفقه الإسلامي ٣٤٢ - المبادئ العامة محدودة وقاطعة ٣٤٣

٣٤٥ في الشورى

من هم أهل الشورى؟ ٣٤٦

٣٤٩ في الإمامة

المُجمَع عليه في الإمامة ٣٤٩- تجربة العصور ٣٥٢- الأصول المقررة في

رياسة الدولة الإسلامية ٣٥٢

٣٥٣ في سيادة الأمة

مفهوم السيادة في الإسلام ٣٥٤- صورة لا نظير لها ٣٥٥- حدود سلطة

الأمة ٣٥٦- لا سند لما ينقض العدل والحق ٣٥٧

٣٦١ (٧) في انتشار الدعوة

٣٦٣ انتشار الدعوة في الوثنيين

شهرة باطلة ٣٦٣- خلط بين انتشار الدعوة وامتداد الدولة ٣٦٤- فتح مكة

بجيش المطرودين ٣٦٤- الدعوة السرية والجهرية ٣٦٥- مشروعية الدفاع

عن النفس ٣٦٥- الموقف في الحديبية يشهد ٣٦٧- تاريخ الدعوة هو تاريخ

الصبر والمقاومة ٣٦٧ - الموقف في خارج الجزيرة ٣٦٨ - رواية الكولونيل بيك ٣٦٨ - فتنة واعتداء ٣٦٩ - تجمع وتهديد ٣٦٩ - مع الروم في شرق الأردن (مؤتة) ٣٧٠ - دليل فذ من أدلة التسامح الإسلامي ٣٧١ - فتح مكة ٣٧٢ - لم يكن مفر من تحكيم السيف في فتحها ٣٧٢ - الغرض من فتحها ٣٧٤ - صورة من التسامح المحمدي ٣٧٤ - دليل على انهيار النظام الجاهلي ٣٧٤ - الفتح السلمي قبل الفتح الحربي ٣٧٥ - دليل من إسلام أبي سفيان زعيم المشركين ٣٧٥ - الوفود تتوالى من الجزيرة باختيارها على الرسول ٣٧٦ - الخدمة الوحيدة التي أداها السيف للإسلام ٣٧٦ - أبيع الدين بدراهم معدودات! ٣٧٧ - مفارقات ٣٧٨ - ما بعث الله محمداً جابياً ٣٧٨ - قصة تكشف عن روح عصرها ٣٧٨

٣٨١

انتشار الدعوة في الأمم المسيحية

ماذا بين الموجة العربية وموجات الهون والفندال والتتار؟ ٣٨١ - موجة تحمل رسالة الهدى والعدالة ٣٨٢ - موجة فذة في التاريخ ٣٨٣ - في ساحة المسيحية ٣٨٣ - شهادة السير توماس أرنولد ٣٨٤ - انتشار المسيحية في ظلال الإسلام ٣٨٤ - تحاكم المسيحيين إلى عدالة المسلمين ٣٨٥ - فرض مرفوض ٣٨٥ - الوزراء والولاة المسيحيون في دولة الإسلام ٣٨٥ - مراسم المسيحية في قصر الخلافة الإسلامية ٣٨٥ - الكنائس تشاد في رعاية الإسلام ٣٨٦ - العرب المسيحيون يحاربون مع إخوانهم المسلمين ٣٨٦ - بطولة عربي نصراني في واقعة البويب ٣٨٧ -

لم يكن السيف من أسباب دخول المسيحيين في الإسلام ٣٨٨ - وقائع اضطهاد هي استثناء يثبت القاعدة ٣٨٨ - السياسة والحسد الاجتماعي لا الدين ٣٨٩ - برهان قاطع على تسامح المسلمين ٣٩٠ - لقاء ودي دائم في بلاد الإسلام بينه وبين المسيحية ٣٩٠ - التعصب الديني بضاعة غربية ٣٩٠

٣٩١

إسلام الصليبيين

دور من الصراع بين المسلمين والمسيحيين ٣٩١ - تاج العرب والترك من بعدهم ٣٩٢ - إسلام طوائف من الصليبيين ٣٩٢ - في الحرب الصليبية الأولى ٣٩٣ - في الحرب الثانية ٣٩٦ - رواية راهب عن إسلام ثلاثة آلاف صليبي ٣٩٤ - القسوة الغادرة بالإخاء ٣٩٤ - الرحمة المنقذة للأعداء ٣٩٤ - رحمة أشد قسوة من الخيانة ٣٩٥ - احتكاك أفاد الصليبيين ٣٩٥ - تبادل الأسوة الحسنة ٣٥٦ - تأثير الإعجاب بصلاح الدين ٣٩٦ - أمراء كثيرون يسلمون ٣٩٧ - صليبيون يقاتلون في صفوف المسلمين ٣٩٧ - فرح نصارى الشرق بزوال حكم الصليبيين ٣٩٨ - شواهد أخرى من الشرق البعيد في العهد الأموي ٣٩٨ - سلوك كريم في كل مكان وزمان ٣٩٩ - أساس قرآني لم يختلف باختلاف العصور ٤٠٠ - هل من نهضة للحق والحرية يقوم بها المسلمون والمسيحيون في الشرق؟ ٤٠٠

٤٠١

إسلام الأوروبيين

تاريخ مشرف لنا وتاريخ غير مشرف لغيرنا ٤٠٢ - مزاج قاس وصدر ضيق ٤٠٢ - مفارقات بين البدو المسلمين والحضر المسيحيين ٤٠٣ - المسيح البريء من روح التعصب الغربي ٤٠٣ - النزعات البشرية القاسية بين إطلاق المسيحية وتقييد الإسلام ٤٠٤ - أثر تركيز الدين في النظام الكهنوتي ٤٠٤ - الحرية في فهم القرآن لدى المسلمين والقيود في فهم الإنجيل لدى المسيحيين ٤٠٤ - الحلال والحرام بين في الإسلام لدى الخاصة والعامة ٤٠٥ - أدب القرآن مع المخالفين ٤٠٥ - بساطة الدخول في الإسلام تعصم الدماء والأموال ٤٠٥ - من تاريخ تعصب المسيحيين في إسبانيا ٤٠٦ - اضطهاد اليهود في إسبانيا ٤٠٦ - فرار المضطهدين إلى الإسلام برغبة ٤٠٦ - تسامح الفاتحين وعدم ترفعهم عن المخالطة ٤٠٧ - استعراب واندماج ٤٠٧ - نصارى يقرءون القرآن ٤٠٧ - دخول في الإسلام حتى في وقت سقوط دولته ٤٠٨ - هزيمة العرب في إسبانيا سببت تأخر وصول الحضارة إلى أوروبا ثمانية قرون ٤٠٨ - بين وطأة المسيحيين في الغرب ورحمة المسلمين في الشرق ٤٠٩ - سلطات وامتيازات للمسيحيين في دولة الأتراك ٤٠٩ - العمى عن الأسوة الحسنة ٤١١ - هو المزاج الغربي الدموي دائماً ٤١١ - أمل في رحمة الله ٤١٢

❁ مقدمة السلسلة

إن فكرة هذا المشروع الذي أُطلق عليه «إعادة إصدار مختارات من التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريَّين / التاسع عشر والعشرين الميلاديَّين»، قد نبعت من الرؤية التي تتبناها مكتبة الإسكندرية بشأن ضرورة المحافظة على التراث الفكري والعلمي في مختلف مجالات المعرفة، والمساهمة في نقل هذا التراث للأجيال المتعاقبة تأكيداً لأهمية التواصل بين أجيال الأمة عبر تاريخها الحضاري؛ إذ إن الإنتاج الثقافي - لا شك - تراكمي، وإن الإبداع ينبت في الأرض الخصبة بعطاء السابقين، وإن التجديد الفعال لا يتم إلا مع التأصيل. وضمان هذا التواصل يعتبر من أهم وظائف المكتبة التي اضطلعت بها، منذ نشأتها الأولى وعبر مراحل تطورها المختلفة.

والسبب الرئيسي لاختيار هذين القرنين هو وجود انطباع سائد غير صحيح؛ وهو أن الإسهامات الكبيرة التي قام بها المفكرون والعلماء المسلمون قد توقفت عند فترات تاريخية قديمة، ولم تتجاوزها. ولكن الحقائق الموثقة تشير إلى غير ذلك، وتؤكد أن عطاء المفكرين المسلمين في الفكر النهضوي التنويري - وإن

مر بحدّ وجزر - إنما هو تواصل عبر الأحقاب الزمنية المختلفة، بما في ذلك الحقبة الحديثة والمعاصرة التي تشمل القرنين الأخيرين.

يهدف هذا المشروع - فيما يهدف - إلى تكوين مكتبة متكاملة ومتنوعة، تضم مختارات من أهم الأعمال الفكرية لرواد الإصلاح والتجديد الإسلامي خلال القرنين الهجريّين المذكورين. والمكتبة إذ تسعى لإتاحة هذه المختارات على أوسع نطاق ممكن، عبر إعادة إصدارها في طبعة ورقية جديدة، وعبر النشر الإلكتروني أيضاً على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)؛ فإنها تستهدف في المقام الأول إتاحة هذه المختارات للشباب وللأجيال الجديدة بصفة خاصة.

ويسبق كل كتاب تقديمٌ أعده أحد الباحثين المتميزين، وفق منهجية منضبطة، جمعت بين التعريف بأولئك الرواد واجتهاداتهم من جهة، والتعريف بالسياق التاريخي / الاجتماعي الذي ظهرت فيه تلك الاجتهادات من جهة أخرى؛ بما كان فيه من تحديات وقضايا نهضوية كبرى، مع التأكيد أساساً على آراء المؤلف واجتهاداته والأصداء التي تركها الكتاب. وللتأكد من توافر أعلى معايير الدقة، فإن التقديمات التي كتبها الباحثون قد راجعتها واعتمدتها لجنة من كبار الأساتذة المتخصصين، وذلك بعد مناقشات مستفيضة، وحوارات علمية رصينة، استغرقت جلسات متتالية لكل تقديم، شارك فيها كاتب التقديم ونظراؤه من فريق الباحثين الذين شاركوا في هذا المشروع الكبير. كما قامت مجموعة من المتخصصين على تدقيق نصوص الكتب ومراجعتها بما يوافق الطبعة الأصلية للكتاب.

هذا، وتقوم المكتبة أيضاً - في إطار هذا المشروع - بترجمة تلك المختارات إلى الإنجليزية ثم الفرنسية؛ مستهدفة أبناء المسلمين الناطقين بغير العربية، كما ستتيحها لمراكز البحث والجامعات ومؤسسات صناعة الرأي في مختلف أنحاء العالم. وتأمل المكتبة أن يساعد ذلك على تنقية صورة الإسلام من التشويهات التي يلصقها البعض به زوراً وبهتاناً، وبيان زيف كثير من الاتهامات الباطلة التي يُتهم بها المسلمون في جملتهم، خاصة من قِبَل الجهات المناوئة في الغرب.

إن قسماً كبيراً من كتابات رواد التنوير والإصلاح في الفكر الإسلامي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، لا يزال بعيداً عن الأضواء، ومن ثم لا يزال محدود التأثير في مواجهة المشكلات التي تواجهها مجتمعاتنا. وربما كان غياب هذا القسم من التراث النهضوي الإسلامي سبباً من أسباب تكرار الأسئلة نفسها التي سبق أن أجاب عنها أولئك الرواد في سياق واقعهم الذي عاصروه. وربما كان هذا الغياب أيضاً سبباً من أسباب تفاقم الأزمات الفكرية والعقائدية التي يتعرض لها أبنائنا من الأجيال الجديدة داخل مجتمعاتنا العربية والإسلامية وخارجها. ويكفي أن نشير إلى أن أعمال أمثال: محمد عبده، والأفغاني، والكواكبي، ومحمد إقبال، وخير الدين التونسي، وسعيد النورسي، ومالك بن نبي، وعلال الفاسي، والطاهر ابن عاشور، ومصطفى المراغي، ومحمود شلتوت، وعلي شريعتي، وعلي عزت بيجوفتش، وأحمد جودت باشا - وغيرهم - لا تزال بمنأى عن أيدي الأجيال الجديدة من الشباب في أغلبية البلدان العربية والإسلامية، فضلاً عن الشباب

المسلم الذي يعيش في مجتمعات أوروبية أو أمريكية؛ الأمر الذي يلقي على المكتبة عبئًا مضاعفًا من أجل ترجمة هذه الأعمال، وليس فقط إعادة نشرها بالعربية وتيسير الحصول عليها (ورقيًا وإلكترونيًا).

إن هذا المشروع يسعى للجمع بين الإحياء، والتجديد، والإبداع، والتواصل مع الآخر. وليس اهتمامنا بهذا التراث إشارة إلى رفض الجديد الوافد علينا، بل علينا أن نتفاعل معه، ونختار منه ما يناسبنا، فتزداد حياتنا الثقافية ثراءً، وتتجدد أفكارنا بهذا التفاعل البناء بين القديم والجديد، بين الموروث والوافد، فتنتج الأجيال الجديدة عطاءها الجديد، إسهامًا في التراث الإنساني المشترك، بكل ما فيه من تنوع الهويات وتعددتها.

وأملنا هو أن نسهم في إتاحة مصادر معرفية أصيلة وثرية لطلاب العلم والثقافة داخل أوطاننا وخارجها، وأن تستنهض هذه الإسهامات همم الأجيال الجديدة كي تقدم اجتهاداتها في مواجهة التحديات التي تعيشها الأمة؛ مستلهمة المنهج العلمي الدقيق الذي سار عليه أولئك الرواد الذين عاشوا خلال القرنين الهجريين الأخيرين، وتفاعلوا مع قضايا أمتهم، وبذلوا قصارى جهدهم واجتهدوا في تقديم الإجابات عن تحديات عصرهم من أجل نهضتها وتقدمها.

لقد وجدنا أن من أوجب مهماتنا ومن أولى مسئولياتنا في مكتبة الإسكندرية، أن نسهم في توعية الأجيال الجديدة من الشباب في مصر، وفي

غيرها من البلدان العربية والإسلامية، وغيرهم من الشباب المسلم في البلاد غير الإسلامية بالعطاء الحضاري للعلماء المسلمين في العصر الحديث، خلال القرنين المشار إليهما على وجه التحديد؛ حتى لا يترسّخ الانطباع السائد الخاطئ، الذي سبق أن أشرنا إليه؛ فليس صحيحًا أن جهود العطاء الحضاري والإبداع الفكري للمسلمين قد توقفت عند فترات زمنية مضت عليها عدة قرون، والصحيح هو أنهم أضافوا الجديد في زمانهم، والمفيد لأمتهم وللإنسانية من أجل التقدم والحث على السعي لتحسين نوعية الحياة لبني البشر جميعًا.

وإذا كان العلم حصاد التفكير وإعمال العقل والتنقيب المنظم عن المعرفة، فإن الكتب هي آلة توارثه في الزمن؛ كي يتداوله الناس عبر الأجيال وفيما بين الأمم.

إسماعيل سراج الدين

مدير مكتبة الإسكندرية

والمشرف العام على المشروع

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر
مكتبة الإسكندرية، إنما تعبّر عن وجهة نظر مؤلفيها.

تقديم

عصمت نصار

لم يقتصر خطاب الدعوة وترشيح المشروع الإسلامي لببيت دستوراً للعالم عوضاً عن الفلسفات المادية والقوانين الوضعية على كتابات الأزهرين فحسب، بل امتد إلى الأدباء والساسة مثل أحمد تيمور (١٢٨٨هـ - ١٣٤٨هـ / ١٨٧١م - ١٩٣٠م) ومحمد حسين هيكل (١٣٠٥هـ - ١٣٧٦هـ / ١٨٨٨م - ١٩٥٦م) وعباس محمود العقاد (١٣٠٦هـ - ١٣٨٣هـ / ١٨٨٩م - ١٩٦٤م)، ولا سيما في الفترة الممتدة من قبيل الحرب العالمية الأولى إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، تلك الفترة التي عجزت فيها الحضارة الغربية بالرغم من تقدمها العلمي، وتزايد ثرواتها وعظم جيوشها عن تحقيق السعادة للإنسان الغربي.

وراح الأوروبيون أنفسهم يشكون منذ مطلع العقد الثاني من القرن العشرين من ظاهرة العنف والقسوة التي تفشت في سلوك رجال السياسة، الذين لم يكفهم ما نهبوه من بعض بلاد الشرق العربي وأفريقيا منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر، بل دفعهم النهم والرغبة في الاستيلاء والهيمنة والسيطرة على ما يملكه الأغيار إلى التحالف والتصارع دون أدنى اعتبار لما ينجم عن الحروب

من خراب ودمار، وضجر معظم الكتاب والأدباء من الفلسفات المادية، ورائحة البارود التي انتشرت في جميع الأجواء، وظهرت عشرات النزعات التشاؤمية والعبثية والفوضوية والوجودية واليوتوبية في الثقافتين الشرقية والغربية، وجميعها يسخر من الواقع الذي آل إليه الإنسان.

ووسط هذا الركام ظهر كتاب الرسالة الخالدة لعبد الرحمن عزام الذي نقدم له، فالمؤلف مصري الميلاد، عربي الثقافة، مسلم العقيدة، ورجل من رجالات السياسة، أدرك أن خلاص العالم في تقويم ثقافته المادية، وذلك ببعث القيم الروحية ثانية في بنيتها، فتوقظ الضمائر، وتبعث التفاؤل والحب والسلام في الأنفس اليائسة، التي فقدت إنسانيتها في ظل شعورها بالخوف وعدم الأمان.

قدم عزام رسالته ليثبت لشبيبة بني جلدته أن السعادة والتقدم والمدنية ليست في تقليد أوروبا، ولا في فلسفة القوة، ولا في العلوم المادية، بل في الموازنة بين القيم الروحية، والمناهج العلمية، والجمع بين الشرائع الإيمانية، والمعارف العقلية.

كما حرص عزام على ترجمة رسالته إلى الإنجليزية، ليقدم للإنسان الغربي مشروع خلاصه من واقعه المتردي في صورة رسالة معرفية وخطاب ثقافي فضفاض يتسع للنقاش والأخذ والرد، ولا يقدم فصل الخطاب بنظرة عنصرية متعالية، بل يطرح حلولاً واقعية طيبة تصلح للناس كافة.

وسنحاول في الصفحات التالية إلقاء بعض الضوء على سيرة المؤلف وثقافته وعصره، ثم نتناول كتاب (الرسالة الخالدة) بشيء من التحليل والنقد لتبيان ما يناقشه من قضايا، مقدمين الوصف على التقييم، ثم نذيل هذه القراءة بالكشف عن أثر هذا الكتاب في الثقافة العربية والإسلامية.

عبد الرحمن عزام فارس العروبة وجندي الإسلام

حياته ورسالته وثقافة عصره

هو عبد الرحمن حسن سالم عزام، السياسي والمجاهد الإسلامي، والدبلوماسي العربي، وعلم من أعلام النهضة المصرية الحديثة، الملقب بجيفارا العرب^(١)، وُلِدَ بقرية الشوبك الغربي مركز العياط التابع لمديرية

(١) تردد لقب جيفارا العرب في الأوساط الثقافية العربية واتفق معظم المثقفين على أن عبد الرحمن عزام أول من لُقِّبَ به غير أنهم اختلفوا فيما بينهم على شخصية جيفارا فذهب جُلُ المثقفين اليساريين إلى أن المقصود بجيفارا هو إرنست تشي جيفارا (١٩٢٨م-١٩٧٦م) الثائر الأرجنتيني و المناضل الكوبي الماركسي، وأن سر إطلاق هذا اللقب على عزام هو الصفات التي تجمع بينهما (فكلاهما درس الطب، اشتغل بالنضال الثوري وكوّن الجمعيات الجهادية لمكافحة الاحتلال، جمع في ثقافته بين السياسة والفلسفة والأدب، واشتغل بالوزارة وشؤون الحكم) ولا يُعرف على وجه الدقة من الذي لقبه بهذا اللقب ولا المناسبة ولا التاريخ، علمًا بأن بطولات جيفارا لم يُسَوَّق لها في الثقافة العربية إلا في منتصف الستينيات، وكان عزام آنذاك في دائرة الظل من المسرح السياسي العربي، وكانت كل اهتماماته تنصب حول الرابطة الثقافية الإسلامية وتجديد الخطاب الدعوي في الأوساط الأوروبية، غير أن المفكرين المحافظين أكدوا أنه لم يكن ملحدًا ولا متعاطفًا مع الفكر الشيوعي، وأنه لُقِّبَ بهذا اللقب في أخريات الثلاثينيات من القرن العشرين، وكان المقصود بجيفارا الفيلسوف والسياسي والمؤرخ والأديب الفرنسي إسكاني الإسباني أنطونيو دي جيفارا (١٩٨٠م-١٩٤٥م) صاحب كتاب (الكتاب الذهبي للإمبراطور ماركوس أوريليوس) وذلك لأن كليهما كان صاحب رسالة تدعو إلى العدالة والسلام والحرية والتعاون بين البشر واتخذ من المبادئ الأخلاقية العقيدة سبيلًا لإصلاح السياسة وإنقاذ الإنسان من سجن الشهوات واللذائذ المادية التي تدفعه دومًا إلى الصراع=

الجيزة في (٢١ شعبان ١٣١٠هـ / ٨ مارس ١٨٩٣م)، وترد جذوره إلى قبيلة العزازمة بالجزيرة العربية التي انتقلت إلى ليبيا لبضع سنين، ثم استقرت في صعيد مصر منذ مطلع القرن الثامن عشر ضمن عشائر هواره.

وقد اختلف المؤرخون حول أصوله العرقية: إذ ذهب بعضهم إلى أنه ينحدر من قبائل يمنية ذات أصول بدوية من الجزيرة العربية- والأغلب من قبيلة جهينة- التي انتقلت إلى صعيد مصر، والبعض الآخر يرى أن أسرته لأبيه تنحدر من أصول فلسطينية، أما أسرته لأمه فهي من قبيلة جهينة ومن عصابة تميم^(١)، وكان والده الشيخ حسن بك عزام من أعيان الجيزة وعضواً بمجلس شورى القوانين في عهد الخديوي إسماعيل (١٢٤٦-١٣١٣هـ / ١٨٣٠-١٨٩٥م)، وكان جده الشيخ سالم بك عزام ناظرًا للجيزة، ونُفي في عهد الاحتلال البريطاني

=والإقبال على الشرور وارتكاب الآثام، وقد ذاعت سيرته وانتشرت كتبه المترجمة بين المثقفين المسيحيين الشوام الذين لقبوا عزام بهذا اللقب، الأمر الذي يبرر ربطهم بين الرجلين في سياق واحد، ولا سيما أن المثقفين الشوام كانوا من أشد رجال الفكر العربي تحمسًا لفكرة الرابطة العربية والدولة القومية مع الاحتفاظ بالمرجعية الدينية وهي الأفكار التي نادى بها عزام.

والجدير بالإشارة في هذا السياق أن الملف الوثائقي الخاص بعبد الرحمن عزام محفوظ في مكتبة الإسكندرية تحت اسم جيفارا العرب.

ويعقب أحفاد عبد الرحمن عزام على هذه التسمية بأنها أطلقت عليه في سني شبابه، ومن ثم يرجعون مقولة الشوام، ويبتلون في الوقت نفسه ربط هذا اللقب بالمناضل الكوبي الأشهر، وعلى الرغم من ذلك فمعظم المؤرخين والمهتمين بهذا الشأن لا يرجعون بتشبيهه بـ «ارنستو تشي» جيفارا (الأرجنتيني المولد)؛ حيث إن تاريخنا العربي والإسلامي مليء بالنماذج المشرفة.

(١) رالف م. خوري، عزام باشا (مصري اعتنق القومية العربية)، ترجمة: معين الإمام، دار المدى، دمشق، ٢٠٠٦م،

إلى السودان وتُوفِّي ودُفِنَ بمدينة الخرطوم، وكان جده لأمه خلف السعودي من أعيان الشوبك أيضًا، وهو الشقيق الأصغر لكل من عبد العزيز وصادق ومأمون ومحمد وعبد القادر^(١).

شبَّ عزام في كنف أسرة وطنية تجمع في ثقافتها بين العلوم الدينية والأدبية والفلسفية والسياسية، وقد انعكس ذلك في مقتنيات خزانة الكتب التي كانت تشغل جانبًا كبيرًا من الطابق الأول من منزل العائلة بحلوان، تلك المكتبة التي كان يتردد عليها الصبي منذ تعلمه القراءة والكتابة ومبادئ الحساب؛ فشبَّ محبًا للقراءة الموسوعية، فباتت المطالعة هوايته المرغوبة والمفضلة على سائر الألعاب التي كانت تشغل أقرانه ورفاقه.

ويروي عزام أن والده قد أرسله إلى الأزهر عام ١٨٩٩م وهو في السادسة من عمره ليحفظ القرآن في معية عمه، غير أن الطفل لم يطق البعد عن كنف أسرته فأعاده والده بعد بضعة أسابيع، وحفظ القرآن على شيخ القرية في كتاب بناء والده قبل انتقالهم إلى حلوان، ثم التحق عام ١٩٠٤م بمدرسة حلوان الابتدائية ومنها إلى المدرسة السعيدية عام ١٩٠٨م وتخرج فيها عام ١٩١٢م، وخلال سنوات الدراسة كوّن مع زملائه جمعية الرابطة الإسلامية لنشر آراء جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤هـ - ١٣١٥هـ / ١٨٣٨م - ١٨٩٧م) ومصطفى كامل (١٢٩١ - ١٣٢٦هـ / ١٨٧٤ - ١٩٠٨م) وعبد العزيز جاویش (١٢شوال ١٢٩٣ -

(١) عصام الغريب، عبد الرحمن عزام، الإسلام العروبة الوطنية، دار الكتب والوثائق، القاهرة، ٢٠١١م، ص ١٥.

١٣ شعبان ١٣٤٧هـ / ٣١ أكتوبر ١٨٧٦م - ٢٥ يناير ١٩٢٩م) بين الطلاب^(١)، وخلال هذه الفترة يشير رالف م. خوري إلى مدى تأثير عزام بكتاب محمد عبده (١٢٦٦-١٣٢٣هـ / ١٨٤٩-١٩٠٥م) (رسالة التوحيد) وكتابي قاسم أمين (١٢٨٠-١٣٢٦هـ / ١٨٦٣م - ١٩٠٨م) (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة)، ومقالات محمد رشيد رضا (٢٧ جمادى الأولى ١٢٨٢-٢٣ جمادى الأولى ١٣٥٤هـ / ٢٣ سبتمبر ١٨٦٥ - ٢٢ أغسطس ١٩٣٥م) عن الوحدة الإسلامية، ويقول عزام في ذلك:

«قرأت أعمال محمد عبده وقاسم أمين حين كنت شاباً، وأتذكر تأثيري بها. ثم قرأت بعض أعداد (المنار) فيما بعد، لكن ليس كلها. والأهم من كل ذلك كما أعتقد أنني عرفت رشيد رضا شخصياً. توجب علي معرفة ديني عن طريق السمع»^(٢).

وقد صرح عبد الرحمن عزام كذلك بتأثره بالثورة الفرنسية والنزعة القومية الليبرالية التي سادت أوروبا منذ أخريات القرن التاسع عشر، الأمر الذي كان وراء إيمانه برسالة الجهاد وكفاح المستعمر بكل السبل، ورفع شعار مصر للمصريين، والاستقلال التام أو الموت الزؤام.

(١) عبد الرحمن عزام، المذكرات، نشر وتحقيق: جميل عارف (المذكرات السرية لأول أمين عام للجامعة العربية)،

المكتب المصري الحديث، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٤١.

(٢) رالف م. خوري، عزام باشا، مرجع سابق، ص ٤٦.

وفي عام ١٩١٠م تابع عزام الحركة الحزبية في مصر بشغف لا يتناسب مع حداثة سنه، فطالع معظم الجرائد الحزبية (الجريدة، المؤيد، اللواء اليومية، الهداية) وكذا معظم دوريات صحافة الرأي مثل (المقتطف، الهلال، المنار، الأهرام)، واستهواه أسلوب عبد العزيز جاويز الثوري ودعوته للجهاد، وتعرف على قيادات الحزب الوطني، وانضم إلى جماعته السرية، وفي خريف عام ١٩١٢م سافر إلى لندن لدراسة الطب في كلية «سان توماس» عقب اتهامه بمحاولة اغتيال الخديوي عباس حلمي الثاني (١٢٩١ - ١٣٦٤هـ / ١٨٧٤م - ١٩٤٤م).

وقد سهل إجراءات سفره أحد أصدقاء والده من الإنجليز، غير أن أحاديثه في السياسة ومهاجمته للحكومة البريطانية في خطبه التي كان يلقيها على رفاقه من طلاب الكلية، وكذا في المجالس العامة، وانضمامه إلى جمعية (أبو الهول) التي كونها الطلاب المصريون في لندن لمناهضة سياسة إنجلترا في مصر، والمطالبة بالاستقلال وإجلاء القوات الإنجليزية عن أراضيها، ذلك فضلاً عن علم المخابرات الإنجليزية بمقابلته مع الزعيم محمد فريد (١٢٨٤هـ - ١٣٣٨هـ / ١٨٦٨ - ١٩١٩م) في سويسرا، للتنسيق بين الجمعية ومثيلاتها في أوروبا، كل ذلك دفع مدير الجامعة إلى فصله، فذهب عزام إلى تركيا مع اندلاع الحرب العالمية الأولى ليعمل كمراسل عسكري صحفي في الجيش العثماني، وشارك في حرب البلقان.

ثم عاد إلى مصر في نوفمبر ١٩١٥م ليلتحق بالقصر العيني لإكمال دراسته في الطب، وخلال هذه الفترة أعاد اتصاله بعبد العزيز جاویش والخلايا السرية الفدائية للحزب الوطني؛ فطارده الإنجليز ففر من عساكرهم إلى الإسكندرية^(١)، فمما إلى علمه أن المجاهد أحمد الشريف السنوسي (١٢٩٠هـ - ١٣٥٢هـ / ١٨٧٣م - ١٩٣٣م) يكون جيشاً في بنغازي لمقاومة الاحتلال الإيطالي، وانضم إليه إحسان نوري باشا العثماني (١٣١١ - ١٣٩٦هـ / ١٨٩٣ - ١٩٧٦م) لمهاجمة الحدود المصرية الليبية، فترك الكلية واعتزم التطوع في كتائب التحرير؛ فسافر سراً إلى بني غازي، وانضم إلى الجيش، وظل يناضل حتى معركة العواقر عام ١٩١٦م التي انكسر فيها الجيش العثماني أمام القوات الإنجليزية وأُسِر فيها عدد كبير من المناضلين، غير أن عبد الرحمن عزام تمكن من الهرب ليلتحق بجيش رمضان السويحلي (١٢٩٧ - ١٣٣٨هـ / ١٨٧٩ - ١٩٢٠م) والشيخ سليمان باشا الباروني (١٢٨٧ - ١٣٥٩هـ / ١٨٧٠ - ١٩٤٠م) في مدينة مصراتة لقتال الإيطاليين.

وفي عام ١٩١٧م ظهرت أولى كتاباته عن كفاح الشعب الليبي، وقامت وزارة الخارجية الألمانية في ذلك الوقت بإصداره باللغة الألمانية^(٢)، وفي نفس العام سافر إلى برلين لمقابلة زعماء الحزب الوطني للتنسيق بينهم لمواصلة الكفاح، غير

(١) الصادق شكري، عبد الرحمن باشا عزام والقضية الليبية، مقال بموقع ليبيا المستقبل الإلكتروني،
Archive.libyaalmostakbal.net/Articles0409/assadeq_shukri_azzam_080409.html

٢٠٠٩ / ٤ / ٨

(٢) عصام الغريب، عبد الرحمن عزام، ص ١٨.

أنه فشل في التقريب بين عبد العزيز جاویش ومحمد فريد^(١)؛ فعاد إلى ليبيا وظل يعمل في صفوف المجاهدين حتى أعلنت الجمهورية الطرابلسية عام ١٩١٨م وأصبح عبد الرحمن عزام مستشاراً لها، وقد بذل مع الأمير أحمد فؤاد جهداً كبيراً في مصالحة الفصائل الثورية الليبية لاصطفافها من جديد لمكافحة الإيطاليين^(٢)، وفي نفس العام شارك عزام في صياغة المذكرة التي أرسلت إلى لينين (١٢٨٧-١٣٤٣هـ / ١٨٧٠م-١٩٢٤م) تلك التي طالب فيها الحزب الوطني من زعماء الثورة البلشفية مساندتهم لتنال مصر استقلالها^(٣).

وفي ٩ أكتوبر ١٩١٩م أصدر جريدة تسمى اللواء الطرابلسي، وكتب بها العديد من المقالات. ويؤكد رالف م خوري أن مقالات عزام كانت بمثابة الإرهاصات الأولى لفكرة القومية العربية، والتي جمع فيها بين المسحة الإسلامية والرؤية الليبرالية العلمانية، ويبدو ذلك في العبارات الأولى التي صدر بها أول أعداد الجريدة، وجمع فيها بين العروبة والإسلام في سياق واحد، وأوضح فيها أن تأزر العرب واتحادهم يعد خطوة إيجابية لرعاية مصالح المسلمين^(٤).

(١) المرجع السابق، ص ٥٠.

(٢) رالف م. خوري، عزام باشا، مرجع سابق، ص ١٧٣-١٧٤.

(٣) عصام الغريب، عبد الرحمن عزام، ص ٥١.

(٤) رالف م خوري، عزام باشا، مرجع سابق، ص ١٩٨.

واستمر نضال عزام^(١) مع عمر المختار (١٢٧٨ - ١٣٥٠ هـ / ١٨٦١ م - ١٩٣٣ م) ضد الإيطاليين حتى عام ١٩٢٢ م.

وفي عام ١٩٢٣ م فر إلى مصر عقب إصدار الحكومة الإيطالية حكماً عليه بالإعدام، ليشترك في العمل السياسي الوطني، فانتخب عام ١٩٢٤ م عضواً عن حزب الوفد عن دائرة العياط بالجيزة^(٢)، في أول مجلس نواب مصري دستوري، ورافق سعد زغلول (١٢٧٥ - ١٣٤٦ هـ / ١٨٥٨ م - ١٩٢٧ م) كعضو في الوفد المصري إلى لندن لمفاوضة الإنجليز في نفس العام، ثم اختير سكرتيراً لمجلس النواب.

(١) محمد الوليدي، بنك فيصل الإسلامي هو بنك الدم الفلسطيني، مقال بموقع وطني نيوز،

<http://www.wtn24.com/permalink/18227/html/17/5/2011م>.

تشكك بعض الكتابات في وطنية وعروبة عبد الرحمن عزام، وتتهمه بالعمالة للإنجليز والتآمر على المقاومة الفلسطينية، والاستيلاء على التبرعات التي كانت تُعطى له أثناء عمله بجامعة الدول العربية، وذلك في مقالات مرسلّة لا سند لها، إلا شبهات تنطلق من تعجب كاتبها من ثراء ورثة العزازمة وامتلاكهم للعديد من الشركات والبنوك، وقد انتشرت مؤخراً العديد من الشائعات حول فتاة تركية تدعى «ثرثيا» تدعي أنها ابنة عبد الرحمن عزام، وأنها ولدت في فلسطين غير أن الدكتور محفوظ عزام أنكر نسبها، وبالرجوع إلى مذكرات أحفاد المناضل الليبي عمر المختار أكدوا أن عبد الرحمن عزام كان من المجاهدين الذين شاركوا في مكافحة الاحتلال الإيطالي، وأنه لم يخذلهم في الحصول على سلاح من مصر، بل الذي تخلى عنهم هو إدريس السنوسي. وقد أردنا من إيراد هذه الأخبار التنبيه على وجود بعض الكتابات التي تعتمد التشكيك في أعلام النهضة العربية لإسقاطها وتشويه سيرتها، ولعل سر حملة بعض الكتاب الليبيين على عبد الرحمن عزام هو موقفه من إدريس السنوسي ورفضه الاعتراف بحقه في عرش ليبيا عام ١٩٥١ م، واتهامه إياه بالاستيلاء على الأموال التي جمعت للكفاح المسلح وتآمره مع الإنجليز من أجل جلوسه على العرش، الأمر الذي اعتبره بعضهم خذلاً وتآمراً على مصلحة ليبيا، على الرغم من زواج عبد الرحمن عزام بليبيتين وله منهما أبناء.

(٢) رالف م. خوري، عزام باشا، مرجع سابق، ص ٧.

وخلال هذه الفترة تواصل عزام مع العديد من الهيئات والجمعيات السورية واللبنانية والفلسطينية التي كانت تروج لفكرة القومية العربية في الرأي العام المصري عن طريق الصحافة والخطابة في المنتديات العامة، ومن أشهر هذه التجمعات حزب الاتحاد السوري، ومنظمة الوحدة اللبنانية، والمؤتمر السوري/ الفلسطيني، وقد تعرف عزام على محمد كرد علي (١٢٩٣-١٣٧٣هـ/ ١٨٧٦-١٩٥٣م) وشكري القوتلي (١٨ ربيع الأول ١٣٠٩-٢٣ ربيع الأول ١٣٨٧هـ/ ٢١ أكتوبر ١٨٩١ - ٣٠ يونيو ١٩٦٧م) وعبد الرحمن الشهبندر (١٢٩٦-١٣٥٩هـ/ ١٨٧٩م-١٩٤٠م) وغيرهم من رواد الدعوة للقومية العربية، ونظموا جميعاً عشرات المؤتمرات لإحياء التراث العربي، ومناقشة قضايا العروبة، وآليات الوحدة المرجوة بين جميع الأقطار العربية^(١).

وفي عام ١٩٢٧م خاض مع سعد زغلول الحملة على التغلغل الإنجليزي في مرافق الدولة، ودعا إلى تمصير الوظائف الحكومية، وتحديث الجيش المصري، وتخليصه من القيادات الأجنبية^(٢).

ثم شارك في وفد برلماني مصري إلى البرازيل لحضور (المؤتمر البرلماني الدولي للتجارة) للدفاع عن حقوق العمال والفلاحين، واتصل هناك بالجاليتين

(١) المرجع السابق، ص ٣٢٠-٣٢٨.

(٢) عصام الغريب: عبد الرحمن عزام، ص ١١٥.

السورية واللبنانية، وناقش مع رجالاتها سبل توطيد العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بين الأقطار العربية.

وفي نفس العام رأس تحرير مجلة الكشف لتعبر عن وجهته الإصلاحية، غير أنها لم تستمر سوى عام واحد؛ وذلك للخلاف الذي شب بينه وبين صاحبها أحمد عبود حول سياستها^(١).

وفي عام ١٩٢٨م سافر إلى السعودية لإعادة العلاقات^(٢) التي انقطعت بين البلدين في عهد الملك أحمد فؤاد الأول (١٢٨٥-١٣٥٥هـ / ١٨٦٨-١٩٣٦م)، إذ أكد آل سعود أن عدم وجود علاقات دبلوماسية بين المملكة المصرية وبلاد

(١) المرجع السابق، ص ١٢٧.

(٢) لقد ساءت العلاقات بين مصر والحجاز في الفترة الممتدة من عام ١٩٢٥ إلى ١٩٢٧، ويرجع ذلك إلى حادثتين أولهما: دعوة أحمد فؤاد لخلافة عربية وتنصيب نفسه خليفة للمسلمين، وعدم اعترافه بملك آل سعود، أما الحادثة الثانية فهي: حادثة المحمل أي الجمل الذي كان يخرج من مصر حاملاً كسوة الكعبة وأموال الزكاة والصدقات التي كان يدفع بها المصريون للإنفاق على إخوانهم المسلمين في الجزيرة العربية بصحبة فرقة عسكرية لحماية المحمل، وعزف بعض الألحان المعبرة عن ابتهاج المصريين بدخول الأراضي الحجازية، وبدأ الاحتفال بمراسم غسيل الكعبة وكسوتها لاستقبال الحجاج، وقد ساء بعض شيوخ الدعوة الوهابية هذه المراسم ولا سيما الأبواق والطبول تلك التي اعتبروها ضرباً من ضروب البدع الجاهلية والطقوس الوثنية؛ فاعترضوا المحمل بالقوة ورجموه بالحجارة؛ فردت القوة العسكرية المصاحبة بإطلاق النار على المعتدين، فسقط بعض الجرحى وتدخل آل سعود ومحمد رشيد رضا للحيلولة دون تفاقم الأمر، وانتهت الواقعة باتفاق الجانبين على بقاء المحمل دون موسيقى الأبواق، غير أن محمد عزمي أمير الحج المصري آنذاك اعتبر هذا الحدث اعتداء وإهانة للحجيج المصريين، وامتنعت الحكومة عن إرسال المحمل حتى عام ١٩٣٧م مع عدم الاعتراف بآل سعود ملوكاً على الأراضي الحجازية.

الحجاز لا تمنع العلاقات الحميمة التي تربط بين المصريين وأشقائهم في الأراضي المقدسة؛ لأنها رابطة أصل وعرق ونسب ودين.

وفي عام ١٩٣٠م نادى بعقد مؤتمر إسلامي في القدس لبحث قضية تزايد هجرة اليهود إلى الأراضي الفلسطينية، وفي نفس العام خاض معركة الدستور في صفوف الوفدين، وندد بتضييق الحكومة على حرية التعبير والصحافة. وفي عام ١٩٣١م حضر المؤتمر الإسلامي بالقدس نيابة عن مصطفى النحاس باشا (١٢٩٣-١٣٨٥هـ / ١٨٧٦-١٩٦٥م) وناقش هناك قضية الرابطة العربية الإسلامية التي كان يدعو لها العديد من شيوخ الهند وتونس، وذلك عوضاً عن الخلافة الإسلامية التي باتت عسيرة التحقق.

وقد استنكر الوفديون والأزهريون بإيعاز من الملك فؤاد إقامة مثل هذا المؤتمر، بحجة أن أمر الخلافة والوحدة الإسلامية لا يخدم مصالح المسلمين في ذلك الوقت، غير أن عزام لم يعبأ بهذا الاستنكار، ومضى يوطد علاقاته بالوفود العراقية والسورية والفلسطينية التي شاركت في المؤتمر، مؤكداً أن الغاية ليست إقامة خلافة بالمعنى التقليدي؛ بل إيجاد رابطة تجمع بين العروبة والإسلام في سياق واحد؛ لمجابهة المطامع الاستعمارية في الشرق العربي الإسلامي، وتعمل في الوقت نفسه من أجل إنهاء الأمة.

وقد نجح عزام أيضًا في ضم التيار الإسلامي إلى دعوته وعلى رأسه جمعية الشبان المسلمين التي تأسست عام ١٩٢٧م تحت قيادة عبد الحميد سعيد (نحو ١٣١٣-١٣٥٩هـ / ١٨٩٥-١٩٤٠م) ولا سيما بعد تأييد محب الدين الخطيب (١٣٠٣-١٣٨٩هـ / ١٨٨٦-١٩٦٩م)، وعزت دروزه لأرائه الوجدانية، وجماعة الإخوان المسلمين التي أسسها حسن البنا (١٣٢٤-١٣٦٩هـ / ١٩٠٦-١٩٤٩م)، بتوجيه من محمد رشيد رضا ومحمد فريد وجدي (١٢٩٦-١٣٧٤هـ / ١٨٧٨-١٩٥٤م) وأحمد تيمور والجمعية القاهرية للثقافة الإسلامية التي تأسست ١٩٣٢م كفرع من جمعية الإخوان المسلمين بالقاهرة، وقد توطدت علاقة عزام بمعظم قيادات الجماعة في القاهرة في منتصف العقد الرابع من القرن العشرين، وأضحت دعوته محط إعجابهم، وكذا جمعية مصر الفتاة التي تأسست عام ١٩٣٣ تحت قيادة أحمد حسين (٨ ربيع الأول ١٣٢٩هـ - ١٧ ذي الحجة ١٤٠٣هـ / ٨ مارس ١٩١١ - ٢٦ سبتمبر ١٩٨٢م) وحركة القمصان الخضر العسكرية الجهادية..

ومن أقواله في هذا السياق: «كنت أقول دائمًا لأعضاء مصر الفتاة والإخوان المسلمين إن هذه القومية المصرية ليست كافية، ناشدت مصريتهم من خلال القول إن العرب سيجعلون مصر أعظم، لم تكن مصر الفتاة والإخوان متفقين، لكن كلاً منهم اعتبرني (خوجة)».

وقد نجح عزام إلى حد كبير في اجتذاب مئات العمال والفلاحين من أبناء الطبقات الدنيا المصرية إلى الإيمان بفكرة الرابطة العربية الإسلامية، الأمر الذي كان له عظيم الأثر في تبني الحكومات المصرية المتتالية فكرة القومية العربية بداية من العقد الخامس من القرن العشرين^(١).

ونزع العديد من الباحثين المعاصرين إلى تفسير الضرب الذي انتهجه عزام في دعوته للقومية العربية؛ إذ ذهب إيلي قدوري (١٣٤٤-١٤١٢هـ/ ١٩٢٦-١٩٩٢م) إلى أن عزام كان من أوائل المتحمسين لفكرة القومية العربية، تلك التي لم تُطرح على نطاق واسع في الأوساط السياسية المصرية خلال العقد الثالث من القرن العشرين، غير أن رالف م. خوري يرى أن دعوة عبد الرحمن عزام للقومية العربية في هذه الفترة كانت وليدة وعي البرجوازية المصرية بضرورة انتمائها للفكر القومي العربي عوضاً عن الوحدة الإسلامية والرابطة العثمانية تلك التي بات من العسير تحقيقها بعد إعلان مصطفى كمال أتاتورك (١٢٩٨-١٣٥٧هـ/ ١٨٨١-١٩٣٨م) علمانية تركيا، في حين يرى نداد سفران (١٣٤٣-١٤٢٤هـ/ ١٩٢٥-٢٠٠٣م) أن دعوة عزام للقومية العربية لم تكن سوى محاولة جادة لتجديد فكرة الوحدة الإسلامية في نسق حديث يتواءم مع طبيعة الثقافة العالمية من جهة والنزعة الليبرالية المتغلغلة في الفكر السياسي المصري من جهة أخرى^(٢).

(١) رالف م خوري: عزام باشا، مرجع سابق، ص ٣٥٣-٣٥٤، ٣٨٥-٤٠٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٨-١٢.

وفي عام ١٩٣٤م راح يدعو على صفحات مجلة الهلال للرابطة العربية^(١)،

(١) في الفترة الممتدة من أخريات القرن الثامن عشر إلى العقد الثالث من القرن العشرين ظهرت العديد من الحركات الوجدوية في الثقافة العربية الإسلامية كان أولها على يد محمد بن عبد الوهاب، وكانت ترمي إلى إقامة خلافة إسلامية تحت إمرة عربية مع رفضها لكل النزعات الوطنية والجنسية والعنصرية والقومية، وقد تبنت هذه الدعوة معظم التيارات السلفية المعاصرة، أما الدعوة الثانية فهي الجامعة الإسلامية وهي التي روج لها جمال الدين الأفغاني، وكانت ترمي إلى اتحاد كنفدرالي بين الأقطار الإسلامية مع احتفاظ هذه الأقطار بالروح الوطنية والنزعات القومية التي تنتمي إليها، والإعلاء من شأن مصلحة الأمة الإسلامية ضد التكتلات الغربية والمطامع الاستعمارية الإمبريالية، وعلى مقربة من هذا الاتجاه نجد عبد الرحمن الكواكبي يدعو إلى اتحاد عربي إسلامي في ثوب مدني ومرجعية إسلامية، وانطلق محمد رشيد رضا وعبد العزيز جاويز ثم حسن البنا ينادون بالوحدة العربية الشاملة بمرجعية إسلامية سلفية مع الاعتراف بحقوق المواطنة للمسيحيين، وقد استفاد عبد الرحمن عزام من هذه الرؤى في دعوته ومشروعه لقيام وحدة للأقطار العربية مع الإبقاء على الروح الوطنية للشعوب مرحلياً حتى تذوب تلك العصبية والنزعات الوطنية والقومية - عن طريق التربية والإصلاح الاجتماعي والسياسي - في الروح الإسلامي الجمعي؛ ليتحقق ما أطلق عليه العالمية الإسلامية عوضاً عن العولمة الغربية في كتابه الرسالة الخالدة الذي نحن بصددده، ويؤكد توفيق الشاوي أن مشروع عزام السياسي والفكري هو الربط بين جامعة الدول العربية والرابطة الإسلامية، كما يوضح أسعد داغر أن جهود عزام في إقناع الحكومة المصرية بتبني فكرة القومية العربية خلال الحرب العالمية الثانية من الواقع التي لا يمكن إنكارها، وأن اختياره أميناً للجامعة العربية كان أمراً طبيعياً اعترافاً من الدول المؤسسة بريادته، كما أن رفضه لمشروع الهلال الخصب وسوريا الكبرى يرد إلى مجّه التحالفات الجزئية والتحزب، فكان يأمل أن تتوحد الأمة العربية ثم الأمة الإسلامية. ولا غرو في أن مساندته للحركات التحررية في إندونيسيا ودفاعه عن مسلمي يوغوسلافيا يؤكد أن عزام المجاهد الإسلامي لم يفرق بين العروبة والإسلام في مشروعه السياسي.

وقد سعى عبد الرازق السنهوري وعزام سعيًا حثيثاً لتقنين المبادئ الشرعية في سياق دستوري حديث لتصبح المصدر الرئيس للقوانين والنظم السياسية في الأمة العربية الإسلامية المنشودة.

أما الدعوة للقومية العربية المؤسسة على مقومات علمانية غير دينية فقد انطلقت في منتصف القرن التاسع عشر من بعض المفكرين الشوام، وعلى رأسهم أحمد فارس الشدياق وبترس البستاني وناصيف وإبراهيم اليازجي ونجيب العازوري كرد فعل مباشر للحركة الطورانية واستعلاء الأتراك على العرب، وتنكيلهم بالمسيحيين في بلاد الشام ١٨٦٠م، وقد تبني هذه الفكرة ساطع الحصري الذي أكد على أن وحدة اللغة والتاريخ هما الدعامتان اللتان يجب أن تقوم عليهما الوحدة العربية مع التسليم بقوة تأثير الدين والهدف والثقافة والعادات والتقاليد، مؤكداً على أن =

وفي عام ١٩٣٦م أعيد انتخابه لدورة ثانية في مجلس النواب المصري، ثم عُيِّن وزيراً مفوضاً -بدرجة سفير- وممثلاً فوق العادة للمملكة المصرية، وشملت هذه المفوضية عدة دول عربية وإسلامية، هي العراق وإيران وأفغانستان وبلاد نجد والحجاز (السعودية)، وظل في هذا المنصب حتى عام ١٩٣٩، وقد سعى خلال هذه الفترة سعيًا حثيثًا للتقريب بين المذاهب الإسلامية (السنة والشيعة على وجه الخصوص) وذلك ليتسنى له تجميعهم لدعوته للوحدة التي تتخطى حدود الطائفية والعصبية العرقية.

وفي أغسطس عام ١٩٣٦م اعتذر عن عدم مرافقة أحمد أمين (١٣٠٤-١٣٧٤هـ / ١٨٨٦-١٩٥٤م) إلى بيروت تلبية لدعوة جمعية دار الأيتام لتكريمهما لكثرة أعماله ببغداد، وأتاب عنه ابن أخيه عبد الوهاب محمد حسن عزام (١٣١٢-١٣٧٩هـ / ١٨٩٤-١٩٥٩م). وفي الحفل الذي أقيم على شرفهما تحدث كاظم الصلح -وهو أحد أعيان الشام- عن علة حرص الجمعية على تكريم المناضل عبد الرحمن عزام، معدداً مناقبه، ومادحاً لنضاله الوطني من أجل الحرية والعروبة^(١)، وفي عام ١٩٣٨م ذهب مع أحمد أمين إلى بروكسل لحضور مؤتمر المستشرقين، وذلك عقب ظهور كتابه «بطل الأبطال».

= وحدة الموقف السياسي والاقتصادي هما الأليتان الأساسيتان اللتان تمكن العرب من اعتلاء المسرح السياسي والمشاركة الإيجابية في توازن القوة العالمي.

(١) أحمد حسن الزيات، تكريم أحمد أمين وعبد الرحمن عزام في دار الأيتام ببيروت، مقال بمجلة الرسالة، ع ١٦٣، ١٧/٨/١٩٣٦م، (البريد الأدبي).

وفي بداية عام ١٩٣٩م نُقل للعمل في تركيا وبلغاريا. وخلال هذه الفترة اتصل بالمجاهدين الفلسطينيين داعماً للمقاومة وحرب العصابات، واعتبر ذلك حقاً شرعياً للفلسطينيين للذود عن أراضيهم، وقد أعلن ذلك في مؤتمر المائدة المستديرة بلندن الذي حضره قبيل تعيينه وزيراً للأوقاف في ١٨ أغسطس من نفس العام، وقد مكنه العمل في وزارة الأوقاف من التعرف على الكثيرين من تلاميذ الأستاذ الإمام محمد عبده وعلى رأسهم محمد الأحمد الظواهري (١٢٩٥-١٣٦٤هـ / ١٨٧٨-١٩٤٤م) ومحمد مصطفى المراغي (١٢٩٩-١٣٦٥هـ / ١٨٨١-١٩٤٥م) والشيخ مصطفى عبد الرازق (١٣٠٤-١٣٦٦هـ / ١٨٨٥-١٩٤٧م) وعبد المنعم خلاف، وفي ١٣ سبتمبر من العام نفسه أسندت إليه قيادة الجيش المرابط على الحدود الشرقية المصرية (وهو جيش شعبي من المناضلين المدربين).

وكان من أشد المعارضين لدخول مصر الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا، وأقنع علي ماهر (١٣٠٠-١٣٨٠هـ / ١٨٨٢-١٩٦٠م) بأن وقوف مصر على الحياد أفضل من مشاركتها فيها؛ حفاظاً على الرعايا المصريين في ألمانيا، ونكاية في الإنجليز المحتلين، ورفضاً لمعاهدة ١٩٣٦م^(١).

(١) عصام الغريب، عبد الرحمن عزام، مرجع سابق، ص ١٣٧.

وفي ٢٠ ديسمبر من نفس العام تولى وزارة الشؤون الاجتماعية^(١)، ثم عاد إلى العمل في وزارة الخارجية وخلال هذه الفترة ساح في معظم بلاد العالم كدبلوماسي مصري مفوض، وتمكن في هذه الآونة من إجادة العديد من اللغات الأوروبية مثل الإسبانية والفرنسية، ذلك فضلاً عن التركية والإنجليزية والكثير من اللهجات الشعبية في الأقطار الآسيوية والأفريقية، وقبل الحرب العالمية الثانية رفض اشتراك مصر في آتونها وأوعز إلى علي ماهر باشا أن يساوم الإنجليز إذا ما أرادوا مساعدة مصر لهم في الحرب، فعليهم توقيع اتفاقية الجلاء كشرط لذلك، فرفضت إنجلترا، وبالتالي لم يشترك الجيش المصري في الحرب العالمية الثانية، ونشطت الحركات السرية خلال الأربعينيات بتوجيه وتنسيق معه للكفاح المسلح ضد الاحتلال الإنجليزي.

وفي عام ١٩٤٠م رفض عزام المشاركة في تدعيم الكتائب الجهادية التي قادها محمد إدريس السنوسي (١٣٠٨-١٤٠٤هـ / ١٨٩٠-١٩٨٣م) من مصر بمساعدة الإنجليز لمحاربة الإيطاليين؛ وذلك لأنه كان يعتقد أن إدريس السنوسي كان يجيش هذه الكتائب لمصلحة الإنجليز؛ فخاف أن تقع ليبيا في يد الإنجليز فتخرج من براثن النمر الإيطالي الجريح وتقع بين فكي الأسد الإنجليزي النهم، ولم ينس له كذلك تخليه عن معونة عمر المختار يوم جاءه يطلب المدد أثناء

(١) فؤاد كرم، النظارات والوزارات المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج ١، ط ٢، ١٩٩٤م، ص ٦٤٦ و ص ٦٦٦.

إقامته في مصر، وفي عام ١٩٤٢م طلبت الحكومة الإنجليزية من الملك فاروق (١٣٣٩-١٣٨٥هـ / ١٩٢٠-١٩٦٥م) إقالة عبد الرحمن عزام من قيادة الجيش المرابط بحجة أنه يقود أعمال فدائية ضد الإنجليز بالتنسيق مع الإخوان المسلمين وصديقه توفيق محمد الشاوي (١٣٣٧-١٤٣٠هـ / ١٩١٨-٢٠٠٩م)^(١).

وفي عام ١٩٤٣م عاود الكتابة على صفحات الهلال عن الوحدة العربية وضرورة تكوين جيش وطني قوي واتفاقية دفاع مشترك لحماية البلدان العربية المستقلة وتحرير الأقطار التي تقبع تحت قبضة المستعمر، وفي عام ١٩٤٤م عُيِّن وزيراً مفوضاً للشؤون العربية بوزارة الخارجية وأميراً على ركب الحج المصري لذلك العام^(٢)، وفي ٢٢ مارس ١٩٤٥م شارك في وضع ميثاق جامعة الدول العربية، ثم اختير أميناً عاماً لها في ٩ مايو من نفس العام، وذلك بمقتضى مرسوم ملكي رُقي فيه إلى درجة سفير، وانتخاب الأعضاء المؤسسين له بالإجماع، وفي نهاية هذا العام شرع في طبع كتابه «الرسالة الخالدة»؛ استجابة لإلحاح أصدقائه.

وفي عام ١٩٤٦م مثل الوفد المصري لمؤتمر الرابطة الإسلامية الذي عقد في القاهرة مع الشيخ مصطفى عبد الرازق وعضوية الإمام حسن البنا ومكرم عبيد (١٣٠٧-١٣٨٠هـ / ١٨٨٩-١٩٦١م).

(١) توفيق الشاوي، عبد الرحمن عزام والجامعة العربية، مقال بموقع هواره،

www.hawwara.com/hauwaraFamily3.html ٢٧ / ٤ / ٢٠١٢م

(٢) عبد المنعم خلاف، عبد الرحمن عزام بك لمن لا يعرفه عن قرب، مقال بمجلة الرسالة، ع ٥٩٥، ٢٧ / ١١ / ١٩٤٤م.

وفي نفس العام تقدم صديقه نوري السعيد (١٣٠٦-١٣٧٨هـ / ١٨٨٨-١٩٥٨م) بمشروع لتطوير العمل الإداري بالجامعة العربية، وبعض الاقتراحات لتطوير لجان القضاء والاقتصاد والري، غير أن عزام أرجأها بحجة أن أوضاع البلاد العربية حينئذ لا يمكنها تطبيق مثل هذه التصورات، وظل الخلاف قائماً بينهما حتى عام ١٩٤٩م^(١)، وفي عام ١٩٤٧م ساند حركة التحرر الإندونيسية وثورتها في وجه الهولنديين، وشارك في نفس العام في مؤتمر فلسطين الذي عقد بلندن نيابة عن عرب فلسطين، وتناول في كلمته العلاقات التي تربط بين اليهود والإنجليز، وتآمر الحكومة البريطانية على الفلسطينيين، وتسهيلها هجرة مائة ألف يهودي للاستيطان هناك، وأكد كذلك أن الفلسطينيين لا يقبلون مبدأ التقسيم مع اليهود، ولا الدخول معهم في وحدة شاملة، وفي عام ١٩٤٨م شارك في إعداد كتاب الفدائيين لحرب فلسطين بقيادة صديقه البطل أحمد عبد العزيز (١٣٢٥-١٣٦٨هـ / ١٩٠٧-١٩٤٨م)، وقد أصيب عزام بنوبة قلبية حادة عقب هزيمة الجيوش العربية، ووقوع الأراضي الفلسطينية في أيدي العصابات الصهيونية، وتلقيه نبأ استشهاد صديقه القائد المغوار، وفي نفس العام أوعز للملك فاروق بتنسيق مع عبد الله للموم لضم ليبيا للمملكة المصرية، ثم الانطلاقة منها لتكوين خلافة عربية إسلامية، وهو الحلم الذي كان يراود فاروق من حين إلى آخر.

(١) جريدة الدستور العراقية، نوري السعيد يضع اللبنة الأولى للجامعة العربية، مقال بمجلة الدستور العراقية، التفاصيل
www.daraddustour.com /tabid/ 94/ smid/ 602/ ArticleID/ 56226/ reftab/ 122/ Default.aspx

وفي عام ١٩٤٩م حاول ساسة العراق وعلى رأسهم رياض الصلح (١٣١٢-١٣٧٠هـ / ١٨٩٤-١٩٥١م) إقصاء عزام من منصبه، وطالبوا بإلغاء منصب الأمين العام لجامعة الدول العربية والاستعاضة عنه بمجلس سكرتارية مكون من ثلاثة أعضاء، غير أنهم لم يفلحوا في ذلك^(١)، وفي عام ١٩٥٠ سافر عزام إلى الأمم المتحدة على رأس وفد يمثل أمانة الجامعة العربية، وطالب في كلمته تفعيل ميثاق الأمم المتحدة الذي ينشد الحرية والحق والعدالة للأمم، وحق الشعوب العربية في مطلب الاستقلال^(٢).

وفي عام ١٩٥١م سافر إلى باريس يخطب في المثقفين دفاعاً عن حق المغرب العربي في الاستقلال، وفصح مخازي الجيش الفرنسي وقمعه للثوار في الجزائر.

وفي العاشر من سبتمبر عام ١٩٥٢م استقال من أمانة جامعة الدول العربية بضغط من مجلس قيادة الثورة- بإيعاز من نوري السعيد- بحجة أنه كان من المقربين للملك فاروق وعلاقاته المتشعبة في شتى أنحاء العالم العربي والإسلامي، وصداقاته بالكثير من رجال السياسة الأوروبيين والأمريكان، ومستوليته عن هزيمة الجيوش العربية في ١٩٤٨م، وتآمره على مشروع الهلال

(١) خبر: حكومة العراق تصر على إبعاد عزام باشا، جريدة النداء، ٢/٨/١٩٤٩م
<https://www.facebook.com/photo.php?fbid&352793871397671=set=a230382706972122.71048.18.&5736041436789type3=>

(٢) عصام الغريب، عبد الرحمن عزام، ص ١٨٨.

الخصيب الذي طرحه العراق ومشروع سوريا الكبير الذي طرحه الملك عبد الله ابن الحسين (١٢٩٩-١٣٧٠هـ / ١٨٨٢-١٩٥١م) وتوجيهه الانتقادات الحادة للسياسات الخارجية والداخلية لحكومات الدول المؤسسة، واتهامه لها بالجمود والفساد والفوضى والجهل.

بيد أن الوفود العربية عبرت عن استيائها من هذه الذرائع المكذوبة والحجج الواهية التي لا تخلو من الغرض، لكن جمال عبد الناصر (١٣٣٦-١٣٩٠هـ / ١٩١٨-١٩٧٠م) أصر على قبول استقالته رغم صداقته الحميمة به، وقد صرح عزام آنذاك أن المجاهد الذي يسكن في روحه لا ترهبه الأحداث والمواقف، ولا ترغبه المناصب، وأن الرسالة التي أخذها على عاتقه سوف يمضي مخلصاً لتحقيقها «إنني سأؤدي واجبي الذي عشت له طوال حياتي، وسأدافع عما أعتقد أنه الحق، لا يعني في ذلك أن أكون في منصب رسمي أو غير رسمي، فإن معظم عملي كان وأنا بعيد عن المناصب الرسمية... لقد عشت لأحقق الأفكار التي أمنت بها... وسأستمر في أداء الواجب العام على خير وجه ممكن، شأني في ذلك شأن كل مواطن»^(١).

وعلى الرغم من ذلك ظلت صلته قوية بقيادات الجيش المصري وفصائله ولا سيما محمد نجيب (١٣١٩-١٤٠٥هـ / ١٩٠١-١٩٨٤م) وذلك من خلال

(١) خبر: مسعى لاستبقاء عزام في الجامعة العربية ومصر مصممة على تنحيته، جريدة الأخبار ١٩٥٢م.
<https://www.facebook.com/photo.php?fbid&351451724865219=set=a230382706972122.71048.18.&5736041436789type&3=permPage1=>

المحاضرات التي كان يلقيها على الضباط حول إستراتيجية بريطانيا في الشرق الأوسط، وقد فترت هذه العلاقة شيئاً فشيئاً عقب الخلاف الذي نشأ بين أعضاء مجلس قيادة الثورة وجماعة الإخوان المسلمين، أولئك الذين كانت تربط بينهم وبين عزام علاقة أسرية وانتماء وعمل، ويشير أحفاد عزام أن نوري السعيد كان وراء فساد العلاقة الحميمة التي كانت تربط بين جمال عبد الناصر وعزام؛ إذ كان الأول يعتبره بمثابة أرسطو (٣٨٤ ق.م. - ٣٢٢ ق.م.) من الإسكندر (٣٥٦ ق.م. - ٣٢٣ ق.م.) أي الفيلسوف الموجه والمعلم، وأن لديهم من الوثائق ما يؤكد تتلمذ معظم قيادات ثورة ١٩٥٢م على يد جدهم عبد الرحمن عزام.

ثم سافر عبد الرحمن عزام إلى السعودية عام ١٩٥٤م ليشترك في فض النزاع الذي قام بين المملكة والإمارات حول واحات البوريمي، وقد عينته المملكة مستشاراً لها في هذه القضية، وخلال هذه الفترة دعم الجاليات الإسلامية في أوروبا وأمريكا، وعمل على تحديث الخطاب الدعوي ونشر الإسلام بين أرجائها، وكان على صلة طيبة بالعديد من الكتاب السياسيين الذين اعتنقوا الإسلام^(١).

وعلى الرغم من الجفوة التي سادت علاقة عزام بعبد الناصر فإن الأخير كان يوسط له الأصدقاء ليلتقي به، ويستفيد من خبرته وعلاقاته بالحكومات

(١) عبد الرحمن الجيتاوي، تحولات مالكولم إكس ورحلته العربية، مقال بموقع الجزيرة.نت الإلكتروني،

www.aljazeera.net /books /pages /wafd7815-3c13-4169-843f8-fbfa54090ba

الإسلامية ولا سيما إندونيسيا؛ إذ طلب منه مرافقته في مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥م، ولكنه رفض بحجة أنه لا علاقة له بالخارجية المصرية، وأن عمله بالمملكة العربية السعودية يحول بينه وبين ذلك^(١)، فضلاً عن انشغاله بتنظيم الحركات الجهادية في تونس والجزائر والمغرب وفلسطين؛ لتنال استقلالها، فطالما أكد أن المفاوضات الدبلوماسية لا تحرر إلا القادرين على حمل السلاح، فالحريات لا توهب بل تنتزع من مغتصبها بالقوة^(٢).

وفي عام ١٩٦٢م شارك في مؤتمر للرابطة الإسلامية (رابطة العالم الإسلامي) الذي عقد في مكة المكرمة، وظل على هذا النحو يجاهد في ميدان الدعوة حتى عام ١٩٧٤م، ثم عاد إلى مصر فوافته المنية في (٤ جمادى الآخرة ١٣٩٦هـ / ٢ يونيو ١٩٧٦م) وشيعت جنازته من جامعة الدول العربية، ودفن في حلوان بمسجد العائلة^(٣) بجوار ابن أخيه الأديب والمترجم والمحقق عبد الوهاب محمد حسن عزام.

قبر الجثمان وظلت سيرته خالدة سطرها التاريخ بأقلام أصدقائه ومحبيه، وكيف لا وهو «السياسي الأمين، والكاتب المفكر الذي تعلق ذهنه بالمثل العليا

(١) رضوى عاشور، عبد الرحمن عزام

<https://www.facebook.com/notes/abd-al-rahman-pasha-azzam>

(٢) توفيق الشاوي، عبد الرحمن عزام والجامعة العربية

<https://www.facebook.com/notes/abd-al-rahman-pasha-azzam>

(٣) أنجب عزام ثلاثة أولاد: زينب ابنة بنت أحد مشايخ القبائل في غريان، عصام وعمر من زوجته الثانية ابنة خالد القرقي الليبي.

فاحتذاها، وشغل نفسه بالدعوة إليها، وأحب الخير فتمثله وسعى جهده لإيصاله إلى الناس في صدق ونخوة وإخلاص»^(١).

بين دفتي هذا الكتاب

أولاً: بناء الكتاب

يقع هذا الكتاب في ٢٥٣ صفحة وذلك في طبعته الثانية، ويشتمل على مقدمتين مقتضبتيْن وسبعة فصول، وهو خلاصة ثلاثين محاضرة ألقاها المؤلف في الإذاعة المصرية.

فأول ما يقابلنا في بناء الكتاب هو عنوانه (الرسالة الخالدة) فيمكننا قراءة العنوان باعتباره عتبة إشارية معرفية، أي إن المؤلف يريد التعريف بالرسالة الإسلامية الخالدة عن طريق البسط والشرح والوصف، وعليه يمكننا إدراج هذا الكتاب ضمن كتب الدعوة والهداية، كما يمكننا قراءة العنوان على اعتباره خطاباً موجهاً إلى العالم المادي الغربي الذي أعياه التخبط بين المذاهب الفلسفية والقوانين الوضعية، بحثاً عن الاستقرار والسعادة والعدالة والسلام دون أن يحقق غايته، ومن ثم يمكننا النظر للكتاب على أنه خطاب موجه للأغيار، يتخذ من المنحى النقدي سبيلاً لإعادة بناء عقلية الآخر.

(١) محمد بهجة الأثري، رسالة النقد حول كتاب الرسالة الخالدة، مقال في مجلة الرسالة، ع ٧١٢، ٢٤ / ٢ / ١٩٤٧ م.

ولعل السطور الأولى من مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب توحى بأن كلتا القراءتين هما أقرب لأغراض المؤلف، فقد صرح عبد الرحمن عزام بأن ما دفعه لكتابة هذا الكتاب هو إدراكه للأزمة القيمية التي يعيشها الإنسان المعاصر في أوروبا وأمريكا بعد الحرب العالمية الثانية، فأراد أن يحدد أسبابها ويقدم علاجاً لها متمثلاً في هذه الرسالة، وأعرب كذلك عن رغبته في أن يوضح لشبيبة المسلمين عظمة ثوابت الرسالة التي يؤمنون بها، وحمائيتهم من مطاعن غلاة المستشرقين، ووساوسهم التي تعتمد إلى تشكيكهم في أصول عقيدتهم.

وإذا ما انتقلنا إلى مقدمتي هذا الكتاب فسوف نجد أولهما تعنى بتوضيح مآرب المؤلف وغايته من كتابة رسالته، أما الثانية فخصصها بالحديث عن الأصدقاء الثقافية وآراء النقاد التي تناولت هذا الكتاب في طبعته الأولى، مشيراً إلى ترجماته إلى اللغة الإندونيسية والتركية والفارسية والإنجليزية، واستحسان قرائه شيوخاً وشباباً لما ورد في متنه عن الشريعة المحمدية، ورغبة الدول الإسلامية التي استقلت حديثاً في الأخذ بالمبادئ الشرعية في دساتيرها المزمع وضعها، الأمر الذي دفعه إلى كتابة فصل إضافي عن السياسة في الإسلام لتنتفع به هاتيك الحكومات.

وتناول المؤلف في الفصل الأول (في أصول الدعوة) السمات الجوهرية للرسالة المحمدية المتمثلة في: سلامة المصدر وصحته، ووسطية التعاليم، وموضوعية الشرائع وواقعيتها ومرونتها التي تمكنها من الخلود وتخطي عنصري

المكان والزمان، ثم انتقل إلى الركنين اللذين تقوم عليهما الرسالة، وهما الإيمان بوحداية الله والإحسان للناس.

فبين أن الإيمان بالله الواحد هو الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها والبرهان الهادي للمتشككين والمرتابين، وهو جوهر الشريعة الذي تُبنى عليه كل أصول العقيدة ومبادئ الإسلام ومنبع الفضائل الخلقية (العدل، الإنصاف، التراحم، الحب والتأخي، والمساواة بين البشر).

وانتقل إلى الركن الثاني ألا وهو الإحسان، فبين أنه يبدأ بشكر الإنسان لربه على الفضل الذي أغمره به، بداية من نعمة الخلق ونهاية بالسعادة في الآخرة، ثم إحسان المرء لأخيه الذي يخلق في الجماعة روح التراحم والتآلف والتعاون لعمل الخير والتحضر والتمدن.

وأسهب المؤلف في شرحه فضيلة الرحمة، موضحاً أنها صفة الله وذاته والدستور الحاكم في العبادة، والعقد الذي يصل بين أفراد الأمة، والميثاق الذي إذا ما تمسك به البشر ظفروا بالسعادة والنعيم في الدنيا والآخرة، وهي كذلك السبيل للتواؤم البيئي الاجتماعي والطبيعي، بداية من دعوة القرآن وصحيح السنة، إلى البر بالفقراء ورعاية اليتامى والمعاقين والمعوذين، واقتلاع الحقد والكراهية والحسد من القلوب، ومروراً بالدعوة إلى الأخوة العالمية، ونهاية بالرفق بالحيوان.

واختتم حديثه في هذا السياق بدعوة العالم إلى الأخذ بفضيلة الرحمة الإسلامية، وذلك بقوله: «والآن، وهذا العالم المضطرب، يأكل قويه ضعيفه، والناس في أنكر صور القسوة يتقاذفون بالهول ليجنوا مغام وأسلاباً لا شك أنهم في أشد الحاجة إلى التذكير بدعوة الإخاء والرحمة، وإلى ظهور هذه الدعوة قوية عزيزة، كما كانت. والله الأمر من قبل ومن بعد».

وإذا ما انتقلنا إلى الفصل الثاني (في الإصلاح الاجتماعي) فسوف نجد المؤلف قد خصه بالحديث عن الإصلاح الاجتماعي، مبيناً أن الرسالة المحمدية قد بدأت من القاعدة ولم تبدأ من القمة في إصلاح المجتمع، أي لم تفرض خطة الإصلاح على الناس فرضاً بالقوة والقهر شأن الممالك المتجبرة، بل أخذت الأفراد- الذين يشكلون لبنات المجتمع- بالإرشاد واللين في التوجيه، فأصلحت الجزء، فشيد البنيان سليماً متيناً، ومن ثم كان غرس الأخلاق وتقويم السلوك هو المدخل الطبيعي للدعوة الإصلاحية الإسلامية، حيث فضيلة الصدق، والعفة، والأمانة، والبر، والحلم، والحياء، والالتزام بالواجب، والشجاعة، والصبر، والوفاء، والتعاون والتكافل، تلك القيم التي تمثلت في شخص النبي؛ فاصطبغ بها الصحابة والتابعون والوراء من المسلمين، وراح المؤلف يدل على تلك المقدمة بواقعات في سلوك العامة والخاصة في المجتمع الإسلامي.

ثم انتقل إلى الآلية الثانية لإصلاح المجتمع ألا وهي تذويب الفروق بين الطبقات عن طريق التكافل الاجتماعي، وبث روح التعاون والتآخي بين

الأفراد، وانتزاع العصبية العرقية التي كانوا يتفاخرون بها على بعض، وذلك عن طريق إفشاء المساواة والعدالة بينهم، وتغليب المصلحة العامة على المنافع الفردية، وراح يستشهد على صحة حديثه بما كان من أمر المجتمعات الإسلامية، يوم كانت تسير على ما أمرها الله به، فكان غنيهم يعول فقيرهم ويحسن إلى المعاقين والمعوزين والأرامل والأيتام، وكان الحاكم يحث الشباب على العمل، ويمنعهم من السؤال، ويوفر لهم سبل العيش الكريم، ويبغض الأغنياء في كنز المال، ويمنعهم من الإسراف في اللذات والشهوات، ويرغبهم في الوقت نفسه في البر والعطاء والإحسان.

ويعيب المؤلف على حال المجتمعات الإسلامية الحديثة التي رغبت عن شريعتها والمبادئ التي تصون المجتمع من البوار والصراع والانقسام، وراحت تقلد بعض المظاهر الغربية في البذخ والتكالب على الشهوات والإسراف في غير بابه؛ لذا نجده يدعو إلى إحياء تلك المبادئ في مجتمعاتنا، وذلك بقوله:

«يجب إذن أن نستلهم من شريعة الإسلام الهدى، وأن نستوحي من روح الدعوة المحمدية نظاماً للبر تقوم عليه الدعوة، لتوازن بين الثروات والحاجات ونقيم التكافل الاجتماعي ونقضي على حرب الطبقات ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة / ٧-٨].»

ويقودنا المؤلف إلى عاملين رئيسيين من دعائم تماسك المجتمع الإسلامي ألا وهما: الحرية والعدالة، فالحرية الإسلامية مسؤولية، وهي وسط عدل بين الفوضوية Anarchism من جهة والجبرية Fatalism والقهر والاستبداد من جهة أخرى، أما العدالة فهي فرض عين مساوٍ لإيمان العبد بوجود الخالق، فالله هو العدل الذي حرم الظلم على نفسه وجعله محرماً على عباده.

وذهب المؤلف في الفصل الثالث (في العلاقات الدولية) إلى بسط الرؤية الإسلامية للعلاقات الدولية، فتناول أول اتفاقية وقعها المصطفى في المدينة مع اليهود والمشركين، الذين تآخمت أحيائهم ودويلاتهم وحصونهم دولته الفتية التي جمعت بين المهاجرين والأنصار، وقامت الاتفاقية على بندين رئيسيين: أولهما: يكفل حرية الاعتقاد وحسن الجوار لجميع المواطنين.

وثانيهما: يلزم جميع الأطراف بالتعاون للذود عن الداخلين في هذا الحلف ضد أي معتد، وترك الشئون الداخلية لكل حلف أو دويلة أو حزب لرؤسائها، إلا في حالة النزاع فيحتكم للنبي.

ودعا المؤلف المجتمع الدولي أن يتمثل هذين الأساسيين في وضع دستور عالمي للتعايش السلمي بين الدول قائلاً: «أتت الشريعة المحمدية قبل ثلاثة عشر قرناً بنظام كامل من عهود التحالف والتكافل والتحكيم، وجعلت الحرب ضد المعتدين زجراً وتأديباً لا محواً وتعذيباً».

ثم تناول مفهوم الجهاد في الإسلام والحرب المشروعة مناقشاً في هذا السياق مزاعم المستشرقين التي صورت الإسلام على أنه دين عدواني، وقد عمد إلى إيضاح ما التبس مستشهداً بالوقائع التاريخية التي تثبت أن الإسلام لم يبتدع مشروعية الحرب، بل إنها موجودة في جميع الشرائع السابقة عليه باعتبارها حق الإنسان في الدفاع عن نفسه، وراح يقابل بين مفهوم الحرب العادلة في الفكر المسيحي في العصر الوسيط عند القديس أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠م)، والقديس توما الإكويني (٦٢٢-٦٧٣هـ / ١٢٢٥-١٢٧٤م) اللذين اشترطا أن تكون الحرب دفاعاً عن حق أو ردعاً لباطل وإفشاء السلم^(١) من جهة، وألاعيب ساسة أوروبا وبابواتها وأباطرتها تلك التي عرفت الحرب العادلة بأنها التي اتخذت مشروعيتها من سلطة الحاكم ومباركة الكنيسة، استناداً على رواية يوحنا (الحربة المقدسة) من جهة ثانية، والإصحاحات الإنجيلية التي نهت عن الحرب وذكرت أن يسوع رب سلام وليس رب حرب من جهة ثالثة، والمبادئ الشرعية الإسلامية التي حددت ضوابط للحرب المشروعة من جهة رابعة، وما حدث في الحربين العالميتين من دمار وخراب واعتداء على المدنيين من جهة خامسة. وقابل كذلك بين هذه الوقائع وسلوك الدول الاستعمارية في الدول التي احتلتها أو وضعتها تحت حمايتها.

(١) أشرف حافظ، معالم الفكر الأوروبي في العصر الوسيط، دار طبية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٦٥،

واختتم حديثه عن العلاقات الدولية بتقديم الإسلام للمسلم على الحرب والمعاهدات والاتفاقيات التي تمنع النزاع والشقاق، وتطرق إلى حقوق المواطنة لغير المسلمين في الدولة الإسلامية، مبيناً أن الجزية ليست عقاباً أو مذلة، بل هي أجر يدفعه غير المسلمين نظير حمايتهم من الاعتداء الخارجي، ودون ذلك فلهم ما للمسلم من حريات وحقوق اجتماعية، بما في ذلك الإنفاق على المعوزين منهم من بيت المال، وتسقط الجزية في حالتين - عمن يبقى على دينه من الذميين - أولاهما عجز المسلمين عن حماية الأغيار وصد المعتدي، وثانيتهما اشتراك الذميين في أمور الدفاع والجندية.

أما الذميون الذين دخلوا في حلف مع بلاد المسلمين فلهم مطلق الحرية في جميع شؤونهم فلا سلطان للمسلمين عليهم، إلا ما يتعارض مع المبادئ التي تحالفوا عليها، وأوضح كذلك أنه لا يجوز إرهاب الأمنين أو الاعتداء على الأفراد والجماعات الذين دخلوا في معاهدات مع المسلمين في شتى أنحاء العالم، فذمة المسلم واحدة.

وذيل حديثه بمقابلة بين ما جاء في الرسالة المحمدية من دستور للعلاقات الدولية التي تؤهلها للعالمية، والشعارات التي ترفعها الدول الغربية لإيهام الدول التي تستولي عليها بأنها جاءت لتحريرها وتعليمها وإفشاء في شعوبها روح المدنية الغربية، وكأن لسان حاله يقابل بين عالمية الإسلام والعولمة Globalization الأميركية.

علمًا بأن فكرة العولمة الغربية قد طرحت في عدة سياقات على مائدة الفكر العربي الإسلامي الحديث والمعاصر، ولا سيما منذ العقد الثاني من القرن العشرين نذكر منها:

الدعوة إلى لغة عالمية، ووحدة الأديان في إطار الماسونية، والإنسية الجديدة والكوكبة وقد روج لهذه الأفكار إسماعيل مظهر (١٣٠٩هـ-١٣٨٢هـ/ ١٨٩١-١٩٦٢م) في كتاباته الأولى، وسلامة موسى (١٣٠٥-١٣٧٨هـ/ ١٨٨٧-١٩٥٨م)^(١).

وبسط المؤلف في الفصل الرابع (في أسباب الاضطراب العالمي) أي الحروب التي انتهكت فيها كل حقوق الإنسان ومصير الشعوب التي ما زالت تخضع للمطامع الاستعمارية، وحصر هذه الأسباب في:

• المطامع الاستعمارية من قبل الدول الغربية في البلدان الصغيرة التي تحتوي أراضيها على ثروات طبيعية (خصوبة الأرض أو المعادن ومصادر الطاقة).

وذهب إلى أنه سرعان ما تتنافس هذه الأمم الطامعة فيما بينها على تقسيم العالم، الأمر الذي يوقعها هي الأخرى في أتون الحرب، رغبة من المتحالفين الاستعماريين في اقتناص ما ظفروا به الآخر الذي سار على شاكلتهم.

(١) عصمت نصار، فكرة التنوير بين أحمد لطفي السيد وسلامة موسى، دار الهداية، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٩م، ص

ويأسف المؤلف على أن تلك البلاد الاستعمارية لم تدرك أنها بهذه الحروب تقتل إنسانيتها وتسقط قيمها وتدمر حضارتها إلا بعد الحربين العظميين، وأن تفكيرها في وضع دستور للسلام جاء متأخراً، في حين أن الرسالة الإسلامية الخالدة قد رحمت المؤمنين بها من كل ذلك الوبال، وقومت سلوكهم بالإيمان حتى لا ينحط لتلك المطامع والشهوات الدنيئة.

وانتقل المؤلف إلى الحروب الداخلية المتمثلة في صراع الطبقات، وأكد كذلك أن الإسلام قد وضع حلاً لهذه الآفة، وذلك عن طريق التكافل والتعاون بالقدر الذي لا يحقد فيه الفقير على الغني، ولا يفحش الغني بشتى اللذائذ والشهوات دون مراعاة لاحتياجات الفقير.

وينتقل المؤلف إلى سبب آخر من أسباب الفرقة والصراع الدولي في الداخل والخارج، ويتمثل في التعصب إلى عرق أو جنس أو طبقة، الأمر الذي يولد الجور والاستبداد، فالمتعصبون والإطاحيون لا يرون الصلاح إلا في أنفسهم، والأغيار في أعينهم لا يستحقون إلا العصي التي تردع جنوحهم وجموحهم، وتجعلهم دوماً خاضعين لسطوة السادة، وعليه رفض تقسيم البشر إلى جنسين أري وسامي، تلك النظرية التي رفعت الأريين وخصتهم بالعقلية الناقدة الإبداعية وحطت من شأن دونهم، وكذا النظرية القومية أو الشعبوية التي جعلت الأوربيين أهل التمدن والتحضر دون الشرقيين، ذلك فضلاً عن مزاعم الصهيونية واليهود والطورانية، فجميعها تدين بالتعصب لمعتقدات تجعلها تحقر الأغيار، أما الرسالة

المحمدية فقد قضت منذ مهدها على كل أشكال التعصب والعنصرية، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وخير الناس أنفعهم للناس، وأن خير الأمم هي التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وليس منا من دعا لعصبية، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم.

وينتقل عبد الرحمن عزام إلى شكل آخر من أشكال الصراع ألا وهو تنازع الفكر المادي مع الفكر الروحي (الحب، الشهوة) (الأخلاق المثالية، القيم الوضعية) (الدين والشرائع السماوية، الفلسفات المادية والقوانين الوضعية)، ويرى أن هذا الشقاق قد انعكس على طبائع الأمم وأفكار عوامهم وقادتهم، فبعضهم يتعلق بالموروث من القيم التليدة، والآخر ينفر منها منتصرًا للعلوم المادية الحديثة، والخطر في تعصب أولئك وهؤلاء، والخير في التوفيق والتأليف والأصالة والمعاصرة والموروث والمستحدث، شريطة ألا يطغى أحد الضربين على الآخر، ومن هذا المنطلق نجد الشريعة الإسلامية تتوافق دومًا مع ما فيه خير الناس، وما ثبت باليقين بأن فيه مصلحتهم، ويقول في ذلك:

«وحيثما كان هذا العدل فثم شرع الله ودينه. فإذا فرض أن هذا العدل يقتضي أمرًا لا نص فيه ولا أثرًا شرعيًا فعليه أن يجتهد برأيه (أي العالم المسلم)... غلب عمر رضي الله عنه الرأي الذي قضت به المصلحة العامة التي رآها ورأتها الأغلبية من عقلاء المسلمين أهل الشورى.

فالشريعة المحمدية لا تقف مكتوفة اليدين متى بانت المصلحة العامة، بل هذه المصلحة والعدل هما غرض الشريعة الذي لن تتجاوزه.

فإقامة توازن اجتماعي يُرَفَّع به شر الحاجة عن المحتاج، ويستقيم معه العدل والتأمين الاجتماعي هو أكبر مهام الدولة الإسلامية، ومسئولية الإمام وأهل الشورى في ذلك واضحة.

وانتهى إلى أن الإسلام قد نجح في فض ذلك الصراع لتأخيه بين كل الثنائيات التي أعتت الفلاسفة والعلماء ورجال الدين، فلا صراع في الإسلام بين أمور الدنيا ومتطلبات الآخرة، وغايات الروح ومتطلبات البدن، وثوابت الشرع والدين ومتغيرات العلم والفلسفة.

وحذر المؤلف في خاتمة حديثه عن الحرب والصراع، من ثلاث آفات أخلاقية لا يقل أثرها في اشتعال الخصومة بين الأفراد والجماعات عن أثر الأسلحة المدمرة، ألا وهي رذيلة الغدر والكذب والنفاق، تلك الرذائل التي يحاول بعض الأسافل تبريرها أو إضفاء أغطية عليها تستر عورها وقبح وقعها، فيطلقون على الغدر حنكة وذكاء ودهاء، ويصفون الكذب بأنه دبلوماسية ولباقة وداع من دواعي السياسة، وأكد أن الإسلام حث على الوفاء والصدق وحث من شأن النفاق وأهله، ومن أقواله في ذلك:

«والسياسة التي تستند على الغدر والكذب والنفاق تحرمها الشريعة المحمدية وتأبأها الأديان السماوية كلها، لأنها تغذي الاضطراب العالمي وتعين على تقويض العمران».

وفي الفصل الخامس (في البحث عن سند روحي للحضارة) راح المؤلف يبحث عن سند قيمي روحي للحضارة، مقابلاً بين بعض الثنائيات التي تكون علاقة جدلية في ظهور الحضارات وأفولها (قوة الأخلاق أم أخلاق القوة، السلام والتسامح أم الصراع والحرب، التقوى والورع، أم التجبر والسيطرة).

وناقش العديد من النظريات التي تفسر ظهور الحضارات تحزباً للغرب وخطاً من شأن الشرق، وبين تهافتها وأغراضها الاستعمارية، وانتهى إلى أنه ليس هناك قانون يقطع بأن أمة أفضل من أمة، أو أعقل منها، أو أقدر منها على استقبال العلم والمدنية، وعليه فالحضارة وليدة النشاط الإنساني، تظهر وتخبو تبعاً للمتغيرات والعوامل الخارجية التي لا دخل للجنس أو الحتمية البيئية فيها إلا بقدر قليل، فالموازنة بين الروح والمادة، والدين والعلم، من عوامل تمدن الحضارات وازدهارها، أما الترف والانغماس في اللذات والتعلق بالشهوات الذي يولد المطامع والاستبداد، فيعد من أقوى علل أفول الحضارات وانكسارها، ثم انتقل إلى آفة التبعية وتقليد النظم الغربية التي تفشت في الثقافة الإسلامية، دون أدنى دراسة وافية للتعرف على طبيعة ومشخصات الثقافة المصرية العربية الإسلامية، مبيناً أن الرأسمالية والشيوعية مجرد نظريات اقتصادية، تحمل بين طياتها عناصر

إيجابية وأخرى سلبية، وأن من يتأمل الرسالة الخالدة فسوف يجد تشريعاتها أشمل من هاتين النظريتين، الأمر الذي يدفعنا إلى الأخذ بها بعد تطويع المبادئ العامة لتتناسب مع مقتضيات الواقع.

وفي الفصل السادس (في النظام الأساسي للدولة الإسلامية) تحدث عن المبادئ الرئيسة التي يجب أن تتوفر في الدساتير الإسلامية، ونظم الحكم، وسمات أهل الحل والعقد التي يُعَوَّل عليهم في الشورى، وصفات الإمام أو الحاكم التي يجب أن تتوفر فيه لتتناسب مع المهام المنوط بأدائها، بداية من تأمين المجتمع وحماية حقوق أفرادهِ وتحقيق العدل والمساواة بينهم، والعمل على نشر روح التعاون والمحبة والتواؤم فيهم. كما أوضح أن الأمة في التشريع الإسلامي هي التي تنصب الحاكم وتعزله إذا ما خالف شريعة الله، وأن المجتهدين في كل عصر هم الذين يقررون نظام الدولة وشكل الحكومة وسن القوانين، وذلك تبعاً لاحتياجات الواقع الذي يعيشونه، مع الحفاظ بطبيعة الحال على المبادئ الدستورية المستمدة من الثوابت العقدية، ومن أقواله في ذلك:

«نعم إن الأمة مصدر السلطات، وليس للملوك ولا الرؤساء من أي نوع كانوا في الشريعة الإسلامية من الأمر إلا ما تريده الأمة، فهي التي تقيم الدولة، وهي التي تنظمها، وهي التي تختار أولياء الأمر فيها، وهي التي تقدر مصالحها وتدرأ مفسدها، فهي في هذا كله مصدر للسلطات: تلك السلطات التي يحدها ويحيط بها نطاق الشريعة الإسلامية».

وانتهى إلى أن المقصود بتطبيق الشريعة الإسلامية هو الالتزام بما شرع الله في وضع الدساتير والقوانين وانتخاب الرعية للحاكم العادل، والاحتكام إلى أهل الحل والعقد في الشورى، وتعاون الرعية على البر والتقوى ودرء المفسد وجلب المصالح، وذلك كله دون التقيد بشكل واحد من أشكال الحكم أو النظم الإدارية، فهي متروكة للمجتهدين في كل عصر، وعليه فلا حاجة للمسلمين في تقليد النظم الغربية والفلسفات التي تتعارض مع الثوابت الشرعية، ولا يعني ذلك منعه استفادة رجال السياسة والإدارة من العلوم والمناهج التطبيقية في الثقافات الأخرى، بل عليهم انتقاء النافع منها باعتبارها معارف وآليات تساعد في تحقيق المبادئ التي وردت في الرسالة الخالدة.

وخص المؤلف الفصل السابع والأخير من كتابه (في انتشار الدعوة) بالحديث عن الخطاب الدعوي، فبدأ بتبيان تهافت مزاعم المستشرقين التي تدعي أن الإسلام قد انتشر بالسيف وفرض على الأمم بالقوة، مستنداً إلى الوقائع التاريخية التي تثبت أن جميع الحروب التي خاضها المسلمون في صدر الدعوة كانت ردّاً على عدوان، أو اتقاء لخطر داهم، أو مهاجمة من أعلنوا عداوتهم للإسلام وعزموا النية على محاربته وأهله، أو ثأراً لمن عذبوا لاعتناقهم الإسلام وقُتلوا لرفضهم الردة عنه، ثم تطرق إلى موضوع الجزية وأوضح أنها ليست إتاوة أو جباية، بل هي أجر وذمة يدفعه القادرون على القتال من الأغيار في الأمصار المفتوحة، نظير عدم اشتراكهم في الدفاع عن حدود البلاد وتركهم المسلمين

لذلك، ومن ثم رفعت الجزية عن الأطفال والنساء ورجالات الدين والمعاقين والعجزة وكبار السن، وكذا عن الأم التي قبلت الدعوة الإسلامية في أراضيها، ومن أقواله في هذا السياق:

«كلا، لم يكن السيف وسيلة للدعوة المحمدية، وإنما كان حاميتها من القهر والاضطهاد، وكان شعارها ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف / ١٧]».

ويستشهد المؤلف بكتابات المستشرق الإنجليزي توماس أرنولد (١٢٨١-١٣٤٩هـ / ١٨٦٤-١٩٣٠م) التي بين فيها قدر تسامح المسلمين مع الطوائف المسيحية من نساطرة ويعاقبة، تلك الطوائف التي كانت تعاني من الاضطهاد والعسف والجور في ظل الإمبراطورية الرومانية، قد وجدت في بلاد الإسلام حرية دينية كاملة بل ومكانة عالية لعلمائها، إذ استوزر خلفاء المسلمين بعضهم ونصبوا منهم الأكفاء على بيت المال، الأمر الذي يبرر مشاركة المسيحيين للمسلمين في بناء الدولة، بل والقتال معهم ضد الروم والفرس، فكان لهم ما للمسلمين من الغنائم وحق التملك.

واختتم المؤلف حديثه عن آليات الدعوة بما كان من سلوك المسلمين في البلدان الأوروبية والأفريقية الذي كان يتحلى بالورع والتقوى والإحسان والبر والصدق والعدل، الأمر الذي حجب الإسلام إلى النصرارى ورغبهم في الدخول

فيه، ويستشهد المؤلف بإسلام بعض الصليبيين الذين جاءوا إلى الشرق ضمن الحملات الأوروبية التي رفعت لواء البغض والحقد على المسلمين، موضحاً أن ما دفع بعض قادة الصليبيين وقساوستهم إلى الدخول في الإسلام هو ما وجدوه من خصال وفضائل حميدة في سلوك العرب المسلمين بعد مخالطتهم، فلم يقتلوا منهم أسيراً أو مريضاً أو بائساً، بل بر المسلمون الجنود الصليبيين بعد هزيمتهم واستسلامهم، فدخل ثلاثة آلاف فارس من فرسان الصليبيين في الإسلام طواعية، ويقول في ذلك:

«لقد كانت الرحمة أشد قسوة من الخيانة! لقد أعطاهم المسلمون الخبز وسلبوهم الإيمان، واحسرتاه! لقد ارتدوا عن المسيحية من غير أن يجبر واحد منهم على ترك دينه»^(١).

وقد اعتمد المؤلف على ما أورده السير جون ماندفيل - وهو الاسم المستعار للطبيب الفرنسي جان دي بوجونج على الأرجح - في مشاهداته التي خطها في القرن الرابع عشر عن الحروب الصليبية، وكذا تصريحات البطريك

(١) اعتمد المؤلف في روايته عن إسلام ثلاثة آلاف صليبي خلال رحلتهم للحج على ما أورده المستشرق توماس أرنولد نقلاً عن رواية أحد رهبان سنت دينس وهو أحد قساوسة المعبد الخصوصي للملك لويس السابع وذلك خلال الحملة الصليبية الثانية (٥٤٢-٥٤٣ هـ / ١١٤٧-١١٤٩ م) بتحريض من سنت برنارد لكيرفو والبابا إيجين الثالث، وقادها كونراد الثالث ولويس السابع، وقاد جيش المسلمين عماد الدين زنكي ونور الدين محمود، وانتهت بانتصار المسلمين وأسر جوسلين الثاني، غير أن معظم الكتابات التاريخية لم تشر إلى هاتيك الوقائع، ولا الملابس التي أدت إلى إسلام هذا الحشد الكبير من الصليبيين بعد قناعتهم بسماحة المسلمين وعدالتهم ورفقهم بالأسرى من المحاربين.

يوساب الثالث بطريك خراسان بأسفه على الذين دخلوا الإسلام طوعية من المسيحيين، والكنائس التي استحوطت على أيديهم مساجد دون أن يطلب منهم العرب ذلك.

ويبرر المؤلف هذا السلوك الدعوي الراقى بعدم وجود سلطة كهنوتية مسيية في الإسلام، فعلة فساد الحكومات المسيحية لا ترجع إلى أصل العقيدة النصرانية، بل ترد إلى فساد رجالات الكنيسة الذين خضعوا لأهواء الأباطرة والملوك، فأولوا وحرفوا تعاليم المسيح تبعاً لأغراض ساستهم، أما المسلمون فلا حجاب بينهم وبين شريعتهم، ولا يمنعهم عن فهم الشريعة إلا جهلهم باللغة ومقاصد الشرع، ولا سلطة للفقهاء على العامة إلا بصحيح المنقول وصرح المعقول، ومن أقواله في ذلك:

«فالخاصة والعامة الذين يعلمون أن الله قد حرم عليهم الإكراه في الدين، ويعلمون أن الله يقول لنبيه ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس / ٩٩] بل إن الدين الذي حرم على أهله سب الأديان الأخرى لا يدع سبيلاً للاضطهاد والظلم».

ويقابل المؤلف بين ما حدث من تنكيل بمائتي ألف مسلم على يد الأوربيين الإسبان في الأندلس، وما كان من أمر المسلمين في شرق أوروبا عندما فتحوا القسطنطينية، مستشهداً بتباين الواقعات التي رواها المنصفون من المؤرخين المسيحيين.

ويتساءل المؤلف: هل في إمكان المخلصين لمقاصد الرسائل الخالدة من المسيحيين والمسلمين أن يتعاونوا في نشر السلام والحيلولة بين القوى الاستعمارية، والوثوب على الأمم الآمنة، وإشعال نار الحروب المدمرة في هذا العصر؟

ثانيًا: مضمونه وبنيته المعرفية

وإذا ما شرعنا في تحليل القضايا التي تثيرها البنية المعرفية للكتاب، فسوف ندرك أنها تجمع بين الخطاب الدعوي الجامع بين المنقول والمعقول من جهة، وتقديم مشروع حضاري بديل عن الفكر الوضعي المادي الغربي من جهة أخرى، وذلك في العرض والمعالجة، ويبدو ذلك في:

القضية الأولى: مفهوم الرسالة الخالدة

اجتهد المؤلف في إثبات أن الرسالة المحمدية لا تعني الإسلام بمعناه الضيق - أي الرسالة التي هبطت على محمد في صورة القرآن - بل تعني الشريعة الإلهية التي أوحى بها الله لرسله وأنبيائه (صحف إبراهيم، توراة موسى، مزامير داود، وإنجيل عيسى، حتى تمت على يد المصطفى في القرآن وصحيح السنن). وقد أراد المؤلف من ذلك التأكيد على أمرين:

أولهما: أن رسالته لا ترمي إلى الإطاحة بمعتقدات الأغيار، وتفضيل الرسالة المحمدية على دونها، بل مراده هو توضيح أن الشريعة الإلهية واحدة، وأنه

يدعو إلى جوهرها وليس إلى الأعراض التي تباينت فيها الكتب والرسالات عبر الأزمان.

وثانيهما: تبيان أن ما جاء به محمد ما هو إلا تمام الشريعة الإسلامية التي تحوي الدستور الإلهي الذي أنعم به الله على الإنسان، ليتخذ منه المرجع والمآب في كل مكان وزمان، أي رسالة للناس كافة غير منقوصة أو محرفة، أي هي دعوة للتقريب بين الأديان من منظور شرعي، والتأكيد على عالمية الإسلام وصلاحيه تطبيقه على كل البشر.

والجدير بالذكر في هذا السياق أن هذه الدعوة قد اضطلع بها العديد من العلماء والمفكرين السابقين عليه، نذكر منهم الأمير عبد القادر الجزائري (١٢٢٣-١٣٠٠هـ / ١٨٠٨-١٨٨٣م) والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ يحيى حميد الدين (١٢٨٦-١٣٦٨هـ / ١٨٦٩-١٩٤٨م) والشيخ محمد فريد وجدي والشيخ محمود شلتوت (١٣١٠-١٣٨٣هـ / ١٨٩٣-١٩٦٣م) والشيخ عبد المتعال الصعيدي (١٣١٢-١٣٨٦هـ / ١٨٩٤-١٩٦٦م) والشيخ محمد أحمد عرفة الأزهري (ت ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م)، والشيخ محمد عبد المنعم خفاجي (١٣٣٤-١٤٢٧هـ / ١٩١٥-٢٠٠٦م)، والشيخ هاشم الدفتردار المدني، والشيخ محمد واعظ زاده الخراساني.

القضية الثانية: فضيلة التسامح

بين المؤلف أنها أحد الأصول الشرعية التي حثت عليها آيات القرآن وصحيح الأحاديث، موضحاً أن الدعوة الإسلامية أرحب من كل التصورات الفلسفية التي تدعو للحرية واحترام حقوق الأغيار، مستشهداً في ذلك بدعوة القرآن لليهود والنصارى إلى التآلف والاتفاق والاجتماع على الإيمان بالتوحيد من جهة، وتحذيره المسلمين من الاعتداء على أرباب الملل المغايرة أو إكراههم على الدخول في الإسلام من جهة ثانية، وتكليفه المسلمين ببر المخالفين في الدين، وحمايتهم وصون حرمايتهم ما داموا في ذمتهم أو دخلوا في صلح معهم من جهة ثالثة، وإباحته نكاح الكتابيات يهوداً ونصارى مع عدم إكراههن على ترك عقائدهن أو قطع أرحامهن من جهة رابعة.

كما حرص المؤلف في هذا السياق على مناقشة قضية غلظة الأتراك وتعصبهم الملي مع شعوب البلدان الخاضعة لدولتهم، موضحاً أن أول عهد العثمانيين في أوروبا كان بالرفق واللين والرحمة التي لم تعهد لها هذه الشعوب من حكامهم السابقين الذين كانوا يقهرون الفقراء منهم ويسفكون دماء مخالفينهم في الدين، ثم تبدلت أحوال الحكام العثمانيين وأمزجتهم، فاقتلعت من قلوبهم الرحمة، وراق لشيطان ساستهم إكراه العباد وظلمهم، مخالفين بذلك شرع الله، مؤكداً على ضرورة الفصل بين الإسلام كمنهج والمسلمين بوصفهم مطبقين، فجنوح الساسة أو جموح المتعصبين ينبغي ألا ينسب للإسلام؛ لأن الإسلام

ينهى عن هذا وذاك، فتعصب الأدياء واستبداد المتأسلمين وانحطاط المتعالين وجور المنافقين لا يرد إلى الدستور الإسلامي ولا جوهر الرسالة الخالدة.

القضية الثالثة: الحرية في الإسلام

حرص المؤلف خلالها على مناقشة عناية الإسلام بكفل الحرية لمعتنقيه، بداية من حرية الاعتقاد والفكر والبوح، ومرورًا بدعوتها للحد من الرق والتخلص منه تدريجيًا، وكفلها حرية العبادة لغير المسلمين وأداء طقوسهم وحرية المستأمن أيًا كانت ملته في ديار المسلمين، وحرية الذميين المتحالفين في إدارة شئون بلادهم، وانتهاء بحرية البحث العلمي، دون أن يقيدوها بجملة أو جنس أو نوع، ومن أقواله في ذلك:

«تشبعت نفوس المسلمين بمعنى الحرية، فلم يضطهدوا بمقتضى شريعتهم، ولا إرضاء لعقيدتهم، رجلاً نظر في الكون واستنبط لنفسه نظرية من النظريات، أو ادعى رأياً من الآراء، فكانت الحرية العلمية مكفولة للصائب والمجوسي والنصراني واليهودي، يقول ويكتب ما يشاء. كذلك كان المسلمون أحراراً في هذا لا تعترضهم شريعتهم. ولا أعرف أن حرية الرأي والعقيدة والعلم قد اعترضها معترض في الدول الإسلامية، إلا خشية الفتنة، أو حيث كانت سبباً في فتنة أو عرضت سلامة الدولة للخطر».

وأوضح أن الحرية السياسية في الإسلام ليست مرهونة بنظام حكومة وشكل إدارة بعينه، بل إن حكمة الرسالة المحمدية في تركها لهذه الأمور لمقتضيات الواقع المعيش، فالشكل والهيئة من الأعراض والإسلام يهتم بالجواهر، وجوهر الحكم والسياسة في الإسلام هو تطبيق العدل وتحقيق الشورى والمساواة بين الناس، والتزام الحاكم بواجباته، وانصياع الرعية للقائد فيما لا يخالف الشرع، وعليه فأصلح الحكومات هي القادرة على تطبيق الأصول الشرعية بآليات تتناسب مع طبيعة العصر.

القضية الرابعة: الحرب المشروعة

كان للمؤلف فضل المشاركة في طرحها على مائدة التساجل في الفكر العربي والإسلامي الحديث والمعاصر، على نحو أقرب إلى العقلانية والرؤى الفلسفية منها إلى المنحى الخطابي، الذي انتهجه العديد من الكتاب في سياق دفاعهم عن قضية الجهاد ومزاعم المستشرقين بأن الإسلام قد فُرض بالسيف، ومناقشتهم كتابات عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (٨٨-١٥٧هـ / ٧٠٧-٧٧٤م) وعبد الله بن المبارك (١١٨-١٨١هـ / ٧٣٦-٧٩٧م) ومحمد بن الحسن الشيباني (١٣٢-١٨٩هـ / ٧٥٠-٨٠٥م) ومحمد بن إدريس الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ / ٧٦٦-٨٢٠م) وأحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ / ١٢٦٣-١٣٢٨م) وتنظيم الجهاد وسيد قطب (١٣٢٤-١٣٨٦هـ / ١٩٠٦-١٩٦٦م) وأبو الأعلى المودودي (١٣٢١-١٣٩٩هـ / ١٩٠٣-١٩٧٨م) ومحمد عبد السلام

فرج (١٣٨٢-١٤٠٣هـ / ١٩٦٢-١٩٨٢م) الذين أباحوا الجهاد لتأمين الدولة الإسلامية ووقايتها من مكائد المتربصين بها والمعاندين الذين رفضوا الدعوة في بلادهم^(١)، مقتفياً في ذلك نهج الشيخ محمد عبده وعبد العزيز جاويز ومحمد رشيد رضا ومحمد فريد وجدي وعبد المتعال الصعيدي الذين عرفوا الجهاد بأنه قتال مسلم لكافر غير ذي عهد بعد دعوته للإسلام وإبائه، إعلاء لكلمة الله^(٢)، مستندين في ذلك على كتاب الله وسنة نبيه وآراء الإمام مالك بن أنس (٩٣-١٧٩هـ / ٧١٥-٧٩٦م) وأبو حنيفة النعمان (٨٠هـ-١٥٠هـ / ٦٩٩-٧٦٧م) وأحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ / ٧٨٠-٨٥٥م).

أما مصطلح الحرب المشروعة فقد ذاع في الثقافة الإسلامية خلال المطارحات التي دارت بين المستشرقين والفقهاء العثمانيين، حيث فتوى الجهاد العثمانية التي صدرت عام ١٩١٤م، والتي جاء فيها أن الجهاد فرض عين على المسلمين ضد أعداء الدولة العثمانية^(٣).

فذهب عبد الرحمن عزام إلى أن الحرب في الإسلام لم تكن لقهر الشعوب أو لغزو الأمم أو إكراههم على الدخول فيه، والدليل على ذلك أن

(١) رضوان السيد، بين الجهاد والحرب المشروعة أو العادلة، مقال في منتدى الملتقى الفكري للإبداع، ١ يوليو ٢٠٠٦م.
http://www.almultaka.net/ShowMaqal.php?id&178=cat9=

(٢) وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت، الموسوعة الفقهية، دار ذات السلاسل، الكويت، ج ١٦، ١٩٨٩م، من ص ١٢٤، إلى ص ١٦٤.

(٣) رودلف بيترز، الجهاد في الإسلام قديماً وحديثاً، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٦م، ص ٦٧.

المسلمين مسؤولون عن تأمين كنائس ومعابد النصارى واليهود الذين استوطنوا بلاد المسلمين أو دخلوا في حلف معهم، الأمر الذي يقطع بأن الحرب المشروعة في الإسلام ليست ضد الأديان الأخرى، كما أن الوقائع التاريخية تشهد أن الحرب التي شرعها النبي ﷺ كانت للدفاع ورد الاعتداء، والذود عن الدين، ومعاقبة المتآمرين والخائنين، والذين يضمرون الشر، والمتحفرين للوثوب على الدولة الإسلامية؛ رغبة منهم في القضاء على أهلها، مستشهداً أيضاً بالآيات التي ورد فيها مصطلح الجهاد، وقاتل المسلمين للكافرين المعتدين، ويقول في ذلك:

«يظهر لنا من مجموع آيات الكتاب الكريم الواردة في القتال، ومن عمل النبي نفسه في سننه، ومن السيرة وتاريخ حروبه، أن الإسلام لا يبيح حرب الاعتداء، ولا يحل الحرب لعرض الحياة الدنيا، فعند الله مغايم كثيرة. أما الغايات الأخرى التي يقاتل من أجلها الناس، كسيادة عنصر على عنصر، أو شعب على شعب، أو استعلاء ملك على ملك، أو طبقة من الطبقات الاجتماعية على طبقة أخرى، أو توسيع رقعة مملكة، أو أغراض حربية وإستراتيجية، أو الأغراض الاقتصادية، أو الاستئثار بالمواد الخام والأسواق التجارية، أو تمدين المتخلفين عن الحضارة، أو غير ذلك مما تتخذه الدول وسيلة لإشعال الحرب ونقض العهد وهدم السلم الدائمة، فليس ذلك كله في شيء مما أباح الإسلام القتال لأجله؛ ذلك لأن غايات الإسلام إنسانية سامية يعم نفعها الناس جميعاً، ونظرته علوية

تقع على البشر جميعاً كأسرة واحدة متكافلة، والله تعالى ليس رب المسلمين وحدهم، بل رب العالمين».

وقد أوضح كذلك أن من أغراض الحرب المشروعة في الإسلام دفع الظلم عن الأفراد والشعوب، أي محاربة قوى الاحتلال ومساندة حركات التحرر والدخول في المنظمات والأحلاف التي تنشد إقرار العدل وسيادة السلام العالمي، واستشهد بحلف الفضول وتحالف قبيلة خزاعة مع عبد المطلب في الجاهلية اللذين أقرهما الإسلام، وذلك لأن فيهما شرطاً يمنع البغي والعدوان، ولا يشرع الحرب إلا دفاعاً عن الأنفس أو نصرة المظلومين، ثم معاهدة النبي مع خزاعة على الرغم من شرك أهلها، وأكد في تحالفه معها على مناصرتها في الحق والدفاع عنها إن كانت مظلومة فحسب.

ثم أكد على الآداب التي وضعها الشرع للحرب، وهي عدم المباغته والغدر، فلا قتال إلا بعد إعلان وإنذار العدو، والامتناع عن محاربة غير المحاربين وقصدهم بالأذى، وعدم جواز قتل الشيخ أو الصبي أو المرأة أو العجوز أو من انقطعوا للعبادة أو العلم وامتنعوا بذلك عن أن يشتركوا في القتال، والمدنيين غير المقاتلين، وتجريم الحرب من أجل الاستيلاء على ثروات الأمم الأمنة غير المحاربة، أو لأي غرض من أغراض الدنيا، وتحريم التنكيل والتمثيل بالجثث أو تشويه الخلقة أو تقتيل الأسرى والعسف والتجويع، وحرق الزرع أو إتلاف الممتلكات، أو سبي النساء غير المحاربات، أو قتل الأغنام، وإذلال الأمم المغلوبة، وحرمانهم

من الحقوق الإنسانية. وهذه الآداب من الثوابت الشرعية التي لا خلاف فيها بين الفقهاء، ومن ثم فالخروج عليها إثم وعدوان ومروق.

وانتهى إلى أن السلم مقدم على الحرب في العلاقات الدولية، ونزع إلى أنه من أباطيل المستشرقين القول باشتراط المسلمين على جيرانهم الإسلام أو الجزية أو الحرب، بل إن مثل ذلك الزعم يصور المسلمين على أنهم غزاة جبارين، والواقع أن الإسلام لم يطرح هذه الشروط الثلاثة إلا على الأمم التي رفضت مسالمتهم، ومنعته من إرسال الدعاة لنشر دين الله، كما أن النبي قبل معاهدة ومسالمة الأمم الكافرة دون أن يفرض عليها جزية أو يبدأها بالحرب.

وقال في ذلك:

«فالحرب عند المسلمين طارئة وللسلم الحياة الدائمة؛ ولذلك كله قامت العلاقات الدولية في نظر المسلمين على أساس سلم دائمة بين البشر ينقضها العدوان وحده، فعنيت الدعوة المحمدية كل العناية بإقامة هذه السلم الدائمة على حرمة الأيمان والعهود».

وبين أن كل من خالف ما تقدم من مبادئ وقيم ومواثيق شرعية من المسلمين ينبغي ألا يحسب على ما جاء في الرسالة المحمدية، فاعتداء المسلم على أخيه ومحاربة بعض البلدان الإسلامية لجيرانها من المسلمين ينبغي علينا إدراجه ضمن المروق والنكوث في العهود والمخالفة الشرعية، ومن أقواله في ذلك:

«قد يقول بعض الناس إن في تاريخ المسلمين ما لا يتفق وما تدعو إليه. ونحن ندعو إلى كتاب الله ودينه لا إلى ما فعل بعض الدول والملوك، مما قد يشبه من قريب أو من بعيد ما يفعل الأوروبيون، وقد باءوا بالخسران كما باء المحدثون».

القضية الخامسة: أسباب الثورات

بين المؤلف أن العلة الأساسية لظهور الثورات هي شعور المواطنين بالظلم، وأن الحرية التي تنص عليها الدساتير ما هي إلا شعارات جوفاء سرعان ما تتحطم أمام استبداد رأس المال الذي يجعل من الطبقة العاملة مجرد عبيد لا حقوق لهم ولا صوت ولا إرادة إلا في الإطار الذي رسمه أصحاب الأعمال، وعلى ذلك تأتي الحكومات مناصرة للقلة التي تتحكم في اقتصاد الدولة، وتتخذ من الشرطة سبيلاً لقمع الأغلبية الرافضة والمنددة بالفروق الشاسعة بين الطبقات، وانتهى إلى أن الأنظمة الرأسمالية والشيوعية والثالثة التي حاولت الجمع بين نظامين في ثوب ديمقراطي، عجزت جميعها عن تحقيق العدالة الاجتماعية التي يسبب غيابها قيام الثورات، وبين أن الرسالة الإسلامية الخالدة قد عاجلت ذلك الخلل في شريعتها، فجعلت للفقير المعدم حقاً في مال الأغنياء بالصدقات والزكاة والبر والإحسان، وجعل للحاكم الحرية في توجيه الأموال المستقطعة صوب المنافع العامة التي تحقق الحياة الكريمة للرعية، وإذ لم تكف للغرض فمن حق الحاكم أن يفرض على الأغنياء ضرائب ليسد بها حاجة المجتمع، مستشهداً بما كان من أمر عمر في حرصه على تخصيص الجانب الأكبر من الأمصار المفتوحة

للمرافق العامة، غير عابئ بالمطامع الخاصة، وشهوة الملك التي تتسلل إلى صدور المنتصرين.

القضية السادسة: الدستور وسلطة الأمة

يرى عزام أن لكل ثقافة ثوابتها ومتغيراتها ومشخصات لا يمكن التنازل عنها باسم التحديث أو التمدن، ومن هذه الثوابت الاحتكام للشرع في وضع الدساتير وسن القوانين؛ إيماناً منه بأن الأصول الشرعية الإسلامية صالحة دوماً للتطبيق في كل زمان ومكان، وذلك في ضوء الفهم الصحيح للنص؛ للوقوف على الحكمة الشرعية في ضوء علم المقاصد وفقه المآلات، وتقديم درء المفسد على جلب المصالح، وإزالة التعارض المصطنع بين المعقول والمنقول والأصول العقدية وما ثبت بالقطع من الحقائق العلمية، ويضيف عزام في هذا السياق أن معظم الدساتير الوضعية تحمل الطابع الجنسي أو القومي أو العنصري الضيق الذي لا يمكنها من أن تسمو إلى آفاق العدالة الإنسانية المنشودة، وعليه فالدستور الخالد المتمثل في المبادئ الشرعية الإسلامية هو النسق الأتم، والقانون الأصلح للبشرية، وأن في مخالفته جنوحاً وعوجاً عن الفطرة الإنسانية، ويقول في ذلك:

«سيادة الأمة وكونها مصدر السلطات بالمعنى المتعارف عليه في هذا العصر. فللإسلام في هذا منهج غير نهج الدساتير الحديثة.. إن الإسلام دين عام، لا يتقيد في أصول العقائد والآداب والأخلاق والمبادئ والحقوق بالأوطان

الخاصة، ولا بنعرات الجنسيات والقوميات والألوان؛ ولهذا فالسيادة عنده
للشريعة: أي لتلك الأصول التي قامت عليها دعوته، وليس للأمة مجتمعة أو
متفرقة، متفقة مع رئيس الدولة أو مختلفة، ممثلة في برلمان أو في هيئة تأسيسية أو
غير ممثلة، أن تتصرف فيما جعله الله حقاً أو واجباً للأفراد أو للجماعات في وطن
ما أو للناس كافة في الدنيا كلها.. إذ لهذه الأصول وحدها القائمة على ما شرع
الله من حقوق وواجبات عامة للإنسان؛ السيادة والخلود؛ لأنها دائماً بإرادة الله
لا غيره. وهذا أصل إسلامي عظيم يجب دائماً ألا يغيب عن أذهان الباحثين
الإسلاميين، وأن ينوه به في هذا العصر خاصة ويعلن عنه؛ لأنه جعل من رابطة
الإنسانية رابطة أعلى من الروابط العنصرية والوطنية، وجعل من الحقوق البشرية
ما يسمو على السيادة أو المصلحة القومية.

القضية السابعة: التصالح بين الأديان

يؤكد عزام أن الله واحد وشريعته واحدة ودستوره يتخطى حدود الزمان
والمكان، وأن الاختلاف بين الكتب السماوية يبدو في أمور عارضة ترجع إلى
تأويلات الأحبار وتفسيرات القساوسة والرهبان، أما قطعي الثبوت وقطعي
الدلالة فهو الجوهر المتمثل في المبادئ الأخلاقية والعقدية التي لا تتبدل ولا
تتغير، وعليه فالتألف بين الأديان الثلاثة هو الأيسر والأوفق من الانشغال بتلك
المسائل التي طالما تاجر بها الساسة للإيقاع بين المؤمنين بوحداية الله من اليهود
والمسيحيين والمسلمين، فلا خلاف بين هذه الأديان على أن الله سلام وعدل

ورءوف بعباده، ويدعو إلى المحبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن ما جاء في القرآن يؤكد وحدة النور الإلهي وأحادية مصدره، ومن أقواله في ذلك:

«فرسول الله في دعوته إلى الإيمان بالله الواحد الخالق لم يدع أنه مبتدع، بل قال إنه مكمل للشرائع السابقة، ومعيد للحنيفية الفطرية التي هي دين إبراهيم، بل هي دين نوح وأدم، وأنه لا تبديل لذلك الدين القيم الذي يستند إلى وحدة الله، ويترتب عليه وحدة خلقه».

القضية الثامنة: التقدم الحضاري

رفض المؤلف كل المزايم الاستعمارية التي اتخذت من بعض النظريات الملفقة سبيلاً للاستيلاء على البلدان الآسيوية، واستعباد الزوج والتوسع في تجارة الرقيق، بحجة أن هذه الشعوب خارج نطاق الحضارة، وأن عقول أبنائها لا تصلح للتمدن والمشاركة الإيجابية في دفع حركة التقدم الحضاري، مثل: (النظريات العنصرية التي تربط لون البشرة بالخصال الأخلاقية والمميزات الذهنية)، وقد روج لهذه النظرية السياسي الإنجليزي سيسيل جون رودس (١٢٧٠-١٣٢٠هـ/ ١٨٥٣-١٩٠٢م) رئيس وزراء مستعمرة الكاب^(١). ونظرية الحتمية البيئية (Determinism)، وهي التي تخص سكان الأماكن الحارة بخصال أخلاقية وذهنية، وكذا الأماكن الباردة والأماكن الجبلية والسهلية والمعتدلة المناخ...

(١) حسين مؤنس، الحضارة، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٨م، ص ٢١.

إلخ، على نحو يبرر لها زعمها بأن الأماكن قارسة البرودة وعالية الحرارة لا تنشئ حضارات ولا تعرف المدنيات، في حين أن الأماكن المعتدلة هي المؤهلة لذلك، تلك النظرية التي ترددت في كتابات أرسطو (٣٨٤ ق.م - ٣٢٢ ق.م) وابن خلدون (١ رمضان ٧٣٢ - ٢٨ رمضان ٨٠٨ هـ / ٢٧ مايو ١٣٣٢ - ١٩ مارس ١٤٠٦ م) ومنتسكيو (١١٠١ - ١١٦٩ هـ / ١٦٨٩ - ١٧٥٥ م) ودارون (١٢٢٤ - ١٣٠٠ هـ / ١٨٠٩ - ١٨٨٢ م)^(١).

والنظرية الآرية التي تجعل من الجنس الجرمانى على وجه الخصوص ثم الجنس الأوروبي على وجه العموم، أعلى الأجناس البشرية من حيث القوة البدنية والتوقد الذهني والاستنارة والتحضر والتمدن، وغير ذلك من الآليات التي تمكنه من التقدم وسيادة العالم، وقد روج لهذه النظرية الساسة الفرنسيون ومنهم الكونت أرثر دي جوبينو (١٢٣٢ - ١٣٠٠ هـ / ١٨١٦ - ١٨٨٢ م) عام ١٨٥٥ م، تلك النظرية التي جمع فيها بين آراء مولا نفيير ومنلوزيه فبين في أصول اللغات، ثم تبناها بعض الكتاب الإنجليز من أمثال تشمبرلن (١٢٨٦ - ١٣٥٩ هـ / ١٨٩٦ - ١٩٤٠ م) في كتابه «أسس القرن التاسع عشر»، ثم النازيون ومنهم بتمن هلوك وذلك أثناء خطاب له عام ١٩١٣ م^(٢).

(١) سحر مصطفى حافظ: الصراع بين الإنسان والبيئة، مقال بشبكة الألوكة الإلكترونية، ٢٤ / ١ / ٢٠٠٩

www.alukah.net\Culture\4744\1055\

(٢) أنطون سعادة، نشوء الأمم، د ن، سوريا، ١٩٣٧ م.

وقد أجمل عبد الرحمن عزام نقوده لهذه النظريات التي ذاعت في النصف الأول من القرن العشرين في:

تأكيدُه أن الحضارة تنتقل من مكان إلى آخر ومن أمة إلى أمة دون تقيد بجنس أو استئثار بجملة، فقد بزغت شمس الحضارة من أفريقيا بعقول الفراعين وسواعدهم السمراء، ثم انتقلت إلى آسيا من بابل إلى الصين، ثم أوروبا من اليونان إلى الألمان، وبلغت ذروتها عند الأمريكان. الأمر الذي تسقط معه جل النظريات الأنثروبولوجية وعلم الأجناس والتفسير الجغرافي للحضارة، ولعل علم الوراثة كان الأصدق في إخباره بأنه لا يوجد جنس على مر تاريخ الحضارات لم يختلط بأجناس أخرى، فالدماء الأوروبية اختلطت بالدماء الآسيوية والأفريقية بنسب متفاوتة، انعكست في السمات البدنية دون أن يؤثر ذلك في الطباع أو طرائق التفكير.

ويقول في ذلك:

«إن المدنية ليست امتيازاً ولا اختصاصاً لعنصر منها، ولا هي لازمة له وتابعة لصفاته الخاصة، فليست نتيجة للقوة الطبيعية الموروثة له، وليس سندها هو حق الأقوى بحال من الأحوال.

والحضارة إذن بجميع نتائجها المادي والأدبي أثر لحالات نفسية غير لازمة للصفات البدنية المميزة لقوم على قوم. ولو أننا ذهبنا بعيداً وحاولنا الاستدلال

بالمعلوم على المجهول، وقلنا إن الصفات البدنية تشير إلى خصائص نفسية لا تزال بعيدين عن علمها، فإن ذلك لا يغير من الحق، وهو أن العناصر التي نعرفها، لم تختص على طول التاريخ البشري بالعقل أو العلم أو الابتكار، حتى ننسب شيئاً من هذا إلى صفتها العنصرية، ومن الواضح أن النفس وحدها هي التي تضيء فتنير ظلمات الحياة البشرية متى أثرت فيها مؤثرات خاصة، وتهيأت لها بيئة روحية خاصة. فسند الحضارة هو الروح والخلق لا القوة المادية.

وعليه فإن الرسالة المحمدية الخالدة قد فصلت في هذا الموضوع بقول أكده العلم الحديث، ألا وهو: لا فضل بين البشر يعلي من قدرهم على بعض، إلا التقوى وقوة الأخلاق والتسابق لبلوغ السعادة في الدنيا والآخرة.

أما الحراك الحضاري فيخضع بطبيعة الحال لتوفر عوامل التقدم، وينتقل من أمة لأمة تبعاً لضعف هذه العوامل أو فسادها ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران / ١٤٠] فجميع الحضارات القديمة ازدهرت ثم خبت ولا يمتنع عليها الظهور ثانية تبعاً لقانون التطور والتحدي والاستجابة، فالنظريات الاقتصادية والأنثروبولوجيا التي تحاول تفسير حركة الحضارات، لم تستطع الإتيان بقانون يصدق على كل الحضارات، بل أتت بتفسير جزئي لظواهر بعينها، والأقرب إلى الصحة هو أن التقدم وليد تضافر عوامل روحية ومادية، تحكمها القيم الأخلاقية السامية، والعلوم النافعة التي تنشده العمران، ويقول:

«فما من قوم خرجوا على الدنيا برسالة العرفان والعمران إلا كانوا مهيئين لهذا بإيمان قوي وأدب قوي ودعوة قوية، وما من أمة تضاءلت عقائدها وانحط أدبها وتذبذبت إلا أصابها ما أصاب من قبلها؛ فهوت كأن لم تكن شيئاً مذكوراً.

فالعقيدة الصالحة والأدب القوي والعرف الصالح كقوة البارود في دفع القذيفة، تدفع الأمم بقدر ما فيها من قوة واستقامة».

«فلا شك أن العقيدة الصالحة التي تحيط بها وتحدها التقوى هي القوة الأولى لبناء المدنية، وضياؤها نذير بدمار المدنية».

«وسيجد هؤلاء في الدعوة المحمدية كما وجد الأولون الروح والعقل والتقوى والهدى. نعم سيجدون الهدى ذلك الذي هزئت به قريش، وقالت ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفَ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص / ٥٧] ولما تبعوه خطفوا من أرضهم لا للهوان، ولكن لسيادة الدنيا».

ويتراءى لي أن آراء المؤلف كانت أقرب إلى تفسير جوستاف لوبون^(١) (١٢٥٧-١٣٥٠هـ / ١٨٤١-١٩٣١م) وأرنولد توينبي^(٢) (١٣٠٧-١٣٩٥هـ / ١٨٨٩-١٩٧٥م) لتطور الحضارات، والأثر لا يمتنع بينهم، وسعة

(١) جوستاف لوبون، سر تطور الأمم، ترجمة: أحمد فتحي زغلول، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ط٢، ١٩٢١م، من ص ١٧١ إلى ص ١٨٧.

(٢) أرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ج٢، ١٩٦١م، من ص ١٤٣ إلى ص ١٥٦.

ثقافة عبد الرحمن عزام تمكنه من الاطلاع على كتاباتهما، ولا سيما أن القضية كانت مطروحة على مائدة الفكر العربي منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر، في العديد من الكتابات نذكر منها كتاب «إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا» لمحمد أمين فكري (ت ١٣١٧هـ / ١٨٩٩م)، ورسالة «في حقيقة التمدن» لمحمد قدرى (١٢٣٧-١٣٠٦هـ / ١٨٨٨-١٨٢١م)، وكتاب «غابة الحق» لفرنسيس مراش (١٢٥٢-١٢٩٠هـ / ١٨٣٦-١٨٧٣م)، وكتاب «رسالة الكلم الثمان» لحسين المرصفي (١٢٣١-١٣٠٨هـ / ١٨١٥-١٨٩٠م)، وكتاب «حاضر المصريين أو سر تأخرهم» لمحمد عمر (ت ١٣٣٨هـ / ١٩١٩م)، وكتاب «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم» للأمير شكيب أرسلان (١٢٨٦-١٣٦٦هـ / ١٨٦٩-١٩٤٦م)، وكتاب «حاضر العالم الإسلامي» للوثروب ستودارد (١٣٠١-١٣٧٠هـ / ١٨٨٣-١٩٥٠م) الذي ترجمه عجاج لويهض (١٣١٥-١٤٠٣هـ / ١٨٩٧-١٩٨٢م)، بالإضافة إلى ما ترجمه أحمد فتحي زغلول (رمضان ١٢٧٩ - ربيع أول ١٣٣٢هـ / فبراير ١٨٦٣ - مارس ١٩١٤م) في هذا السياق، وعلى رأسها كتاب ادمون دميولان «سر تطور الإنجليز الساكسونيين»^(١) عام ١٨٩٩م، وكتاب «سر تطور الأمم» لجوستاف لوبون.

(١) أدمون دميولان، سر تطور الإنجليز الساكسون، ترجمة: أحمد فتحي زغلول، المطبعة الرحمانية، ١٨٩٩م.

ثالثاً: أسلوبه ومنهجه في العرض والمعالجة

يلاحظ على المؤلف كثرة استشاداته بالآيات القرآنية والحديث الشريف وأقوال الفقهاء التي تبرر وتدعم الفكرة التي يسوقها للقارئ، ويبدو ذلك منذ السطور الأولى لمقدمة الكتاب، وينبئ سياقه السردي عن سعة اطلاع بطبائع الثقافات وزخم معرفي بالواقعات التاريخية، الأمر الذي مكنه من المقابلة بين الأحداث التاريخية في العصر الإسلامي والحوادث المعاصرة التي تجري في السياسة الغربية، ويمكننا أن نتكشف سماحته مع الأغيار ونهجه الدبلوماسي في الحوار، ويبدو ذلك في عرضه مضمون الرسالة، الذي جاء فيه أن إيمانه بالرسالة الخاتمة ورفعها إياها على دونها من القوانين والشرائع الوضعية والملل المحرفة ليس من باب التعصب، بل من سبيل الطرح القابل للأخذ والرد والاحتكام إلى العقل والبرهان، ويقول في ذلك:

«هذه الرسالة الخالدة إن كانت من الله - كما نعتقد نحن المسلمون - فيكفي أنها من الله لتمتاز على كل دعوة من غير الله. وإن كانت من «محمد» كما يقول المنكرون لنبوته، فنحن على بينة من أمرنا، ندعو إلى سبيلها بالحكمة والموعظة الحسنة. ندعو المنكرين لينظروا فيها لا بوصفها ديناً بل بوصفها نظرية تاريخية أتت بأفكار وشرائع في السياسة والاجتماع والاقتصاد؛ فسيجدونها - بصرف النظر عن معنى التدين - أسساً صالحة لنظام عالمي وسط بين المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تتطاحن عليها الناس الآن، وسيجدونها - حتى

على أنها من البشر- أصلح الدعوات وأرشدتها وأدناها إلى مبادئ العدل والحرية والمساواة والإخاء، وسيجدون طرائقها كمبادئها وسطاً سهلاً يلتقي الناس على قبولها بفطرتهم؛ فيصلح بها الحال ويستقيم المجتمع، ويعم السلام بين الأمم، وبين الطبقات في الأمم».

ونألفه يلح على الفكرة ويتناولها من أكثر من زاوية، بغية الإيضاح والترغيب، وهو في ذلك أبعد ما يكون عن الكتابات الإطاحية التي تسفه من نظريات الأغيار ورؤى المخالفين، ويبدو ذلك بوضوح في عناوين فصوله التي أعلن فيها عن تناوله لبعض الخبر وليس كله، مقتفياً في ذلك سمة العلماء، وكذا في حديثه عن نشأة الحضارات وعلة المدنية في الفصل الخامس، ومناقشته لأراء الخصوم بنظرة حيادية تحتكم إلى الوقائع والمسلمات البديهية.

أما عن أسلوبه في السرد فكان يشتمل على ثلاثة مستويات متداخلات لا فصام بينها:

أولها سياق عقلي منطقي يركن إلى الحجة والمعقول في الاستشهاد والإقناع.

وثانيها نقلي يرتكن إلى النص القرآني لتأصيل الرؤية وإقناع المتلقي.

وثالثها أقرب إلى الحكيم، ويبدو ذلك في الأقايص التي كان يسردها من خزانة رحلاته ومشاهداته في سياحاته عبر الثقافات المختلفة.

وذلك كله في ثوب لغوي رقيق تجمع خيوطه بين الرصانة والبلاغة والبساطة في التعبير.

ويؤخذ عليه عدم إثباته الآيات وتخريجه للأحاديث، وإفصاحه عن كل مصادره، واكتفاؤه بإشارات قليلة عن بعضها.

ولا غرو في أن الكتاب في مجمله يعد ضرباً من التجديد في الخطابات الدعوية القادرة على مخاطبة الأغيار بنهج موضوعي أقرب للغة الحوار الهادئ منه إلى التقرير والتسويق والقطع، كما أن الكتاب يسهم بقدر موفور في إحياء علم الكلام بمنهج حديث، شأن «الحصون الحميدية» لحسين الجسر و«رسالة التوحيد» لمحمد عبده، وكتابات عبد المتعال الصعيدي ومصطفى عبد الرازق، وغيرهم من الذين جمعوا بين المعارف الحديثة والأصول الشرعية والثوابت العقدية في ردهم على طعون المستشرقين وبسطهم مقاصد الشريعة.

وإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن أثر الكتاب في الثقافة العربية الإسلامية والثقافة العالمية فسوف ندرك بأنه ليس أدل على أهميته وفاعليته من ترجمته إلى العديد من اللغات الأجنبية، واتخاذ الدعاة المسلمين من منهجه سبيلاً للحوار مع الأغيار في البلدان الأوروبية ودستوراً لتربية الشبيبة المسلمة في معظم البلدان الإسلامية الآسيوية والإفريقية، الأمر الذي يبرر وصف الكثير من النقاد لكتاب الرسالة الخالدة بأنه سفارة الهدى والرشاد في بلاد الأعاجم، وهاهو صديقه توفيق

الشاوي يحدثنا عن قيمة هذا الكتاب وأثره في الفكر الإسلامي وذلك بقوله:

«وإذا كان عزام قد أبعد عن الجامعة العربية فإنه استمر في عزله يدعو لفكرتين أساسيتين يعتبرهما أهم خصائص الفكر الإسلامي، هما: فكرة الجهاد والفداء، وفكرة الوحدة الإسلامية جميعاً سواء كانوا عرباً أو غير عرب، ومن كان يريد معرفة مدى عمق الفكرة الإسلامية لدى عزام فعليه أن يقرأ الرسالة الخالدة، إن رسالة العرب الخالدة في نظره هي الرسالة الإسلامية كما آمن بها وكما رسم خطواتها ودافع عنها في هذا الكتاب، وأول أسس هذه الرسالة أنها لا تقر الاعتزاز بعنصر أو جنس، وأن قيمة الإنسان في عمله وفي ساحة العمل والجهاد ينعم الجميع بأخوة التضحية ووحدة المصير والتسابق للشهادة»^(١).

ويضيف صديقه عبد المنعم خلاف أن كتاب الرسالة الخالدة ظهر في أوانه يعني اللحظة المناسبة التي أعلن فيها المؤلف للسلطة الغربية أن الفلسفات الغربية والديكتاتوريات الوضعية لم تفلح في نشر السلام على الأرض، وعليه يجب النظر في الرسالة المحمدية التي تحوي الدواء لداء الشهوة والطمع الذي تفشى في أوروبا وأميركا، فدفع الجيوش المتصارعة للتدمير والخراب وإزهاق آلاف الأرواح البريئة، ويقول:

(١) توفيق الشاوي، عبد الرحمن عزام والجامعة العربية.

«وإذا الحقيقة الخالدة تتجلى من جديد وهي أن الحياة الإنسانية إذا لم تقم على الطمأنينة والسلام وعقائد الخير وانسجام الإنسان مع ما أراده الله من الطبيعة، فهي إلى فناء وزوال في غدها مهما غنيت في أمسها وحاضرها»^(١).

«وهذا ما أراده عزام باشا حين أخرج بحوث هذا الكتاب الذي لا شك في أنه سيكشف للعالم جميعه مدى ما عند وارثي الرسالة الخالدة من فهم وإدراك وعلاج لمشكلات الفكر والعيش والسلام والحرب والاجتماع، وما لديهم من استعداد عظيم للمشاركة في إقامة حياة كريمة بين الناس جميعاً، ومدى ما في طبعه مكنن سماحة تؤهلهم أن يكونوا بحق الأمة الوسط لا في المركز الجغرافي وحده، بل في المركز الفكري كذلك»^(٢).

والكتاب «دعوة ستجد من يحملها بقوة وإيمان؛ لأنها نداء الحياة والزمان وروح الحضارة العالمية التي اشترك في حمل شعلتها جميع الأمم، والحياة الحالية نبوة، نبوة الطبيعة وقوانينها وحقائق الأشياء وبراهينها، فلا تحمل شكاً أو جدلاً في قيمتها، وإنما تحتاج إلى الفهم والإيمان والإخلاص والعمل لإنقاذ الإنسانية وإنقاذ الحضارة من فلسفات الشك والهدم والمادية الصماء»^(٣).

(١) عبد المنعم خلاف، الرسالة الخالدة (١) عبد الرحمن عزام، مقال في مجلة الرسالة، ع ٦٩٧، ١١ / ١١ / ١٩٤٦ م.

(٢) المرجع السابق.

(٣) عبد المنعم خلاف، الرسالة الخالدة (٤) عبد الرحمن عزام، مقال في مجلة الرسالة، ع ٧٠٠، ٢ / ١٢ / ١٩٤٦ م.

وقد اطلع على الكتاب شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية آنذاك، وأوصى بتعميمه على مختلف المدارس الأميرية بسوريا، وجاء في بيانه:

إن الكتاب «حافل بالفكرة الروحية التي قام عليها مجد الآباء، والتي يهمننا أن تنتظم في نفوس شببتنا في عصر طغت فيه المادة وعف فيه الرادع الخلقى»^(١).

وأرسل محمد بهجة الأثري (١٣٢٢-١٤١٦هـ / ١٩٠٤-١٩٩٦م) العالم الأثري العراقي إلى عبد الرحمن عزام يهنئه على صدور الكتاب قائلاً:

«إن توفيق الله إياك لكتابة (الرسالة الخالدة) تجلو بها رسالة الله الواحدة الخالدة على الزمن، وتدعو العالم الجديد إلى الاقتباس من هداها في الاجتماع والسياسة والحرب والسلم والعلاقات الدولية لإزالة أسباب الاضطراب العالمي وإمداد الحضارة بسند روحي، وإقامة نظام عالمي جديد، لنعمة من نعمه التي أسبغها سبحانه عليك وأنت لها أهل، أراك خليقاً بأن تستزيدها بالشكر وتستديمها بالحمد والثناء»^(٢).

(١) الأمين العام لرئاسة الجمهورية السورية، تقدير كريم لكتاب الرسالة الخالدة، مقال بمجلة الرسالة، ع ٧٠٩، ١٩٤٧/٢/٣م (البريد الأدبي).

(٢) محمد بهجة الأثري، رسالة النقد حول كتاب الرسالة الخالدة، مقال في مجلة الرسالة، ع ٧١٢، ١٩٤٧/٢/٢٤م.

وعلى الرغم من تهكم بعض المستشرقين الأمريكيين على دعوة عزام للقومية العربية وعالمية الإسلام فإننا نجد المستشرق الإنجليزي رالف م. خوري يشير بإعجاب إلى دفاع عزام عن أصالة الفكر العربي الإسلامي وتأكيده على أن الحضارة الإسلامية تيار متدفق من إبداعات البشر بغض النظر عن أجناسهم أو دياناتهم:

«نخبرنا في (الرسالة الخالدة) بأن الثقافة الأوروبية تستمد إلهامها من عقائد وثقافات لها نفس الخلفية العامة التي يستمد منها المجتمع الإسلامي وحيه وقوته، ولهذا يمكن للمسيحيين واليهود والمسلمين أن يلتقوا على أرضية مشتركة. وهو حريص على التشديد على أن آلاف السنين على طول التاريخ تظهر أن الحضارة لم تثبت في مكان ولا دامت لقوم وحدهم. لقد لعب المصريون الدور الأول، بل الدور الأهم في تطور الحضارة البشرية، وتبعهم بدورهم أقوام آخرون، مثل: السومريين، والبابليين، والفينيقيين، والفرس، واليونان، والصينيين، والهنود، والرومان، والعرب، ثم الأقوام الأوروبية والأمريكية الحديثة، كلهم أضافوا إلى الحضارة وجدّوها. وللبشر طاقة روحية مشتركة كما أن الموارد العقلية لكل البشر متشابهة. وإذا ما نهضت الأمم وانحطت تبعاً لقانون لا يتغير يكشفه التاريخ، فإن ذلك لا يرجع إلى القوى المادية أو الفوارق العرقية، بل لأسباب روحية ومعنوية وعوامل أخلاقية تعتبر دوماً العناصر المحددة الحاسمة لدى كل الشعوب».

كما بين أن عزام قد قدم رسالته الخالدة- في ترجمتها الإنجليزية- إلى العقلية الأوروبية في سياقين لقبولها كدستور عالمي، أولهما على أنها خطاب إلهي يحوي بين طياته سعادة الجنس البشري وأمانه وسلامته، وثانيهما على أنها فلسفة جديرة بالتأمل والتعقل، الأمر الذي يجعلها خليقة بالتطبيق؛ وذلك لأنها فاقت كل ما سبقها من فلسفات بجمعها بين المثالية الروحية والواقعية المادية في نسق محكم وسياق منطقي دقيق، ورغم ذلك فإن عزام- في رأيه- لا يعدو أن يكون أحد المجددين للخطاب الفلسفي الإسلامي الذي يجعل في اعتناق الإسلام والسير على هداية طوق النجاة للإنسانية، غير أنه لم يستطع اجتياز العديد من المفارقات المنطقية، مثل: البون الشاسع الذي يفصل بين سلوك المسلمين وما يؤمنون به ويدعون إليه، بالإضافة إلى الشيفونية التي ترد للعرب كل المكارم الأخلاقية سواء في طور جاهليتهم أو في طور إسلامهم، وتجعل منهم وأراضيهم مهذاً للوحي والنبوة والرسالات السماوية، وذلك فضلاً عن كثرة استشاداته بالآيات المقدسة والأحاديث النبوية لتدعيم رأيه وإقامة الحجة على خصومه، ويضيف إلى ذلك أن خطاب عزام للوحدة العربية الإسلامية يجب إدراجه ضمن أحلام البرجوازيين التي يتعذر تحققها على أرض الواقع في الحاضر أو المستقبل^(١).

(١) رالف م. خوري، عزام باشا، مرجع سابق، ص ٤٧٩-٤٨١.

وعندي أن كتاب الرسالة الخالدة يعد تمة لخطاب عبد الرحمن عزام الدعوي الذي بدأه بالحديث عن صفات المصطفى ﷺ التي يريد إحياءها في شبيبة العرب والمسلمين، وذلك في كتابه «بطل الأبطال» الذي صدر عام ١٩٣٩م- قبيل الحرب العالمية الثانية- ولعله أراد بالخطاب الأول تنبيه ضمير العالم بأن البطولة الحقيقية ليست في إطلاق المدافع وقذف القنابل والاستيلاء والهدم والسطو والقتل، بل البطل الحقيقي هو الخلق البار المتسامح دائماً الذي يعلي من شأن العلم والعلماء ويصون الحريات ويعمل على نشر السلام بين البشر، ثم جاء الكتاب الثاني (الرسالة الخالدة)- بعد انتهاء الحرب- ليؤكد هذه الصفات، ويثبت أنها منة إلهية أنعم بها الله على نبيه محمد؛ فتنزلت عليه قرآنًا ليحمله دستوراً قوياً للإنسانية جمعاء.

ومن أشهر الكتابات التي تأثرت بنهجه في العرض والمعالجة كتابات محمد عطية الإبراشي (١٣١٥-١٤٠٢هـ / ١٨٩٧-١٩٨١م) مثل: «عظمة الإسلام» و«روح الإسلام»، ومحمد غلاب في كتابه «هذا هو الإسلام»، وكتابات علي عبد الواحد وافي (١٣١٩-١٤١٢هـ / ١٩٠١-١٩٩١م) مثل: «حقوق الإنسان في الإسلام»، وكتابات مصطفى الرافعي مثل «الإسلام نظام إنساني»، وغيرها من المصنفات التي جمعت بين الرد العقلي على أباطيل المستشرقين من جهة، وبسط العقائد الدينية بنهج علمي حديث من جهة ثانية، وتحديث الخطاب الدعوي ومقابلته بالأيديولوجيات الغربية المعاصرة من جهة ثالثة.

ولا غرو في أن التيارات الإسلامية الحديثة وعلى رأسها جماعة الإخوان المسلمين والتيارات السلفية الجهادية قد استفادت إلى حد كبير من الأفكار التي طورها عبد الرحمن عزام، مثل: فكرة الحاكمية الإسلامية في الدولة المدنية الحديثة، وفكرة عالمية الإسلام في ضوء الدعوة للوحدة العربية، ورفض كل أشكال العنصرية الجنسية والوطنية والشعبوية والعرقية.

مؤلفاته

- «بطل الأبطال أو أبرز صفات النبي محمد ﷺ» وظهرت طبعته الأولى عام ١٩٣٩م وتقع في ١٣٨ صفحة، وقام الشيخ محمد مصطفى المراغي بتقديمه، وظهرت طبعته الثانية عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية عام ١٩٦٤م وتقع في ١٣٨ صفحة، ثم ظهرت طبعة ثالثة عام ٢٠٠٦م عن دار الهداية ودار القلم، وهو عبارة عن أحاديث إذاعية ألقاها بين عامي ١٩٣٧م و١٩٣٨م.

- «الرسالة الخالدة» ظهرت طبعتها الأولى في عام ١٩٤٥م عن لجنة التأليف والترجمة والنشر وتقع في ٣٢٦ صفحة، وترجمت هذه الطبعة للغة التركية ولغة الملايو والفارسية والأردية والإنجليزية واليابانية، وقد صدرت الطبعة الثانية بترجمة لمقدمة الطبعة الإنجليزية عام ١٩٥٤م، ثم ظهرت الطبعة الثالثة عام ١٩٦٤م عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وتقع

في ٢٦٣ صفحة ضمن سلسلة لجنة التعريف بالإسلام، الكتاب السادس عشر، أشرف على إصدارها محمد توفيق عويضة، ثم طبعت طبعة رابعة عن دار الفكر العربي ودار الشروق ١٩٦٩م وهي التي اعتمدنا عليها في طبعتنا هذه، ثم ظهرت طبعة خامسة عن دار الهداية ودار القلم ٢٠٠٦م وهي مصورة عن الطبعة الرابعة.

• مذكرات عبد الرحمن عزام وقد نشرت في عدة صحف على مراحل متفرقة فظهر جزء منها على صفحات مجلة «كل شيء والعالم» التي كانت تصدر عن دار الهلال عام ١٩٢٩م، ثم نشر جزءاً آخر في مجلة العالم العربي عام ١٩٤٧م، ثم مجلة المصور ١٩٥٠م وجريدة الحوادث في نفس العام، ثم جمعها جميل عارف تحت عنوان (صفحات من المذكرات السرية لأول أمين عام للجامعة العربية عبد الرحمن عزام) وصدرت عن المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر عام ١٩٧٧م وتقع في ٣٣٧ صفحة، وقد أعرب أحفاد عزام أن لديهم وثائق مكملة لهذه المذكرات سوف يقومون بنشرها تباعاً على الموقع الخاص بهم.

• مقدمته لكتاب «عمر المختار: الحلقة الأخيرة من الجهاد الوطني في طرابلس الغرب» للشيخ الطاهر أحمد الزاوي الذي وقع باسم مستعار هو محمد محمود، ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٣٤م عن مكتبة الحلبي بالقاهرة.

• مقدمته لكتاب «كريستنسن» : «إيران في عهد الساسانيين» ليحيى الخشاب.

وله عشرات المقالات لم تجمع بعد في: الأهرام، والبلاغ، وصوت الأمة، والمصري، والأساس، والزمان، والفجر الجديد، والحوادث، والحياة اللبنانية، والرسالة، والهلال، والإثنين، والدنيا، ومجلة كل شيء والعالم، ومجلة العرب، والقدس، ومجلة الوثائق والمخطوطات، والجهاد، والفتح، والرابطة العربية، واللواء الطرابلسي، والكشاف، والمصور، ذلك فضلاً عن خطبه وكلماته التي ألقاها في المؤتمرات والمحافل والمناسبات العامة.

عبد الرحمن عزام

الرسالة المحفلة

دار الشروق

دار الفكر

صفحة الغلاف الداخلي لآخر طبعة للكتاب صدرت في حياة المؤلف (الطبعة الرابعة)

الرسالة الخالدة

بحث في رسالة الله الواحدة الخالدة على مدى الزمان،
واقتراس من هداها في الاجتماع والسياسة والحرب والسلام
والعلاقات الدولية، لإزالة أسباب الاضطراب العالمي،
وإمداد الحضارة بسندٍ روحيٍّ، وإقامة نظام عالميٍّ جديد.

تأليف

عبد الرحمن عزام

١٤٣٥ هـ / ٢٠١٣ م

طُبِعَ لأول مرة في عام (١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الإنجليزية مترجمة

لم يكن في تقديري أن أقدم « رسالة محمد الخالدة » ككتاب. وإنما قصدت من الأحاديث الأصلية التي قدمتها في هذا الموضوع أن أوضح للمسلمين بعضاً من مبادئ مجتمعهم وأصول عقيدتهم وشريعتهم السماوية.

ولم يكن من قصدي بحال أن أدافع عن الإسلام أو أبشر به لغير المسلمين.

• • •

وعن الاسلام، كتب مؤرخ مسيحي يقول: « الاسلام ثقافة ودين معا،

وقد يمكن تصور قيام الثقافة فيه بمعزل عن الدين ».

ونتيجة لهذه الحقيقة، فإن المسلمين إذا فقدوا دينهم، فإنهم يفقدون معه

ثقافتهم، ويردّون بالتالى إلى انحلال مجتمعهم.
 ويزداد الأمر بالنسبة للشعب العربى، الذى هو بذاته من صنع الثقافة الاسلامية.
 فانه خلال عملية الانحلال الحتمية هذه يفقد مقومات وجوده وعناصر كيانه كأمة.

• • •

والقرآن كثيرا ما ينص على الأصل المشترك بين الاسلام وبين كل من المسيحية
 واليهودية، الأمر الذى يتيح للأديان الثلاثة لقاء على أرض مشتركة
 وفي القرن العشرين، أخذت أوروبا الغربية والشرقية معا تفقد تدريجيا ارتباطها
 بالدين الذى ورثته من القرون السابقة، وأصابها التيه والاعجاب بمنجزاتها العلمية
 ونجاحها التكنولوجي.

واليوم، صار جانب كبير من العالم يمجّد صورته ويعبد خياله. وتتشابه الاشتراكية
 الماركسية والرأسمالية الغربية في خلق طقوس واقامة شعائر للعقائد والفلسفات المادية
 الجديدة في كل من الغرب والشرق على حد سواء.
 وإله العالم، الذى هو إله اليهود والنصارى والمسلمين ورب العالمين جميعا.
 كأنما يراد إنزاله عن عرشه من أجل وثنية جديدة الهها الذى يركعون له ويقدمون
 له القرابين، هو ما يجسدونه ويمجدونه في هذه النظريات والعقائد المادية الجديدة.
 وعلى الرغم من الشد والجذب اللذين يتعرض لهما المسلمون من كل من الغرب
 والشرق، فانهم لا يزالون يترددون ويرتابون، ويكرهون أن يشاركوا في تمجيد
 الأوثان والعقائد المادية.

حقا إن فريقا من قوما يستوحون فكرهم وسلوكهم من الفلسفات المادية

وعقائدها وشرائعها، إلا أن الأغلبية الكبرى من المسلمين في أفريقيا وآسيا لا يزالون في قلق وحيرة من أمرهم. ذلك لأنهم يدركون ويعرفون منذ عهد بعيد أنه لهم عقيدة، وشريعة سماوية، ومجتمع، ومبادئ... تدعو جميعها إلى دولة ليست علمانية فقط ولا دينية فقط، بل جامعة ومحقة لصالح دينهم ودنياهم معاً. وعلى أية حال فليست استبدادية أو غوغائية.

فالمجتمع الاسلامي - كما يدعو له الاسلام - يقوم على اساس حرية الفرد والمساواة بين الناس. وهو في حقيقته وجوهره مجتمع حر غير طبقي. وانعدام الطبقية فيه ليس على أساس نظرية اقتصادية أو نظرية مادية، وإنما على أساس أشمل وأسلم. أساس شريعة الاخاء والمساواة بين الناس ورفض الاعتراف بامتياز أو فضل الا من خلال التقوى، والعمل الصالح لخير الفرد والجماعة، والامثال لشريعة الله القائمة على مبادئ عالمية انسانية ديمقراطية.

هذا، وليس فيما يدعو إليه الشرق أو الغرب جديد على المسلمين. فتحكيم العقل والمصلحة أمر ضروري ومطلوب حتى في إقرار عقائدهم وأحكام شريعتهم. ومن ثم كان الاجتهاد أحد المصادر الأربعة للتشريع عندهم.

ولذلك فالمسلمون كثيراً ما يأخذهم العجب عندما تساق إليهم المذاهب المادية الحديثة ويقال لهم انها ثمرة علم حديث وحضارة حديثة، ويسألون انفسهم عما اذا كان ضروريا أن ينصرفوا عن خالق الكون ليشاركوا في ثمار علم حديث وحضارة حديثة؟.

أوجب عليهم أن ينكروا انبياءهم ورسلمهم الذين أحبوهم وآمنوا برسالتهم، وان

يتنكروا لثقافتهم السمحة ومجتمعهم الانساني وحياتهم المطمئنة، وان يتخلوا عما يدعوههم اليه دينهم وتحضهم عليه شريعتهم المتكاملة من تكافل وتضامن وعدل ورحمة واخاء ومساواة وعمل صالح وخير مشترك ينعمون به هم وأسرهم ومجتمعهم...
أجب عليهم كل ذلك من أجل أن يشاركوا في الاندفاع العام نحو مجتمعات منكرة للخالق كما في الشرق والغرب، ومن أجل أن يكونوا بالتالي أهلاً لما تعدهم به وما تزيّنه لهم هذه المذاهب المادية الحديثة؟

وهم يتساءلون... أنذا لم ينصرفوا عن خالفهم ويكفروا به، وإذا لم ينكروا انبياءهم ورسلم ويتنكروا لعقيدتهم وثقافتهم ومجتمعهم، وإذا لم يتخلوا عما يدعوههم اليه دينهم وتحضهم عليه شريعتهم. ألا يحق لهم ان يقرروا ما يصلح لهم من « نظام للأجور » وما يتسنى لهم من « مستوى معيشة مرتفع »؟؟.. وهل يتسنى حقهم في ان يقيموا المجتمع المتكافل المتضامن الذي يسوده العدل والاخاء والمساواة، المجتمع الذي لا طبقية فيه.. والذي يدعوههم اليه دينهم؟

هذه بعض الأسئلة التي تشغل بالهم وتقلق المفكرين والمسؤولين بين السبعائة مليون مسلم من مختلف الأجناس والشعوب.

• • •

والاسلام يختلف عن اليهودية في كونه يخضع معتقيه لله رب العالمين جميعا، فليس بين المسلمين وبين الله عقد خاص أو امتياز خاص بأنهم شعبه المختار. وهو لا يشارك المسيحية القول بان ما لقيصر لقيصر وما لله لله.
وهو كذلك يختلف عن الديانات الأخرى كالبودية والهندوكية.
والمسلمون الذين يشاركون الأديان الأخرى، وخاصة اليهودية والمسيحية،

في كثير من العقائد والشرائع والنواهي والأوامر، لا يشاركون الا بقدر في بعض ما تدعو اليه المذاهب المادية الحديثة، التي تنحصر شعائر الحياة وغاياتها لديها في نظرية اقتصادية ونظرة مادية.

* * *

فالاسلام عقيدة وشريعة. هو دين وثقافة وأسلوب حياة. هو أمة ودولة لها شريعته المتكاملة والمتطورة لتدير شئون هذه الدنيا والتجاوب مع حاجات الانسان لكي يحيا حياة انسانية كريمة خاضعة لسيادة الخالق وحده.

هو دين ودنيا. دنيا تعمر وتقوم على ما يبسطه لها الدين من إيمان وتقوى وعمل صالح لخير الفرد والجماعة، ومن مبادئ وقوانين، ومن مجتمع متكافل متضامن ودولة على نحو ما اسلفنا.

وهذه الدنيا التي يطالب الدين بأن تعمر أفضل ما يكون العمران، وبأن تكون الحياة فيها أكرم ما تكون الحياة، ليست مع ذلك الا مقدمة ومعبداً للحياة اخرى خالدة.

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا »

« ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ».

وفي القول المأثور « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً ، واعمل لآخرتك كأنك

تموت غدا »

* * *

من كل ذلك فان أمة الاسلام التي هي أمة واحدة « وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » ترفض ان تلقى جانباً ثقافتها وعقيدتها وشريعته المتكاملة

والتي لا تقبل التجزئة. لكي تجري وراء نظام قاصر ومحدود سياسيا كان أم اقتصاديا. فالنظم الاسلامية فريدة ومتميزة بشمولها وبأصولها المتكاملة. ولذا فهي لا يمكن ان تدخل في مساومات وتنازلات، بل تقف ثابتة تطالب بتقوى الانسان وحرية وكرامته، وبقيام الأسرة المتكافلة فيما بينها المسئولة عن كل فرد فيها، وقيام المجتمع المتضامن الذي يسوده الايثار والاخاء والمساواة، والعدل والرحمة والانسانية، والعمل الصالح والخير المشترك.. المجتمع اللاطقي.. مجتمع الشركاء المتساوين الذي يقوم على فلسفة سليمة شاملة كاملة!

* * *

ومع أن هذا الكتاب « رسالة محمد الخالدة » لم يلتزم بالأسلوب الاكاديمي في طريقة بحثه وعرضه. فانه محاولة جادة لاظهار وسائل الاسلام في حل مشكلات عصرنا الحاضر.

ولقد نشر الكتاب أولا باللغة العربية عام ١٩٤٦، ثم أعيد نشره بها مرتين. وكذلك ترجم ونشر بفضل أساندة متخصصين وهيئات مسئولة في عدة دول وبعده لغات في الدول الاسلامية.

وقد أضفت الى طبعته العربية الثانية فصلا عن الدولة الاسلامية ومقوماتها. كذلك أضفت الى هذه الترجمة الانجليزية فصلا عن حياة الرسول وبعض تعليقات وحواش تفسيرية.

ومهما يكن من شأن الكتاب، فليس لدينا منذ نشر أول مرة حتى اليوم ما يشير الى وجود معارضة أو خلاف حول معالجة أي موضوع من موضوعاته من قبل فقهاء المسلمين وعلمائهم في جميع بلدان العالم الاسلامي.

عبد الرحمن عزام

مدينة نيوبورك يناير ١٩٦٤

❁ مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى
لحمل رسالته وأداء أمانته.

إن هذا الكتاب وليد المصادفة، فلم يكن تأليفه مقصوداً، وإنما دعا إلى تناول
موضوعاته حالة الشذوذ والاضطراب التي سادت العالم أثناء الحرب الأخيرة،
والرغبة في الكشف عن أسباب هذا الاضطراب العالمي، ومحاولة إيجاد علاج
له بعد أن تبين أن هذا العلاج غير ميسور في هدى الدعاوى والمبادئ السارية في
هذا القرن، والتي أوحى بها المدنية المادية الحديثة.

فكلما قلنا الرأي في هذه الدعاوى، وسائرنا تنفيذها الواقعي في أوروبا
 وأمريكا، ازداد الشك في نفوسنا، وظهر عجز هذه الدعاوى عن حل المعضلة
وعن وفائها بحاجة الناس. وتوالي الحروب المدمرة، وتذبذب الأقسام بين هذه

فالآيتان الأولى والثانية اعتبرتتا أتباع هذه الرسالة الخالدة مسلمين، سواء أجاؤا بعد محمد أم قبله، والآية الثالثة جمعت الناس في رحمة الله على أساس الإيمان والعمل الصالح، فرسالة الله إذاً في نظر المسلمين واحدة يتتابع على حملها الرسل والأقوام.

والشريعة المحمدية كنظام عالمي هي آخر تطور لهذه الرسالة، وهذا الكتاب هو محاولة متواضعة لإيجاد حل لمشكلات هذا العالم على ضوءها، وهو أيضاً محاولة لبيان أسس الدعوة المحمدية في السياسة والاجتماع والحرب والسلام والعلاقات بين الدول والشعوب والطبقات والأفراد، وبيان حاجة الحضارة إلى سندٍ من القوى الروحية والمعنوية يمسكها ويوجهها للخير العام ويحد من حوافز السيطرة والأثرة والظهور.

والعرض الواضح في بعض النواحي لوجهة النظر الإسلامية إنما قصد به إلى التعاون والقُرْبَى لا التنابد والتفرقة، وأن يجد النشء الجديد المتعطش إلى المعرفة والطالب للهدى، من المسلمين وغير المسلمين، مادة للتفكير وسبيلاً إلى رأي عالمي مستقيم بعد هذه الحروب المدمرة التي أثارت اضطراباً لا نظير له، التبس فيه الحق بالباطل. ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى / ١٣].

وقد شرف الله العرب بأن جعل منهم آخر رسله، واستكمل فيهم رسالته الخالدة، فحملهم الأمانة، وعليهم أن يكونوا المثل والقذوة في سعة الصدر والنصفة والعدل والإخاء وحب السلم.

وإني لأرجو أن يكون الجيل الناشئ من العرب أهلاً لحمل هذه الرسالة، يمدون الحضارة والعلم بالسند الروحي الذي لا بد منه لعالم جديد متضامن متعاون على تثمير خيرات الأرض، مستظلّ بلواء الحق والعدل، نافرٍ من استخدام القوة، متجهٍ نحو دولة عالمية واحدة تباركها يد الله ويرعاها رضاه.

القاهرة سبتمبر ١٩٤٦م

عبد الرحمن عزام

(١)

في أصول الدعوة

❁ تهيد

تاريخ يتصل

منذ أكثر من عشرين سنة دعنتي الإذاعة المصرية للتحديث على موجاتها، وتركت لي اختيار الموضوع، فاخترت الحديث عن أبطال العرب.

ولما نظرت في أمر العرب قديماً وحديثاً، وجدت أن بطل أبطالهم، بل بطل العالم أجمع هو (محمد بن عبد الله ﷺ)، فابتدأت الحديث به، فجاء الفيض بالسيرة العاطرة عن أبرز صفات شخصيته العظمى، ولم أستطع العدول عنه إلى من سبق أو من لحق، فاستمر الحديث فيها يتتابع حتى خرجت من مصر سفيراً لها إلى كثير من أقطار المسلمين، وانقطع ما بيني وبين الإذاعة، ولم أكن قد تناولت إلا بعض نواح لبطل الأبطال.

وقد وجد بعض العلماء أن ما تحدثت به من المدياع في صفات الرسول الكريم جدير بالجمع والنشر، فجمعه وطبعه في

كتاب سُمِّي (بطل الأبطال أو أبرز صفات النبي محمد).

ثم مضت أعوام عُدت بعدها إلى مصر، وعادت هيئة الإذاعة المصرية فتفضلت مرة أخرى بالسماح باستئناف أحاديثي بها، فلم أجد أحب إلى نفسي من أن أرجع إلى أبطال العرب، وأن يكون جامع فضائلهم بل فضائل الإنسانية كلها موضوع الكلام هذه المرة. فكانت العناية بدعائم رسالة محمد وأثارها وانتشارها وما يستطيع تقديمه لعلاج مشكلات العالم على هداها، وفاض الحديث واتسع له الوقت حتى أَرَبَى على ثلاثين محاضرة رأيت أن أجعلها أساساً لهذا الكتاب الذي أرجو أن ينفع الله به في فهم (الرسالة الخالدة) لمحمد بن عبد الله في عصر الظمأ الروحي، والاضطراب السياسي، والمادية القاسية.

وقد يكون من توفيق الله أن يخرج البحث في هذه الرسالة وأثرها في زمنٍ الناس فيه أحوج ما يكونون إلى هدى ينير لهم طرق العيش بسلام بعد أن دمرتهم الحروب والآلام.

فإذا كان هذا الكتاب شعاعاً من قبس هذا الحق ينطلق في دياجي هذا الليل البهيم الذي غمر البشرية، وإذا كان بَسْطُ مبادئ هذه الدعوة يهدي إلى طريقٍ وسطٍ مستقيم بين

هذه المسالك الوعرة المضللة التي تتخبط فيها شعوب البشر وتتصادم وتتطاحن لغير غاية واضحة ولا حجة ظاهرة.. فإني أرجو أن يكون ما بدا في هذا البحث من فضل الله وفيض رسوله مُعيناً على تبسيط مبادئ هذه الدعوة وبيانها بكيفية تُرضي أهل الرأي وتنير طريق العامة.

شهادة
الزمان
والتجربة

وإني على ما أنا فيه من تقصير وتفريط لشاهد بالتجربة والنظر. وقد عشت بين الفقراء والأغنياء، محروم الجاه ومتمتعاً به، وخالطت الخاصة والعامة في المشرق والمغرب، وشاهدت آثار دعوات مختلفة، ونظرت في كتب أقوام كثيرة، فلم أر بناءً أقوى على الدهر، ولا أرحب لجمع البشرية من ذلك البناء الذي بناه محمد ﷺ.

حاولت أن تنال منه العرب والعجم، واشتط به المتفقهون والمؤرخون، والرواة وأهل الرأي، ودعاة الفتنة ودعاة السياسة، وتألب عليه الجاحدون والمكابرون وشوَّهوا ما شاءوا ثلاثة عشر قرناً، فلم يستطيعوا أن يغيروا وعد الله ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر / ٩] فقضي أمرهم جميعاً وبقي أمر الكتاب قائماً، ولا يزال ذلك البناء على مرّ الأعاصير سليماً متيناً رجباً، من نزله كان آمناً.

حق من
السماء أو
من الأرض

هذه الرسالة الخالدة إن كانت من الله، كما نعتقد نحن المسلمين، فيكفي أنها من الله لتمتاز على كل دعوة من غير الله.. وإن كانت من (محمد)، كما يقول المنكرون لنبوته، فنحن على بينة من أمرنا، ندعو إلى سبيلها بالحكمة والموعظة الحسنة. ندعو المنكرين لينظروا فيها لا كدِين، بل كنظرية تاريخية أتت بأفكار وشرائع في السياسة والاجتماع والاقتصاد. فسيجدونها بصرف النظر عن معنى التدين، أسسًا صالحة لنظام عالمي وسط بين المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يتطاحن عليها الناس الآن، وسيجدونها، حتى على أنها من البشر، أصلح الدعوات وأرشدّها وأدناها إلى مبادئ العدل والحرية والمساواة والإخاء، وسيجدون طرائقها كمبادئها وسطًا يلتقي الناس على قبولها بفطرتهم فيصلح بها الحال ويستقيم المجتمع، ويعمّ السلام بين الأمم، وبين الطبقات في الأمم.

فما هي دعائم هذه الرسالة؟

وما هو هداها في الإصلاح والتكافل الاجتماعي؟

وما هي سياستها في العلاقات الدولية؟

وما هي نظرتها لأسباب الاضطراب العالمي؟

وما هي وسائلها في البحث عن سندٍ روحيٍّ للحضارة؟

وما هو النظام العالمي الجديد الذي يوافق روحها؟

وما هو تاريخ انتشارها شرقاً وغرباً قديماً وحديثاً؟

ذلك ما سنتناوله بعون الله تعالى في أبواب هذا الكتاب

وفصوله.

الدَّعَا مَتَانِ ❁

تقوم الرسالة الخالدة على دعامتين، ينهض عليهما بناؤها، وتتفرع منهما فروعها، ويصدر عنهما معتنقها، هما:

الإيمان، والإحسان.

لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة / ٦٢].

وقوله: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة / ١١٢].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء / ١٢٥].

ففي هاته الآيات وأمثالها تحديد وجهة الإسلام، وتلخيص الدعوة المحمدية:
عقائدها وعباداتها وشرائعها.

وفيها سرٌ بساطتها وقوتها ورحابتها وسرعة انتشارها بين أهل الرأي والعامّة
من البشر.

❁ الإيمان بالله الواحد

أصل الأصول - الدين فطري - البحث عن الله - قصة
إله زنجي - التوحيد أعظم أسس الدعوة المحمدية - هو
السبيل للوحدة العالمية

أصل الأصول

الإيمان بالله بارئ الكون وحده لا شريك له، هو أصل
الأصول في الأديان السماوية، فهو أصل الرسالة المحمدية.

هو النبي الذي أفاضه الله من قلب محمد - عليه الصلاة
والسلام - بالهدى وحقائق الخير والسلام.

هو الصدى العميق لذلك الهاتف الذي ناداه من السماء
والأرض: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. أَلَمْ يَكُنْ
أَلَكْرُمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق / ١ - ٥].

﴿يَتَأْتِيَهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ
فَأَهْجُرْ. وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ. وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر / ١ - ٧].

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ
وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ
لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى / ٥٢-٥٣].

خرج (محمد) على أهله وقومه بالدعوة إلى الإيمان بالله
وحده فأنكروها، وأرادوه على العدول عنها وظنوا به الظنون،
فقالوا: ساحر وشاعر ومجنون وكذاب، وساوموه على ترك
دعوته بالمال والملك والجاه، وقاوموه واضطهدوه وأذوه، فما كان
قوله لهم إلا أن قال: « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر
في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه ». فلم
يعدل بذلك الإيمان الذي اطمأنت إليه نفسه وأمره به ربه،
ولا بالدعوة إليه، مُلك الليل والنهار وما فيهما! وكان همه أن
يلتقي الناس على عبادة الخالق القدير الذي تنزهت صفاته عن
الشريك والمثيل.

والناس من أقدم العصور حَيَّارٌ يجدون في أنفسهم
إلهامًا بالفطرة إلى التسليم بقوة قاهرة يستلهمونها ويستمدون
منها العون، ويستقبلون منها الخير والشر، فيدعونها خوفًا وطمعًا،
ويتلقونها بالقرايين والعبادات، ويجدون في الإيمان بهذه القوة

الدين
فطري

التي اختلفوا في تكييفها سنداً وملاذاً من رهبة القوى المادية في الكون، وسلوى وعزاء عما هم فيه من قسوة الحياة وآلامها.

شعور فطري قوي في نفوس البشر يدفعهم إلى عبادة القوة. وليس أبداع من تصوير القرآن لهذا الاتجاه بقوله في قصة اهتداء إبراهيم عليه السلام إلى الله كما وردت في سورة الأنعام:

البحث
عن الله

﴿وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُنْقِمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام / ٧٥-٧٩].

هكذا تدرج عقل إبراهيم في الاهتداء إلى الله من مظاهر القوة والنفع والرهبة والروعة في النجم والقمر والشمس، ولكن لم يُرضِ فطرته السليمة أن يراها ناقصة بأفولها وقيودها وتعددتها وخضوعها لسلطان الظلام، فعدل عنها، والتمس عقله الطريق

إلى قوة مختارة دائمة غير محدودة، هي قوة الله الذي فطر السموات والأرض وقهرها. ثم اتصل بعقله وحي الله وهداه.

وقد عبد الناس قوى كثيرة، إما عبادة أصيلة، وإما لاتخاذ عبادتها زُلفى وتقرباً إلى تلك القوة العظمى القاهرة التي يدركونها بفطرتهم.

عبدوا الأشباح والأرواح والجمادات والحيوانات والنجوم والكواكب والماء والنار والبرق والرعد. وما توهموا أن فيه القوة أو أنه مثل لها أو مظهر من مظاهرها. بل عبد بعض الناس بعضاً ممن تجلت فيه قوة غير طبيعية ثم قتلوا من عبدوا حين تبين لهم قصوره عن القدرة التي ظنوها فيه.

ومن أعجب ما شاهدت من عبادة الإنسان للإنسان، أنني جالست قبل نحو أربعين عاماً إلهاً من آلهة الزنوج في جبال النوبة بأقصى الجنوب من كردفان^(١). فكنا على الأرض نتفياً ظلالاً وارفة لشجرة من تلك الأشجار الاستوائية الهائلة، وجمع من الشعب رجالاً ونساءً عرايا يرقصون ويطربون في حضرة الإله ويسمونهم «الكُجُور». وهذا الكجور سواء أكان هو الإله أم

قصة إله
بشري

(١) كان ذلك سنة ١٩٣١ في جبال النوبة من جنوب كردفان.

رمزه، هو عُرْفًا المعبود الذي يُرْفَع إليه الدعاء وتُقَدَّم له القرابين، وهو القدير على تصريف الأمور الكونية، له كل تقديس، فهم يطعمونه ويهبونه ويتزلفون إليه مقابل أن يأتيهم بالمطر لزرعهم وسائمتهم، وأن يشير عليهم بالوقت المناسب للصيد أو الحرب، أو أن يدفع عنهم البلاء والمرض.

ولم أستطع أن أتبين إن كان في نظرهم إلهاً كاملاً أو كأصنام الجاهلية، يعبدونه زلفى لمن هو أعظم في نظرهم.

جاءت زوجة «الكجور» ونحن نتحدث بوساطة مترجم فجلست بجواري ومدت ساقها فأرتني آثار ضرب بها. فقال المترجم: إن بعض العامة ضربوها، وهي تشكو إليك ظانة أنك الحكومة. فقلت: كيف وهي زوج «الكجور» وهو إلههم المتصف بالقدرة عندهم؟! فقال: إن القداسة لا تشمل الأسرة، وحقوقه شخصية فقط، وأهله مثل جميع الناس.

فقلت لصاحبي: إن هذا الشعب على سذاجته وضلال عقيدته يضرب أعلى الأمثال في الديمقراطية والمساواة.

ومن عجيب أمر القوم، أن للكجور حقوقاً يقابلها واجبات، فإذا امتنع عن أداء الواجب قتلوه.

فمثلاً إذا أُجذبت الأرض وهلك الزرع سألوه المطر، فإن
أبى وتأخر المطر حاولوا استرضاءه بالهدايا والدعاء، فإن مرت
السنة وأجذب ما بعدها ولم يستطيعوا أن يقنعوا كجورهم ليأمر
المطر برحمتهم، فإنهم قد ينتظرونه مواسم أخرى ثم يقتلونه أو
يرجمونه ويقيمون غيره ممن يعرفون فيه بالوراثة والاختبار علم
الأسرار وفعل بعض الخوارق، فيُحلّونه محله.

وأعجب ما في نوادرهم ما رُوي لي أنهم شكّوا أحد الآلهة
مرة إلى الحكومة لامتناعه عن الإتيان بالمطر، ولم يتركوا موظف
الحكومة حتى أمر بحبسه، واستمروا هم ينتظرون أياماً، فإذا
بالكجور يطلب من الحاكم أن يطلق سراحه فيأتيهم بالمطر
بسرعة. وما إن انطلق من الحبس وسار بالشعب نحو الجبل،
حتى هطلت الأمطار غزيرة. فهم لا يشكون في قدرته ولا يظنون
به العجز، وإنما يظنون به القصد السيئ.

ذلك مثلاً من فكر البشر في سذاجته. وفكر البشر حتى
في حضارته أحياناً لا يكون أعلى كثيراً. فقد عبد العجل والقط
والصنم والنار وبعض البشر وغير ذلك.

التوحيد أعظم
أسس الدعوة
المحمدية

وكانت الدعوة المحمدية إلى الوجدانية غريبة لدى العرب وغيرهم رغم ما يظهر الآن من بدايتها واستقامتها. وكانت الحاجة شديدة لداعي التوحيد لِيَسْمُوَ بالعقل الإنساني إلى النظر في الكون والمخلوقات والتوجه إلى خالقها جميعاً لاستمداد العون واستلهاهم الرشد.

وإذا تقصينا سيرة الرسول في مكة، وتأملنا التنزيل في تلك الفترة، رأينا (محمداً) قد وقف قلبه وجهده، ووهب حياته وحياة أنصاره لتمكين هذه الدعامة الأولى وإظهارها. وقد خاصم أعداءه وهادنهم، ونفر ورضي، واستصرخ أهل الأديان الأخرى ليلتقوا معه على كلمة سواء: هي عبادة الله لا شريك له ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران / ٦٤].

ولم يقبل في دعوته إلى الوجدانية من المشركين وعبداء الأوثان هوادة أو مساومة رغم أنه كان يجادل الجميع، ولكنه كان كثير التسامح مع أهل الكتاب. يقول القرآن: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ

الْكُتُبِ إِلَّا بِأَلْفِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿[العنكبوت / ٤٦]، ويقول
في النصارى ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرِي﴾ [المائدة / ٨٢]، ويقول قولاً عاماً
في جدال الجميع ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ
الْحَسَنَةِ وَجِدْلُهُمْ بِأَلْفِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل / ١٢٥].

وقد بلغ تسامح الدعوة المحمدية مع الملل الكتابية حداً
لا يعرفه أهل هذه الملل حتى في هذا العصر الذي انتشر
فيه اللادينيون، ولا يقبل مثله كثيرون من المتدينين في الملل
الأخرى، فلا تتسع صدورهم له ولا لرحمة الله لغيرهم.

التسامح هو
السبيل إلى
الوحدة العالمية

انظر إلى هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ
هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّةِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة / ٦٢].

فالهدف الأسمى للرسالة المحمدية هو الإيمان بالله
لا شريك له. وفي سبيل التوحيد تسهل كل العقبات،
وتساوى القبائل والشعوب جميعها، حتى الأديان لقوله
تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ

وَأَسْمِعِلْ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى
وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ
لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿البقرة / ١٣٦﴾.

فرسول الله في دعوته إلى الإيمان بالله الواحد الخالق لم يدع
أنه مبتدع، بل قال إنه مكمل للشرائع السابقة ومعيد للحنيفية
الفطرية التي هي دين إبراهيم بل دين نوح وأدم، وإنه لا تبديل
لذلك الدين القيم الذي يستند إلى وحدة الله، ويترتب عليه
وحدة خلقه ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ
أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ
إِلَيْهِ﴾ [الشورى / ١٣]. ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون / ٥١-٥٢]. ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى
مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ
اللَّهِ عَامِنَّا بِاللَّهِ وَآشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران / ٥٢].

دين واحد
لأمة واحدة

ولم يختلف الرسول ﷺ مع أهل الكتاب إلا حيث كان
تنزيه الخالق موضع شك. ففي سبيل التوحيد والتنزيه جادل

وخاصم ولم يصالح أو يهادن أحداً على حساب دعوته هذه،
 لأنها أساس رسالته وغايتها، بل غاية الوجود ﴿وَمَا خَلَقْتُ
 الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ
 يُطْعَمُونِ﴾ [الذاريات / ٥٦-٥٧]، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ
 وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ
 بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد / ١-٣].

وهذا التوحيد الذي دعا إليه فضلاً عن سموه بالعقل
 البشري هو أصل الخير وأساس السعادة والخلق السليم كما
 يظهر من الفصل التالي.

آثار التوحيد

التوحيد روح الدين - هو أساس الانتساب والاعتبار
الشخصي - الإشراف سبب لإهدار شخصية المشرك -
الشرك طارئ على الفطرة - الشرك باعث الظلم
والاستبداد - التلازم بين التوحيد وصلاح الفكر
والحياة - وكر الخرافات والأباطيل - عقائد التوحيد
وأثارها في تزكية النفس - أثارها في حرية الفكر وسيادة
العقل وسمو الحضارة - لا احتجاج بالواقع السيئ.

بيناً أن الإيمان بالله وحده لا شريك له هو الهدف الأسمى
للدعوة المحمدية. والله سبحانه قد سَمَّى المؤمن به وحده مسلماً
﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ط
قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامِنًا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران / ٥٢].

وإذا تصفحنا أي الذكر الحكيم نجد الدعوة إلى التوحيد
والتنزيه لا تخلو منها سورة، بل تكاد لا تخلو منها صفحة من
الكتاب تصريحاً أو تلميحاً.

وحكمة ذلك واضحة؛ إذ الإيمان بالله وحده يتفرع منه كل ما في الدعوة من صلاح وإصلاح، وهو الرباط الذي يجمع شتاتها ويوثق بين أجزائها، بل هو فيها بمقام الروح للجسد، يتحلل ويبلى ويندثر بفراقها. والشرائع من غير إيمان كالقوانين الوضعية: تسقط بسقوط القائمين عليها ويذهب أثرها بذهاب الظروف التي أحدثتها.

التوحيد روح
الدين

لذلك كان الإيمان بالله لا شريك له هو الحد الفاصل بين الناس، وليست العناصر والأجناس حدوداً بينهم بل ليس الانتساب إلى الدين الإسلامي نفسه وعدم الانتساب إليه حداً، إذ بينما هذا الدين يرعى كنيسة المسيحيين وبيعة اليهود إذا دخلت في ذمته، ويأمر المسلمين بالقتال لاحتزام حرية عقائد المعاهدين من أهل الملل الكتابية ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج / ٤٠]، وبينما هو يكتفي ممن يؤمن بالله من أهل الكتاب بضريبة قليلة على القادرين من الذكور مقابل حماية نفوسهم وأموالهم وأعراضهم ودينهم وعرفهم، ضريبة هي رمز لعهدهم، يستعين بها المجاهدون على الرباط في الثغور، ويأمن المعاهدون بها على ديارهم وعقيدتهم. وقد ردها

هو أساس
الانتساب
والاعتبار
الشخصي

الشرك سبب
لإهدار كرامة
المشرك
وشخصيته

خالد بن الوليد رضي الله عنه، إلى نصارى حمص حين أجلاه الروم عنها، وقال ما معناه: إنما أخذناها لحمايتكم وقد عجزنا عنها^(١). نقول بينما الإسلام يعامل المؤمنين بالله على هذا الأساس، إذا به يفرق بينهم وبين المشركين ويعامل هؤلاء معاملة أخرى فيها عدم اعتراف بكرامتهم، ولو أنه يفي لهم أيضاً بما لهم من عهود ومواثيق مع المسلمين بشرط ألا تصادم حقاً أو تدفع إلى ظلم، كما حصل في حلف النبي لخزاعة وصلاح الحديبية كما سيأتي. إذ العداوة معهم دائمة لوجه الله وصلاح البشرية، حتى يكون الدين كله لله.

ومن ناحية أخرى نجد الإسلام يُدخِل الكتابية في الأسرة المحمدية فيبيح مصاهرة أهل الكتاب ويجعلهم خُؤولة للمسلمين، وهو لا يقبل مثل هذا النسب مع المشركين، ويأبى أن يعترف لهم بهذه الميزة ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُوْمِنَ^١ وَلَآئِمَةً مُّؤْمِنَةً خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُوْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة / ٢٢١]. بل يصل الأمر أن يجعلهم نجاسة

(١) وعلى رواية أخرى أن الذي ردها هو أمير الجيش أبو عبيدة عامر بن الجراح.

﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة / ٢٨].

كل هذه الشدة مع الوثنيين والمشركين ليست تعصباً أعمى ولا إفراطاً في العصبية الإسلامية، فلو كانت كذلك لساوت الدعوة في المعاملة بين أهل الأديان الأخرى جميعاً، وقد لقي الإسلام من العنت والأذى من أهل الكتاب كثيراً، ولكن ذلك لم يخرج الدعوة عن التمييز بينهم وبين المشركين. ذلك كله لأن عقيدة التوحيد هي غاية الحياة الإنسانية وسبيل الإصلاح المنشود؛ فمتى آمن العبد بأنه أثر للبارئ الأعظم، كان بينه وبين خالقه ما بين الصانع والمصنوع من الصلة، وكان بينه وبين المصنوعات جميعاً ما بين الآثار المتعددة للمنشئ الواحد، وكان هذا الارتباط المعترف به اعتراف إيمان بين الخلق والخالق رباطاً لا ينفصم، يستمر به العمران والإصلاح والخير على وتيرة واحدة مصدرها الإذعان لإرادة واحدة، وكان بذلك وجودنا جميعاً في هذا الكون متصل المبدأ متحد الغاية. ومتى امتلأت النفوس بذلك سهل كل شيء.

أخوة عامة
في الله

فلو تصورنا الناس على إيمان كامل كهذا، يؤدون ما عليهم وفق هذا الإيمان، لأمكن أن نتصور أقدر المخلوقات على الفساد،

وهو الإنسان، أصلحها، إذ هو حينئذ لا يحتاج لوازع ولا هادٍ إلا من إيمانه، بل لأمكننا أن نتصور هذا العالم ولا حكم ولا حكومة فيه إلا لوجدان المؤمنين.

لذلك كان الإيمان بالله لا شريك له الشغل الشاغل لصاحب الدعوة، وكان في الحقيقة سبب نجاحها واستقامتها.

فإزالة الشرك يتبعها هدم مفاصده، وإقامة التوحيد يتبعها قيام فضائله.

تقرر الدعوة المحمدية أن الناس كانوا على الفطرة يعبدون الله وحده، ثم ضلوا، فإذا عادوا لها استقاموا.

الشرك طارى
على الفطرة

وإذا نظرنا في تاريخ أديان البشر وجدنا الشرك في الغالب نتيجة لبِدَع أحدثها الناس، فعدّدوا الآلهة ونوّعوها، وأقام المبتدعون والمفسدون أنفسهم قوّامًا على الآلهة وسدنة وحُرّاسًا، بل وكلاء ونوابًا، واتخذوا سلطان هذه الآلهة سلطانًا لهم، ثم تأمر ذوو الأغراض فتساندوا على تضليل العامة، وانتهوا بوضعهم في أسر مجموعة من الخرافات والسخافات، وكأن الكهنة وأضرابهم من القوّام والوكلاء والمرشدين خزنة الأسرار الدينية هم في الواقع الآلهة المتصرفون في المجموعات البشرية المأسورة.

وكر الخرافات
والأباطيل

فأول أثر يبدو للشرك في تاريخ البشر، هو أن العبودية للصنم انقلبت إلى عبودية للشخص أو الأشخاص القائمين على هذا الصنم، وقامت عهود من الاستبداد دامت في مصر والعراق آلاف السنين، ولم يخل منها ركن من أركان العالم من فجر التاريخ إلى اليوم. ومهما تغيرت الأوضاع والأشكال، فإن الشرك والاستبداد حليفان متلازمان.

باعث الظلم
والاستبداد

أما التوحيد فيتبعه الإنصاف ويلزمه كالظل للشواخص، لأن الإله الذي دعا إليه الأنبياء ومحمد ﷺ منزه عن الهوى والغرض، لا يريد من خلقه رزقاً ولا طعاماً، وليس له وكلاء ولا نواب ولا وسطاء. يقول ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر / ٦٠] وهو أقرب إليهم من حبل الوريد، هو الرحمن الرحيم، هو الغني القدير، هو البارئ المصور، هو العفو الغفور، هو المعطي المانع، هو الحكم العدل، هو المنتقم الجبار، هو العليم الخبير، هو المسيطر فوق عباده، العزيز الحكيم.

كل هذه الصفات وما معها من تنزيه عن الشبيه والمثل جعل الألوهية في وضع يعلو بها عن الاستغلال السيئ، وجعل الخلق تحتها متساوين في حكمها، أكرمهم عند الله أتقاهم، وأقربهم أبرهم بالعباد.

وكما أن الظلم والأثرة ملازمان للشرك كان الإنصاف والعدل والمساواة ملازمة للتوحيد.

لذلك كانت غاية الدعوة المحمدية الإيمان بالله وحده، وهو عندها فوق كل شيء. ويقول القرآن الكريم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء / ٤٨].

آثار التوحيد
في تزكية
النفس

والإيمان الخالص من الشوائب، الصادر من القلب، تتبعه حتمًا جميع الفضائل المتعارف عليها؛ لأن المؤمن من يجد حسابه مع الله مباشرة فيرفعه إليه وحده؛ فهو لا يرتكب الكبيرة ولا الصغيرة عن عمد وقصد. ومتى وجد هذا الإنسان فقد وجد الإنسان الكامل.

فلو أن مجتمعنا تكون من مثل هذا الإنسان لقام على الرحمة والمحبة؛ إذ من وصايا الإسلام «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، «الراحمون يرحمهم الرحمن»، «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» فهو إذن المجتمع السعيد.

وليس غريبًا ما دعا إليه بعض الخوارج في عهد الفتنة بين (علي) و(معاوية) من إلغاء الحكومة البشرية تمامًا، إذ قالوا «لا

حكم إلا لله». ولو تحققت الحكومة الإلهية لكان ملكها الوجدان،
وقانونها الإنصاف، وزاجرها العرف العام.

التوحيد سر
حكومة
الوجدان

لكن الدعوة المحمدية لما فيها من صدق نظر ومطابقة
لطبائع الناس عوّلت في الإصلاح على الإيمان والشرع الذي
ينظم ما قصدت إليه من إحسان، وجعلت الوازع من يختاره
المؤمنون لينفذ ما شرعت، فضمنت بذلك استقامة الأمور.
وهيئات أن تصل البشرية إلى حكومة الوجدان التي توحىها
عقيدة التوحيد!

قلنا إن الإيمان بالله يتبعه حتمًا تغلب جميع الفضائل في
نفس المؤمن. فهو لا يعيش لنفسه بل لإخوانه من مخلوقات الله
جميعًا، ويكاد يحى في النفس المؤمنة الشر بجميع أنواعه، وأول
ما ينمو فيها هو الإيثار والفداء والتضحية في سبيل الخير العام.

فالمؤمن لا يكون ظالمًا، لأنه يعارض بالظلم صفة من صفات
الله وهي العدل، ولا يكون غليظًا قاسيًا، وسيده هو الرحمن
الرحيم. ولا يكون كاذبًا ولا مخادعًا ولا منافقًا؛ لأن حسابه
مع الله العليم الخبير الذي ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي
الصُّدُورُ﴾ [غافر / ١٩]، ولا يكون ذليلاً أو جباناً، لأنه يعلم
أن ذلك لا يفيد ما دام الأمر بيد الله.

وهكذا إذا استرسلنا في تعداد النقائص نجد أنه حيل بينها وبين الموحد بحجاب الإيمان، ونجد الصفات السامية جميعاً محببة إلى النفس المؤمنة المطمئنة التي دخلت في عباد الله ودخلت في رحمته حين لبث نداءه: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي . وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر / ٢٧-٣٠].

هذه النفس المطمئنة بالإيمان تحيا في سعادة لا يتذوقها إلا الموحدون ويمكن لأمثالنا ممن يعيش على هامش الإيمان ويسأل الله الهدى، أن يتصور النفس المؤمنة تكون في الجنة فعلاً في هذه الدنيا؛ لأن السعادة الروحية التي تتذوقها هي أطيب ما في الجنة من متاع.

التلازم بين
التوحيد وصالح
الفكر والحياة

هذا الإيمان بالله وحده الذي قلنا إن الفضائل تتبعه حتماً، وإنه يطهر النفوس من الشر والرذيلة، يسمو كذلك بالعقل البشري؛ فالوثنية والشرك يشغلان الذهن بالمحسوسات ويحصرانه في نطاق الأباطيل الصادرة عن دعوات السحرة والكهنة وطوائف القائمين على الآلهة المجسمة، أو على الآلهة المقسمة الموزعة السلطات والمتنافسة عليها، فتطبع في أذهان الناس صوراً مما هم فيه أو ما يهبطون إليه من الخرافات، بينما

يفعل التوحيد والتنزيه عكس ذلك، فهو يدعو للتفكير والنظر وتحكيم العقل؛ فالإله الذي دعا إليه الإسلام يجمع السلطان والفضائل، وهو مع الناس أينما كانوا، لا وسيط له، ولا ينالونه بحس، فلا بد لهم من التفكير فيه والاستدلال عليه بأثاره، مما يدعو إلى تعلق العقل بمصنوعاته.

وقد كانت عناية الدعوة المحمدية في هذا بادية في أقوال الرسول ﷺ وأعماله، كما رَدَّدَت آيات الكتاب الكريم الدعوة إلى النظر والتعقل، فاستهزأت بالمقلدين والمكابرين والجاحدين والجامدين بكلمات لاذعة قارصة، وامتدحت المفكرين والباحثين والذين يحسنون استخدام ملكاتهم في النظر في الكون واستنباط الحقائق من مقدماتها وأثارها.

ومن العجيب أن الشرك الذي صرعه الدعوة المحمدية في جزيرة العرب في أيام الرسول وفي غيرها من بعده، وترتب على هزيمته ظهور الفضائل التي أشرنا إليها ملازمة للإيمان بالله لا شريك له، لم يكن سهلاً هيناً كما يُظَنُّ، بل كان شراً مستطيراً وبلاءً مستأصلاً.

يقول الله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ . أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِ اللَّهِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ [ص / ٤-٧] .

أثر التوحيد
في تحرير
العقل وسمو
الحضارة

فالدعوة المحمدية بانتصارها على الشرك قد أزالَت العقبة الأولى في سبيل السمو بالنفس البشرية كما بينا، ورفعت الحجر عن عقول تحجرت، فانطلقت للنظر والتبصر، وبدت آثار ذلك مسرعة، حتى كادت الدعوة المحمدية أن تكون في ذاتها معجزة، فقد اتفق العلماء والباحثون على أن نجاح محمد ﷺ في دعوته مقطوع النظر؛ فلا يُعرف في تاريخ البشر نجاح كالذي لقيه.

ومن المتفق عليه أيضاً أن دعوته كانت غريبة مُنكرة في نظر القوم مُبتدعة غير مُمهَّدة لها، وقد لقيت من العناد والاستهزاء والاستنكار ما تفيض به حوادث السنوات العشرين التي قضاها ﷺ وهو يجهر بها بعد أن أخفاها في بادئ أمرها.

وكما كانت الدعوة إلى التوحيد غريبة فإن أثرها في النفوس وما ترتب عليه في تكييف الحياة وتغيير وجه الأرض كان أكثر غرابة.

فالأعراب الذين وأدوا بناتهم واعتزوا بسفك الدماء
والنهب، صاروا الخُشْع الرُّكْع الذين يبتغون فضلاً من الله
ورضواناً.

والأسرة التي كان يرث فيها الرجل زوجات أبيه، صارت
الأسرة المطهرة. والقبيلة التي كانت لا تعرف حقاً إلا لعصبيتها،
ولا ترعى ذمة إلا لمن هو منها، صار فيها من يرد إلى نصارى
(حمص) أموالهم، لأنه عجز عن رعاية ذمتهم.

والسادة الذين استعبدوا الناس صاروا يخشون الله ولا
يخشون في الحق لومة لائم.

ومن الجُفَاء القُسَاة صار الخليفة الذي ترده امرأة في
مَجْمَع الخَلْق فيقول «أصاب امرأة وأخطأ عمر!» ويكتب إلى
أكبر وُلاته الفاتحين متهكماً «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم
أمهاتهم أحراراً!» لأن ابن ذلك الوالي أساء إلى مسيحي من قوم
مغلوبين. وكان ذلك في مصر.

فإذا قال قائل: وما بال فساد الحال ضارباً أطنابه على الدنيا
اليوم، والمؤمنون ملء الأرض؟

لا احتجاج
بالواقع
السيئ

قلنا ما قاله الله ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف / ١٠٦] وما قاله الرسول «والله لا يؤمن! والله لا يؤمن! والله لا يؤمن! قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه».

فهل آمن أحد من أهل الكتاب في الغرب أو الشرق بوائق جاره؟ وهل أحب مسلم لأخيه ما يحب لنفسه؟

ولا تزال الإنسانية في هذا البلاء، وهذه الحروب، وهذه
الفرقة بين الأمم، وبين الطبقات في الأمم حتى تملأ مبادئ عقيدة
التوحيد قلوب الناس.

الإحسان

رديف الإيمان - تنظيم دقيق لقواعد الحياة وأساليبها - أثر
سريع لتطبيق نظم الإحسان - الرحمة والإخاء أساس
الإحسان - دفاع لا بد منه عن الأتراك العثمانيين - أثرهم
في زوال عهد الإقطاع من المملداف والبولونيين - موقف
عظيم لشيخ الإسلام في عهد السلطان سليم - رحمة
الحيوان - وقائع وحكايات عن الرحمة

الآن تنتقل إلى الدعامة الثانية للإسلام وهي الإحسان.
والإحسان في نظري هو العمل الصالح، وقد جاء في الآيات
رديف الإيمان. بل يكاد يلزمه في كل آية.

رديف
الإيمان

والشريعة الإسلامية كلها ما هي إلا بيان بالأمر أو النهي
أو الإباحة للأمور التي بها يكون العمل صالحاً. وهي فريدة بين
الأديان في وضع الأصول والفروع لهذا الإنسان. ففي جميع
علاقات الإنسان بالله ومخلوقات الله رسمت الشريعة بشيء من
التفصيل قواعد الحياة وأساليبها للمسلم. وهذه القواعد منها ما
يختص بالعلاقة بين العبد وربّه من صلاة وصوم وحج مما يتبع
الإيمان وما يقتضيه من عبادات.

تنظيم دقيق
لقواعد الحياة
وأساليبها

وكل ما نحتاج أن نشير إليه منها في مثل هذه الأحاديث هو أن هذه العبادات مع تركيتها للنفس وتطهيرها للبدن، بما يعود أثره على المسلم في شخصه، هي كذلك مجموعة نظم تعين على حسن العلاقات بين الفرد والجماعة، وتيسر بما فيها من تدريب وتهذيب سبيل التكافل الذي لا بد منه للجماعة الصالحة، بل تخرض في كل لحظة على التعاون البشري الذي هو أساس العمران.

وليس أدل على ذلك من الأثر الذي أحدثته هذه العبادات في نفوس قوم من الأعراب وأضرابهم من الأمم المتبدية هم أبعد الناس عن الألفة والتعاون، وأدناهم للأثانية والشر.

ففي بضع سنين أصبح الجفاة النافرون، وقد عبدوا الله على الكيفية التي سنّها صاحب الدعوة، أهل نظام وتقوى، يركعون ويسجدون لله ويأتمون برجل منهم، ويؤدّون ذلك باطّراد في أوقات محددة، فتعودوا النظام والطاعة والتكافل، وأصبحوا إخواناً يسعى بدمتهم أدناهم.

أثر سريع لتطبيق
نظم
الإحسان

وقد دهش فعلاً أولاد عموماتهم الذين استمروا على الشرك حين التقوا بهم في «بدر» فرأوهم لأول مرة في كتائب

مرصوصة لا عهد للعرب بها. لا يتنادون بعصبية مع أنهم من شتات العرب، بل شتات الأعراب والعبيد والأحرار والبيض والسود، رابطتهم في الله وأخوتهم في الإنسانية.

فالعبادات على الكيفيات المختارة في الإسلام لها بلا شك، غير الرابطة التي تقويها بين المخلوق والخالق، آثار عدة في نفس الإنسان وحياته وعلاقته بالناس؛ ولذلك كله كانت عناية صاحب الدعوة ﷺ بها عظيمة.

وفقهاء المسلمين حين علموا أن الإسلام بني على خمسة أركان، للعبادات ثلاثة منها، قد أدركوا عظم هذه الأركان الثلاثة: الصلاة والصوم والحج في بناء الدين. وقد أفاضوا في فضل العبادات المختلفة، بل في فضل كل صلاة وركعة، مما لا حاجة معه لجديد، وما يعرفه كل مسلم إن لم يكن تفصيلاً فإجمالاً، ولكن أكثر المسلمين، مع شديد الأسف، لا يعرفون عن دينهم أكثر من ذلك. فلهذا أظن أن العناية في هذه الفصول بالنواحي الأخرى للإحسان والعمل الصالح أجدر وأنفع.

كان الرجل يأتي من أقصى البادية فيجلس إلى رسول الله ﷺ يتلقى دعوته، فيقوم من بين يديه وهو أعلم بها ممن درجوا اليوم

في أحضان الإسلام، ونشأوا في بيوت الدين، وليس ذلك لميزات الرسول ﷺ، وبركته وتأثير شخصيته فحسب، ولا لأن هؤلاء الأعراب كانوا يختلفون عن أبنائهم عرب اليوم، وإنما لأن الدعوة كانت بسيطة مركزة في مبادئ عامة مفهومة للكافة، سهلة، تلقى إليهم ليعملوا بها وليسيروا على نهجها وينسجوا على منوالها، لا ليتحدثوا عنها ثم يشتغلوا بالقشور إذ ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [الحشر / ١٩]، ورضوا بالظاهر ففقدوا اللب والجوهر.

وعبارة القرآن في هذا المعنى تدل على سهولة تلقي الدعوة ونشرها: يقول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة / ١٢٢].

فالدعوة بسيطة، أساسها الإيمان والإحسان. وهذا الإحسان هو العمل الصالح كما قلنا. وهذا العمل الصالح هو مبادئ عامة وعبادات تُلقن كفياتها في لحظات.

أما المبادئ فأصلها جميعاً في الرحمة والإخاء. والرحمة صفة الله وقد كان المسلمون في أول عهد الدعوة يسمون الله (الرحمن) حتى قال العامة، إن محمداً يعبد إلهاً اسمه الرحمن.

الرحمة والإخاء
أساس
الإحسان

والمسلمون يستفتحون كل عمل وحركة باسم الرحمن الرحيم، ويحيي بعضهم بعضاً بالسلام والرحمة فيقولون «السلام عليكم ورحمة الله».

وآيات الكتاب شاهدة على أنها أحب الصفات إلى صاحب الدعوة ﴿تُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح / ٢٩].

﴿وَخَفِضَ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر / ٨٨-٨٩].

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء / ٨٢].

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران / ١٥٩].

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة / ١٢٨].

والأحاديث النبوية في معنى الرحمة مستفيضة.

«الراحمون يرحمهم الرحمن»، «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

أساس
ال عمران

هذه الرحمة التي هي أصل من أصول التشريع في الدعوة
المحمدية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء / ١٠٧]
هي أساس عمران. وما نُزِعَتْ من قلب إنسان إلا صار حرباً، ولا
من قوم إلا كانوا وباءً على الأرض. والتاريخ يحدثنا عن طغيان
أقوام نُزِعَتْ الرحمة من صدورهم، فتركوا أثراً فظيعة من الخراب
استمرت بعدهم قروناً.

فمثلاً موجات المغول مع (جنكيز خان) ومن بعده لا تزال
رغم مرور سبعة قرون بادية أثارها للعيان في أواسط آسيا وغربها،
وقد شهدتها بنفسها في الأفغان وإيران والعراق، وستبقى أجيالاً
كثيرة.

وجاء من بعدهم أقوام مثلهم من المسلمين ومن الأعراب
المسلمين نُزِعَتْ الرحمة من صدورهم فعاثوا في الأرض الفساد،
ولا تزال آثار الخراب الذي أحدثه بعض هؤلاء القساة من
الأعراب مشهودة في شمال إفريقيا، وقد شهدتها كذلك بنفسها
بعد مرور مئات من السنين.

فالرحمة أساس عمران، جاء بها موسى وعيسى ومحمد.
بل هي رسالة أنبياء الله والمصلحين جميعاً. ولم يعظم شأن دولة
من الدول إلا والرحمة صفة من صفات القائمين عليها.

وقد يظن بعض الناس بما يتناقلون من أحاديث أو فكاهات
عن بعض العهود الأخيرة للدولة العثمانية أنها كانت دولة لم
تكن صفة الرحمة من مميزاتة. وهو خطأ شائع لا يقف أمام
البحث والتدقيق. فالعثمانيون في أيام عزهم ورثوا الرحمة التي
نزعها الله من قلوب العرب المتأخرين، فورثوا الدولة، وسادوهم
كما سادوا الأوربيين.

دفاع لا بد
منه عن
رحمة الأتراك
العثمانيين

وقد سمعت بنفسي حديث هذه الرحمة في (بِسرَابيا)
من رومانيا على نهر (الدينِستر)، وقيل لي إن أمثلة الفلاحين في
هذه الأطراف النائية للملك العثماني لا تزال تعبر عن رحمة
التركي وعدله. ومنها ما يشير إلى أن العدل يُنزع مع الأتراك
من الأرض. وقد لفت نظري في بولونيا ورومانيا وفي بلاد البلقان
في رحلاتي المتعددة أمثلة وأساطير لا تزال تشير إلى ما استقر
في نفوس هذه الأمم المسيحية من احترام التركي المسلم كرحيم
عادل.

أمثال شعبية
تشهد لهم

وفي سنة ١٩١٧ كنتُ في فينا فرُوي لي أن البولونيين
مستبشرون بوصول العساكر العثمانية إلى جاليسيا مددًا
للمساويين وقتئذ، فسألت عن السبب، فقل لي إن عندهم
نبوءة يعتقدونها عن بعض قديسيهم بأن علامة عزهم وظهور

دولتهم مرة أخرى هي أن تعود العساكر الإسلامية إلى الظهور
شمال الدانوب.

ومن العجيب أن هذه العساكر ولو أنها جاءت مدداً
لغاصبي بولندا ومقتسميها فإنه لم يمض سنة على عبورها
(الدانوب) حتى استقلت بولندا حقيقة مرة أخرى وعادت دولة
موحدة.

هذه الأسطورة وغيرها من الأمثال في لغات الأمم البلقانية
جعلتني أتوسع في قراءة التاريخ الإسلامي في البلقان، وقد
خرجت من قراءتي ومشاهداتي بأن العدل والرحمة الإسلامية
هما اللذان مكنا للعثمانيين في أوروبا.

وبالعدل والرحمة خرجت هذه الأمم من غيوبتها
وهمجيتها وقسوتها، وعرفت المساواة والإنصاف. ويكفي أن
تعلم أن استرقاق الطوائف بأشنع صورة كان نظاماً دولياً متعاهداً
عليه في أوروبا الوسطى والجنوبية إلى أن قضى عليه العثمانيون.

وكانت هناك عهود دولية بين المُلداف والبولونيين والمجر
لتسليم كل فلاح يرحل من مزرعة سيّده من (البويار) إلى أحد هذه
الأوطان، وكانت المزارع تباع بما عليها من الحيوانات والفلاحين.

أثرهم في زوال
عهد الإقطاع من
أرض المُلداف
والبولونيين

جاء العثمانيون إلى أوروبا يحملون بين صدورهم عاطفة الرحمة كما أرادها صاحب الدعوة ﷺ، ولم يكن الأتراك أكثر عدة ولا عددًا من أئمة من الأمم التي سادوها، فوصلوا على رؤوسهم جميعًا إلى فينا، تمهد لهم الرحمة صعاب الجبال والبحار والوهاد، كما مهدت للعرب قبلهم إفريقية وآسيا.

وكان للأتراك ملك شديد، هو السلطان سليم، عُرف بالقسوة وذبح كثيرًا من آل بيته، ويلقبه الأتراك أنفسهم بسليم القاسي. فخطر له أن يوحد دين الدولة ولغتها فأبى عليه شيخ الإسلام، فامتنع حرمة لوصايا الإسلام باحترام حقوق المسيحيين والرحمة بهم. وذلك من أثر الرحمة التي أودعها الله قلب صاحب الدعوة وأتباعه، والتي هي ركن الإسلام المتين وصفة الله التي إذا نُزِعَتْ من الصدور دالت الدولة، وعم الخراب حتى يستخلف الله أهل الرحمة.

موقف عظيم
لشيخ الإسلام
في عهد
السلطان سليم

انظروا إلى العالم اليوم، وقد نُزِعَتْ الرحمة من الصدور؛ ألم ينقلب الإنسان شرًا من الوحش الضاري؟ ألم يسبق المتحضرون في القسوة جنكيز خان؟ أليست الغارات الجوية على المدنيين أسوأ ما بلغه الناس من التوحش؟ ثم أليست هذه مقدمات الخراب العام؟

رحمة
الحيوان

هذه الرحمة التي أرسل الله محمدًا من أجلها، ليست خاصة بالإنسان. وليعلم القارئ مكانتها من الإسلام، نقص بعض أحكام الشريعة في الرفق بالحيوان؛ ليتبين مدى عناية صاحب الدعوة ﷺ، ببث الرحمة في دعوته.

قال ﷺ: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب ثم خرج، وإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش. فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني. فنزل البئر فملأ خُفَّهُ ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقي، فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له فغفر له». فقالوا يا رسول الله «وإن لنا في البهائم لأجرًا؟» فقال: «في كل كبد رطبة أجر».

وقال أيضًا: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض».

وقد جاء الإسلام بالنهي عن كثير مما كان يأتيه العرب. وكان من عادة العربي أن يعذب الحيوان كشق آذان الدواب، وربط الناقة بجوار قبر صاحبها إذا مات لتموت معه، وغير ذلك.

وحرمت الشريعة رمي الطير للتلهي، وعبث الأولاد بالطيور، والتحريش بين الحيوانات كما يفعل الأسبانيون مع الثيران، وبعض الأم بين الديوك والكلاب، ومنعت إثقال الحمل على الدابة، وأوجبت حسن رعايتها وسقايتها، وإلا فللقاضي نزعها من صاحبها.

حكايات
عن الرحمة

وقد كان لهذه التعاليم أثر بالغ في البدو والمتوحشين؛ فقد روي أن عدياً بن حاتم، وقد ملك الإسلام قلبه، كان يفت الخبز للنمل، ويقول: إنهن جارات ولهن حق.

وروي عن الشيخ أبي إسحق الشيرازي أنه كان يمشي في طريق يرافقه بعض أصحابه، فعرض له كلب، فزجره رفيق الأستاذ، فنهاه وقال: أما علمت أن الطريق مشترك بيننا وبينه..!

وفي الحديث «إذا رأيتم ثلاثة على دابة فارجموهم حتى ينزل أحدهم». وكتب الفقه تفيض بأحكام الرفق بالحيوان، مما يشير إلى مقدار ما قصدت إليه الشريعة من الرحمة بمخلوقات الله.

فالرحمة من أسس الدعوة المحمدية وأصولها، بل هي المقصودة من إقامة الدولة. وخير للناس أن يلهوا بغير صلاة

وصوم وحج، وخير لهم أن يعيشوا بغير مساجد وبيع وكنائس إذا
نُزِعَت الرحمة من صدورهم. فالدين والدولة بلا رحمة ينقلبان
إلى خداع وظلم.

فاللهم أنزل الرحمة في الصدور حتى يُصْرَفَ البلاء عن
العالم!

الإخاء

آية هي دستور الإخاء والمساواة - تصوير عجيب لوقع البر
لدى الله - آيات في تهديد ذوي القسوة والبخل - قدامى
العرب وفهم الإخاء والمساواة - إخاء شامل بين المسلمين
وأهل الكتاب - بقايا الإخاء في العالم الإسلامي - ذكرى
أخوة في ألبانيا - الإخاء في العالم الإسلامي

نيسط الحديث في هذا الفصل عن الأساس الثاني
للإحسان، وهو الإخاء الذي صار دعوة عالمية محبة لدى أهل
هذا العصر جميعاً.

كان المجتمع العربي قد قسّمته العصبية القبلية والقسوة
الفردية، وكان المجتمع الإنساني قد سادته كذلك العصبية
والجنسية والفخر بالأنساب حين جهر الرسول بالدعوة إلى
الإخاء صادقاً ببناء الله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا
وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات / ١٣].

آية هي
دستور الإخاء
البشري

وقد نادى بالإخاء قسيماً وقريناً للرحمة، وقرر أن بهما تُقْتَحَمُ
العقبة ويسعد الناس ويدخلون الجنة ﴿فَلَا أَقْنَحَمَ الْعَقَبَةَ. وَمَا
أَدْرَنكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُ رَقَبَةً. أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . بَلِيماً ذَا
مَقْرَبَةٍ . أَوْ مَسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ . ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ
وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ [البلد / ١١-١٧].

وآيات الكتاب الكريم، والأحاديث في الترغيب في الإخاء
والرحمة مستفيضة.

وفي حديث قدسي: إن الله ﷻ يقول يوم القيامة: «يا ابن
آدم مَرَضْتُ فلم تَعُدْنِي! فيقول ابن آدم: يا رب كيف أَعُوذُكَ،
وأنت رب العالمين؟! فيقول الله: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا
مَرِضٌ فلم تَعُدْهُ؟ أَمَا إِنَّكَ لَوِ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ! يا ابن آدم.
استطعمتك فلم تطعمني! فيقول: يا رب كيف أطعمك وأنت
رب العالمين؟! فيقول الله: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا اسْتَطْعَمَكَ
فلم تطعمه؟ أَمَا إِنَّكَ لَوِ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي. يا ابن
آدم استسقيتك فلم تسقني. فيقول: كيف أسقيك وأنت رب
العالمين! فيقول استسقاك عبدي فلان فلم تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوِ
سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي».

تصوير عجيب
لموقع البر
لدى الله

انظر إلى هذا المعنى السامي في هذا الحديث الجليل؛ فإن الله مع عباده في كل لحظة وحالة وإن البر بالناس برٌ بالله. وما هو في حاجة لبرٍّ، ولكنه لا يرضى إلا أن يكون كأنما البر لذاته. ولذلك لا أظن أن منازعاً يستطيع أن ينازعنا في أن الإخاء والرحمة هما الأصل بالنسبة لمبادئ الإحسان في الدعوة المحمدية، كما أنهما الغاية منها، فهي لم تترك سبيلاً من الترغيب والترهيب إلا سلكته لتنطوي النفوس على الإخاء والرحمة، وتنفر القلوب من الأثرة والأنانية.

انظروا إلى هذه الآية فهي حتى في عبارتها تصعق بهولها غلاظ القلوب: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ. وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ. وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا. وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا. كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا. وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا. وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى. يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي. فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ. وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر / ١٧-٢٦].

تهديد شديد

لذوي

القسوة والبخل

قدماء العرب

وفهم الإخاء

والمساواة

كانت الدعوة إلى الإخاء غريبة كالدعوة إلى التوحيد والدعوة إلى البعث، فأنكرها العرب الذين لا يعتزون بغير العصبية، ولا ينزلون للإخاء مع من هم أدنى، كالأرقاء والضعفاء، وكان لا بدَّ

من حملهم عليه لأنه أساسي في نجاح الدعوة. ولكن كيف يتم ذلك وهم المستهزون بجماعة (محمد) من المستضعفين والعبيد وقد تأخوا في الله مع السادة والأشراف إخواناً جميلاً، حتى حُكي عن المتكبرين أنهم قالوا مثل قول قوم نوح ﴿مَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كُونُوا بِكَ بِرَاءً فَلَا خَلْقَ بِكَ أَفَبِعَدُوِّكَ أَتُفَوِّضُ إِلَيْهِ أَمَّا نَحْنُ فَأَنَافِكُ﴾ [هود / ٢٧].

وقد أكد القرآن هذا المبدأ السامي ووسّعه حتى شمل أخوة البشر جميعاً فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةُ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون / ٥١-٥٢].

ولما تمكنت دعوة الإخاء في النفوس من الله بها على المؤمنين كأكبر نعمة فقال: ﴿وَإِذْ كَرَّمْنَا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران / ١٠٣]. ولم تكن الدعوة إلى الإخاء قاصرة على المهاجرين والأنصار، ولكنها كانت عامة ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران / ٦٤]. ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

إخاء شامل
بين
المسلمين
وأهل الكتاب

وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴿الشورى / ١٣﴾. ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة / ١٣٦].

فالدعوة المحمدية قد قامت إذا على رسالة للناس كافة لعبادة الله وحده وليكون الناس أمة واحدة. والأخوة فيها هي أخوة العقيدة، لا تفرق بين الشعوب والقبائل، والأبيض والأسود والأصفر، ولا الغالب والمغلوب، ولا الأراضى والأوطان، بل تدعو إلى أخوة حدودها البشرية، تحرم الاعتداء، وتدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى في حالة النزاع مع المعتدين وردهم عن عدوانهم بالحرب، فإن فكرة الأخوة البشرية تُتخذ أيضاً نبراساً يهتدي به المؤمنون في ظلام الحرب، فهم لا يحاربون للفتح، ولا للسلب ولا للقهر وإذلال الناس، وإنما لحرية العقيدة. ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة / ٢٥٦]، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال / ٦١].

حتى في حالة الحرب مع الوثنيين، يعتبر الإسلام الأخوة أصلاً في النزاع؛ فالمؤمن الذي يعتقد أن الوثنية هي أسوأ ما

يصاب به الإنسان في روحه وعقله ومصيره، إنما يريد للوثني أن
ينجو مما هو فيه، وما هو مُعرَّض له من غضب الله، فإذا قسا عليه
ليرُدَّه عن كفره، فإنما يريد بذلك رحمته وهو معترف بأخوته كما
قيل:

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا، وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

وهذا الوثني الذي يحاربه المؤمن متى كان معتدياً، يستحق
من المؤمن جميع الحقوق بمجرد تسليمه لله، ويصبح مساوياً له
تمام المساواة؛ فهو إذا لا ينازعه لنكران أخوته، أو لعدم الرغبة في
رحمته، بل لتمام هذه الرحمة أو هذه الأخوة.

فنستطيع إذا أن نقول: إن الرحمة والإخاء أصلان من
أصول الدعوة الإسلامية مقصودان لذاتهما ولأثرهما، حتى في
أشد حالات النزاع والخلاف والحرب، وإن الأخوة العامة هي
مقصد أسمى للرسالة المحمدية، لا كما يدعي بعض الأجانب،
ولا كما يظن بعض الحمقى من أن الإسلام دين حرب وقسوة
وقهر.

وعليه فالإحسان أو العمل الصالح، أن نسعى إلى الإخاء
العام وأن تكون الرحمة شعارنا وهدينا في كل زمان ومكان.

الإخاء معجزة
الإسلام

وقد كان للدعوة المحمدية أثرها العظيم في هذا، بل كان أكبر معجزاتها ما أحدثته من أخوة بين طوائف من البشر كانت أشد الأقوام تدابراً وتناكراً وشقاقاً. ولو قلبنا صفحات التاريخ قبل الإسلام، ونظرنا فيها إلى حال الأمم التي دانت بالدعوة المحمدية فيما بعد، ما بين جبال الهملايا وجبال البرانس، في طول الدنيا شرقاً وغرباً، لأدركنا الأثر الهائل الذي أحدثته الدعوة إلى الأخوة والتراحم في نفوس مئات الملايين من البشر على ممر هذه القرون.

بقايا الإخاء
في العالم
الإسلامي

ولا تزال هذه الأخوة التي دعا إليها محمد ﷺ أحسن ما بقي في نفوس مسلمي اليوم، رغم ما هم عليه من بُعدٍ عن روح الإسلام، فهي متجلية فيهم لمن يرحلون في أطراف الأرض الإسلامية كما تجلت لابن بطوطة قبل سبعة قرون، ولمن قبله ومن بعده.

ذكرى إخاء
في ألبانيا

وقد شعرت بها لأول مرة في شبابي في جبال الأرنؤوط بألبانيا؛ فقد دخلت تلك البلاد ولا عهد لي بها ولا معرفة بأحد من أهلها. وكان طريقي إليها من بحر الأدريانيك، فنزلت (بكاترو) وذهبت إلى (ستنجه) عاصمة الجبل الأسود وقتئذٍ، وكان أهل الجبل في حالة حرب مع الدولة العثمانية، وكنت

متنكرًا بصفة مراسل لجريدة إنجليزية، أقصد التطوع مع المدافعين عن (أشقودره) من الترك والألبان، فلمحت في المدينة اسمًا إسلاميًا على دكان، فقدمت نفسي إلى صاحبه، وكأنا كنا على موعد! رغم أن حديثنا كان بالإشارة. وما لبث أن جاء لي بفقيه يعرف قليلاً من العربية، فتفاهمنا، وتولى الرجل بعد ذلك أمري كله حتى وصلت إلى أشقودره، وتنقلت في بلاد الأرثوذكس من الشمال إلى الجنوب، يوصي بعضهم بعضاً بي. ولو كنت بين أهلي ما وجدت منهم حباً أكثر مما أوجدته لي الأخوة الإسلامية في تلك الأيام العصيبة، أيام حرب البلقان. بل إنني لا أزال أذكر أنهم أوجدوا لي في كل بلد من يعرف العربية ومن يلازمي لخدمتي ومعاونتي.

وهذه الروح ذاتها هي التي وجدتتها في شمال إفريقية أثناء الحرب العالمية الأولى. وهي التي لمستها في الهند حينما كان الناس يحفون^(١) بي ويستبشرون، ولما علموا أن مصر صارت دولة مستقلة، وأنني رسولها إلى الأفغان فرحوا كأنما أيام عزهم قد أقبلت!

(١) يحفون: يبالغون في الكرم والعطاء. (هذا الهامش يشير إلى إضافة مراجعي مكتبة الإسكندرية للنص الأصلي للكتاب، وسوف يستعمل الرمز (م) لاحقاً للإشارة إلى ذلك).

هذه الروح التي خلقتها الدعوة المحمدية إلى الأخوة، هي التي شهدتْها كذلك في إيران وأفغان وتركيا والعراق والشام والحجاز وغيرها، وفي كل جولة من جولاتي في بلد لا تزال للإسلام أو بقي فيها مسلمون، وهي التي يخرج بها معتزاً الأفغاني من المشرق أو الفلاتي من أقصى إفريقية الغربية فيطوي آلاف الأميال سيراً إلى مكة، متوكلاً؛ لأنه يمشي من أهل إلى أهل، ومن إخوان إلى إخوان، حتى يَرِدَ المكان الذي جهر فيه محمد بالدعوة إلى هذه الأخوة العامة.

كنت مرة قاصداً من الرياض عاصمة نجد إلى مكة، وكان بينهما سفر خمسة أيام بالسيارة في ذلك الوقت. وفي اليوم الثاني لاح لي رجلان يمشيان، فوجهت السائق ناحيتهما، وسألتهما أصلهما وقصدهما، فلم يفهما لعُجْمَتُهُمَا، إذ أنهما كانا من (قندهار) بالأفغان، وكان موسم الحج مقبلاً، فأدركت أنهما يريدان الحج فشق عليّ أن أتركهما وحملتهما معي إلى مكة. وفي الليالي التي قضيناها بالطريق، رغم جهل بعضنا لغة بعض، كانت روح الأخوة ناطقة بكل حاسة. ولولا هذه الأخوة لما طوى هذان الرجلان الأرض، لا يملكان شيئاً من الدنيا إلا أن الدعوة

المحمدية قد آخت بينهما وبين البلوش والفرس والعرب ممن
تنقلوا في أوطانهم.

نعم إن هذه الأخوة تضعف في أقطار المسلمين بضعف
التدين وقيام النعرات الجنسية. وأعظم من ذلك بسيطرة المادة
على النفوس، فهي تكاد تقضي على الأخوة في البيت والأسرة
الواحدة.

وقد كان أثر الدعوة المحمدية إلى الإخاء والرحمة أعظم
ظهوراً في تاريخ المسلمين من أية دعوة مماثلة في التاريخ البشري.
وإذا اعترض معترض بما بين اليهود من تعاون، فإن هذه حالة
شاذة سببها دوام اضطهاد جماعتهم وتشتتها ووجودها في حالة
أقلية، لأن ما بين اليهود هو عصبية عنصرية جنسية مبعثها الدم
وليس العقيدة التي تدعو إلى الإخاء الإنساني. أما الأخوة التي
دعا إليها محمد ﷺ وأقامها الإسلام في النفوس، فكانت أعز
أيامها أيام العز السابق، وقد حملها العثمانيون إلى شرق أوروبا،
كما حملها العرب من قبل إلى غرب أوروبا ومجاهل إفريقيا
وآسيا، فكان الناس تحت رايتهم سواسية كأسنان المشط، لا
فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى والعافية، ولا سلطان لمسلم
على غير مسلم إلا بما تقتضيه حدود الله.

إخاء ليس
له نظير

وقد كان أهل الملل الأخرى في الدول الإسلامية أهل ذمة، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، فلهم ما يقتضيه العدل والرحمة، وعليهم ما يقتضيه الإخاء.

والآن، وهذا العالم المضطرب، يأكل قويُّه ضعيفه، والناس في أنكر صور القسوة يتقاذفون بالهول ليجنوا مغنم وأسلاباً لا شك أنهم في أشد الحاجة إلى التذكير بدعوة الإخاء والرحمة، ولظهور هذه الدعوة قوية عزيزة، كما كانت. والله الأمر من قبل ومن بعد.

(٢)

في الإصلاح الاجتماعي

❁ التطهير الخلقي للفرد

نموذج الإنسان الكامل - أثر القدوة العملية - أثر العقيدة في توجيه الخلق للخير العام - عبد الملك بن مروان وأبو حازم - التاجر الناصح القانع - نظرة عمرية لحقيقة الصلاح

كانت الدعوة الإسلامية ثورة اجتماعية مهما قلّنا عن شبيه لها في الشرق والغرب، في القديم والحديث، فلن نجد لها مثيلاً.

وأعظم آثار هذه الثورة هو الانقلاب الخلقي والنفساني الذي أحدثه محمد ﷺ بعمله ومثله وشخصه، وأحدثه بمبادئه، فكان نتيجة ملازمة ومباشرة لدعوته. وهو أساس مراتب الإصلاح الاجتماعي؛ لأن صلاح الفرد أساس صلاح الجماعة.

يقول تعالى في وصف محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم / ٤] ويقول محمد ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». ويقول: «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

نموذج
الإنسان
الكامل

وحقاً تمثلت الأخلاق الفاضلة في شخصه الكريم؛ فالصدق والبر ومعرفة الواجب وأداؤه والحلم والحياء والصبر والشجاعة والعزة والتواضع والعفة والوفاء كل أولئك كان بعض صفاته البارزة التي قربته إلى القلوب، فتعلق الناس به، وتركوا في حبه جاهليتهم وآباءهم وأبناءهم.

وقد أدرك العلماء من غير المسلمين هذه الحقيقة في شخص محمد ﷺ، ولكنهم لم يوفقوا للإيمان به رسولاً من الله تعالى، ولعل ذلك أثر من آثار البيئة فيهم.

وها هي ذي القرون تتابع، وأخلاق محمد ﷺ من الوضوح والقوة بحيث لا يستطيع أن ينكرها عليه جاحد برسالته. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام / ٣٣].

أثر القدوة
العملية

كان لمثله الشخصي أكبر الأثر في الانقلاب الروحي والخلقي الذي تم في أيامه وبعد وفاته. وكذلك كان أثر المبادئ التي سنّها، والعقيدة التي دعا إليها. فمبادئ المساواة والإخاء والعدالة والحرية التي جعلها أجزاءً متممة للإيمان قد فعلت فعلها في إصلاح الأخلاق والسمو الروحي للجماعة. وكذلك فعلت

العقيدة وأثرها
في التوجيه
للخير

عقيدة الإيمان بالله وحده لا شريك له، له الملك، وله السلطان، بيده النفع والضرر والمنع والعطاء، تتساوى الناس في ملكوته وفي العبودية له، فسمما بالروح البشرية وحررها ووجهها إلى الخير العام وقصد وجه الله القدير الذي بيده كل شيء، وجعل مناط الأعمال النية التي يعلمها ويحيط بها علام الغيوب. فهياً بهذه العقيدة السبيل إلى الأخلاق الفاضلة.

فالذي يدين بها لا يكذب، لأن الكذب لا يخفى على الله ولا ينفع صاحبه، فصار الصدق من دعائم الأخلاق في الدعوة المحمدية، وصار الرياء والنفاق يبعد عن الله، ولا يُكسب الأعمال إلا بواراً، واستحال بذلك على المسلم المؤمن أن يكون كاذباً أو مرأئياً.

والمؤمن شجاع الرأي والقلب لا يهاب الموت، لأن الذي يملكه هو الله وحده، وبذلك ترتفع نفسه إلى العزة والإباء والاستشهاد في الحق، وترفض الظلم أو التحقير إن وقع عليه أو على إخوانه من عبيد الله.

والمؤمن بهذه العقيدة لا يكون جباناً مستسلماً، بل يحيا مناضلاً، يدفع شرور الحياة عن نفسه وعن الناس بحياته.

المؤمن يعتقد أن الله هو الذي يعطي ويمنع ويرزق من يشاء
بغير حساب، فلا يبخل بما في يده، بل يبذل إرضاءً لهذا الرازق
وطلباً لبرّه وكرمه، ويعيش سخياً كريماً سمحاً مع إخوانه عباد
الله.

كذلك لا يكون المؤمن أنانياً، فإن عقيدته تمنعه من أن
يختص نفسه بالمتاع، وهو يعلم أن في ذلك حرماناً لعيال الله
من المشاركة في فضل الله، فهو إنسان يكمل إنسانيته بالشعور
بجنسه، يعيش بنفسه وأهله وجيرته وأمتة والناس جميعاً.

هو حسن المعاملة والعشرة وفي ودود، لأن كل ذلك من
متممات إيمانه ومستلزمات خضوعه للذات العلية التي رفعتة
واستخلفته في الأرض.

فالعقيدة الإسلامية التي دعا إليها محمد ﷺ، والتي
مكنها في نفوس أصحابه وأتباعه هي بذاتها الدعامة الكبرى
للإصلاح الاجتماعي، فقد نشأ عنها وترتب عليها حياة روحية
خلقية فاضلة، لها المقام الأول في نفس المسلم، وما بعدها من
مادة إنما يكسب قيمته وأهميته بقدر صلاحه لإعزاز هذه الروح
وتمكينها.

وفي المجتمع الإسلامي الذي تسوده العقيدة الصحيحة لا يمكن أن تسيطر المادة على الأفكار والأعمال والأخلاق والتصرفات البشرية سيطرة تشبه في قليل أو كثير ما يعانيه العالم اليوم من سيطرة المادة.

سليمان
ابن
عبد الملك
وأبو حازم

رُوي أن سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي قدم المدينة للزيارة، وبعث إلى أبي حازم، فلما دخل عليه قال: تكلم يا أبا حازم قال: نعم أتكلم يا أمير المؤمنين: لا تأخذ الأشياء إلا من محلها، ولا تضعها إلا في أهلها. قال: ومن يقوى على ذلك؟ قال: مَنْ قلَّده الله من أمر الرعية ما قلَّده. قال: عظمي يا أبا حازم. قال: اعلم أن هذا الأمر لم يصل إليك إلا بموت من كان قبلك، وهو خارج من يديك بمثل ما سار إليك. قال: مالك لا تجيء إلينا؟ قال: وما أصنع بالمجيء إليك يا أمير المؤمنين؟ إن أدنيتني فتننتي، وإن أقصيتني أخزيتني، وليس عندك ما أرجوك له، ولا عندي ما أخافك عليه. قال: فارفع إلينا حاجتك. قال أبو حازم: قد رفعتها إلى مَنْ هو أقدر منك عليها، فما أعطاني منها قَبِلْتُ، وما منعني رَضِيتُ.

ذلك هو أثر الدعوة المحمدية في أخلاق الرجال، ترفعها وتطهرها. وتاريخ الصحابة والتابعين، بل تاريخ المسلمين في

جميع الأقطار يفيض بصفحات من الأمثلة العالية في الورع وحسن المعاملة والبعد عن الفحش والإخلاص في النصيح لعباد الله.

يُروى أنه كان عند يونس بن عُبيد حُلل مختلفة الأثمان، ضرب قيمة كل حُلّة منه أربعمئة، وضرب كل حُلّة قيمتها مائتان، فمرّ إلى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان، فجاء أعرابي وطلب حُلّة بأربعمئة، فعرض عليه من حُلل المائتين فاستحسنها ورضيها واشتراها، ثم مضى بها، وهي على يديه فاستقبله يونس فعرف حُلّته. فقال للأعرابي بكم اشتريت؟ فقال الأعرابي: بأربعمئة. فقال يونس: لا تساوي أكثر من مائتين، فارجع حتى تردّها. فقال الأعرابي: هذه تساوي في بلدنا خمسمئة وأنا أرتضيها. فقال له يونس: انصرف فإن النصيح في الدين خير من الدنيا بما فيها، ثم ردّه إلى الدكان، وردّ عليه مائتي درهم وخاصم ابن أخيه في ذلك وقال له: أما استحييت؟! أما اتقيت الله؟! تربح مثل الثمن وتترك النصيح للمسلمين! فقال ابن أخيه: والله ما أخذها إلا وهو راضٍ بها. قال يونس: فهلاً رضيت له بما ترضاه لنفسك؟!

التاجر الناصح
الزاهد

ورُوي عن محمد بن المنكدر أن غلامه باع لأعرابي في غيبته شقة من الخمسيات بعشرة، فلم يزل يطلب ذلك الأعرابي طول النهار حتى وجده. فقال له: إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوي خمسة عشرة. فقال يا هذا قد رضيت. فقال وإن رضيت فإننا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا، ورد عليه خمسة.

تلك أخلاق من تمكنت الدعوة المحمدية من نفسه، فعمل بقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

فالمسلم لا يخدع ولا يغش ولا يغبن.

قيل لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: ما سبب غناك؟ قال: ثلاث ما رددت ربحاً قط، ولا طُلب مني حيوان فأخرت بيعه، ولا بعْتُ بنسيئة^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «رحم الله امرأً سهل البيع، سهل الشراء، سهل القضاء، سهل الاقتضاء».

وكذلك كان أثر الدعوة المحمدية حاسماً فيمن اهتموا بهديها، وكان الدين المعاملة، فلم يكن تنطعاً ولا تكلفاً ولا

(١) بنسيئة: بدفع الثمن مؤجلاً. (م).

تظاهراً، بل إيماناً وعملاً ظاهراً وباطناً، لأن الله أحق أن يخشاه
الناس من خشية بعضهم بعضاً.

شهد عند عمر رضي الله عنه، شاهد. فقال له عمر: ائتني بمن
يعرفك. فأتاه برجل، أثنى عليه خيراً. فقال عمر للرجل: أنت
جاره الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجه؟ قال: لا. قال
كنت رفيقه في السفر الذي يُستدلّ به على مكارم الأخلاق؟
قال: لا. قال: فعاملته بالدينار والدرهم الذي يستبين به ورع
الرجل؟ قال: لا. قال: أظنك رأيته قائماً في المسجد يُهمهم
بالقرآن، يخفض رأسه تارة ويرفعها أخرى؟ قال: نعم. فقال له
عمر: اذهب فلست تعرفه! ثم قال عمر للشاهد اذهب فأتني بمن
يعرفك..

نظرة عمرية
لحقيقة
الصلاح

التكافل

أمة واحدة - جماعة المسلمين تقوم على التكافل -
مسئولية الفرد ومسئولية الجماعة - إيقاظ ضمير الفرد
وضمير الجماعة - حراسة الرأي العام - عزائم الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر - العلاج بالتشريع -
مرد الإصلاح عامة إلى الإحسان - تكافل المهاجرين
والأنصار - مثل من التكافل في قبائل الطوارق

أمة واحدة

يقول تعالى ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ
فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء / ٩٢] ويقول ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي
تَوَادِهِمْ وَتَرَاحِمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ
تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى».

جماعة
المسلمين
تقوم على
التكافل

والفرق بين الإسلام وأكثر الملل الأخرى أنه لم يكتف
بتنظيم العبادات وترك ما وراء ذلك لقيصر أو لغيره من الناس،
بل نظم المعاملات والعلاقات والحقوق والواجبات بين أفراد
الأسرة، وأفراد الأمة، وبين الأمم المختلفة، وجعل هدفه الأول

المجتمع وصلاحه، حتى إن العبادات نفسها قد تكون من وسائل هذا الإصلاح. والأمة الإسلامية في المجتمع البشري وحدة مُوثَّقة العُرى، متساندة متكافلة متعاونة تدفع ما يتطرق إليها من الفساد بوحداتها ومجموعها.

هذا التكافل الاجتماعي واضح في جميع نواحي الدعوة المحمدية، وأظننا لو قلبنا تاريخ البشر لا نجد حالة ظهر فيها التكافل والتعاون والتراحم بين جماعة ما ظهوره في جماعة المسلمين في العصور الأولى، بل في كل عصر من العصور قبل أن تُلثاث العقول وتفسد القلوب ويفتن الناس بالحضارة الأوربية الحديثة.

إن مسئولية الفرد في المجتمع الإسلامي عن الجماعة، ومسئولية الجماعة عن الفرد، مسئولية عظمى هي أمانة الحياة ومناط تكليفاتها، ولذلك كره الإسلام للفرد أن يتوحد ويعتزل ويشرد عن المجتمع وينكر الصلة بينه وبين غيره، حتى لقد كره الإسلام ذلك في العبادة، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المُنبِت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى» كما كره للجماعة أن تهمل العناية بالفرد وأوجب عليها أن تصون مصالحه، وتحترم حقوقه وحريته، وتوفق بين المصالح

مسئولية الفرد
والجماعة

المختلفة، وفضل الصلاة في جماعة على صلاة الفرد وحده بسبع وعشرين درجة.

فالفرد في المجتمع الإسلامي جزء في كل، يكمله ويكمل به، ويعطيه ويأخذ منه، ويحميه ويحتمي فيه.

إيقاظ ضمير
الفرد وضمير
الجماعة

هذه المسئولية الفردية عن الجماعة، وهذه المسئولية الجماعية عن الفرد، هما أولى وسائل الإسلام في الإصلاح والتكافل الاجتماعي والعدالة الاجتماعية. وقد أكد الإسلام معاني هاتين المسئوليتين في ضمير الفرد وضمير الجماعة، ليضمن للمسلمين حياة الجسم الواحد الصحيح القوي السعيد المنتج، فقال للفرد: «أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك» الحديث.

«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، والأمير راع والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» الحديث.

«أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد» الحديث.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ . فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ
الْيَتِيمَ . وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [الماعون / ١-٣] الآية
﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر / ٩].

وجعل في دعاء الفرد قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا
لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [الحشر / ١٠] إلى آخر النصوص التي توجه
قلب الفرد للجماعة وتُدْمِجُه فيها إدماجاً تاماً.

وقال للجماعة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ
أَخَوَتِكُمْ ﴾ [الحجرات / ١٠] الآية «المسلمون تتكافأ دماؤهم،
ويسعى بدمتهم أديانهم، وهم يدُّ على من سواهم» الحديث
«انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» فقال رجل: أنصره إذا كان مظلوماً،
أرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره؟! قال: «تمنعه من الظلم، فإن
ذلك نصره» الحديث.

وضرب مثلاً رائعاً لوصاية الجماعة على الفرد ومسئوليته
إزاء جنائياته، فقال رسول الله ﷺ «إِنْ قَوْمًا رَكِبُوا سَفِينَةً فَاقْتَسَمُوا،
فَصَارَ لِكُلِّ مِنْهُمْ مَوْضِعٌ، فَنَقَرَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مَوْضِعَهُ بِفَأْسٍ، فَقَالُوا
لَهُ: مَا تَصْنَعُ؟! قَالَ: هُوَ مَكَانِي أَصْنَعُ فِيهِ مَا أَشَاءُ. فَإِنْ أَخَذُوا
عَلَى يَدِهِ نَجَا وَنَجَوْا، وَإِنْ تَرَكُوهُ هَلَكَ وَهَلَكُوا.

هذا التقابل بين الفرد والجماعة في المسؤولية العامة عن المصالح هو أساس مقاومة الظلم الاجتماعي، وجميع وسائل الإصلاح لا تنتج نتائجها إذا لم تكن قبلها هذه الوسيلة.

وخلافة الإنسان عن الله في الأرض ووصايته على مقدراتها، لا تتحققان إلا بهذا التكافل الاجتماعي.

فعلى الذين يريدون مقاومة المساوي الاجتماعية أن يوقظوا أولاً ضمير الفرد للجماعة وضمير الجماعة للفرد، وأن يؤكدوا معاني المسئوليتين السابقتين، حتى يحس الفرد إحساس البنوة والبر بالجماعة، وتحس الجماعة إحساس الأمومة والرعاية للفرد.

حراسة
الرأي العام

ينشأ من إدراك المسئوليتين السابقتين والاضطلاع بهما، ما يسمى حديثاً «الرأي العام» ذلك الحارس اليقظ لكيان الأمة إذا كان مبنياً على بصيرة ووحدة في القصد والهدف، وهو السلطة الرهيبة التي تقوم الحكام والأفراد، وبه تهتز الأمة وينتفض جسمها انتفاضة الغضب إذا أصابه سوء أو فساد، كما يهتز جسم الفرد وينتفض لما يصيبه من مكروه، وهو أمضى سلاح للقضاء على السوءات الاجتماعية، يفعل ما لا تفعل القوانين. وهو العين الساهرة على تنفيذ القوانين، واحترام القواعد الأدبية، والسنن الصالحة التي أقرها المجتمع.

ولذلك عني الإسلام بتكوينه كرقيب يهذب من شذوذ الفرد، ويحد من غُلُو الجماعة، فجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أكبر عزائم الإسلام وأعظم أسس الحياة الاجتماعية الصالحة.

عزائم الأمر
بالمعروف
والنهي
عن المنكر

قال القرآن ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة / ٧١] وقال ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران / ١٠٤] وفي الحديث النبوي الشريف «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماءهم فلم ينتهوا، فجالسهم في مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم؛ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون». ثم جلس رسول الله ﷺ، وكان متكئاً، وقال: «لا والذي نفسي بيده! حتى تأطروهم على الحق أطراً» أي تعطفوهم وتميلوهم.

فكل ما هو من حق الله أو حق الجماعة ينبغي ألا يجمال فيه إذا اعتدى عليه معتد كائنًا من كان.

وأكبر آفاتنا الاجتماعية ناشئ من أن الرأي العام الصالح لم يتكون فكثيراً ما نرى أفراداً يجاهرون بالاعتداء على حرمان الدين والدولة والحقوق العامة، ومع ذلك لا يحرك الجمهور ساكناً للإنكار أو الاعتراض، ذلك لأن الجماعة هنا تعيش في ذهول عن نفسها وحقوقها وواجباتها؛ إذ هي جماعة موزعة مشتتة الأهواء غير متجانسة التربية والتعليم، التربية والثقافة فيها غير مطبوعتين بطابع واحد، قد صبت فيهما جداول مختلفة بلبت أخلاق الأمة وتفكيرها وإيمانها، وجعلت الشيء الواحد حسناً وقبيحاً لديها في آن واحد: حسناً لدى جماعة وقبيحاً لدى أخرى.

فتقدير المسئولية الفردية ومسئولية الجماعة، وإيجاد الرأي العام الصالح لا يكون إلا بالدعوة والإقناع، ومتى أدرك الكل الحقوق والواجبات إدراكاً صحيحاً ظهر الرأي العام موحدًا وقويًا، فيقوم المعوج ويصلح الفاسد.

فالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة التي تصل إلى أعماق النفوس فتبذر بذور الخير وحب الحق، وتجتث أصول الشر وأسباب الآفات، هي الفاتحة التي لا بد منها.

ومفتاح كل أمر من أمور الإصلاح هو الوصول إلى النفس أولاً. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد / ١١].

وقد كان الإرشاد الاجتماعي المبني على الإقناع أحد الأسلحة القوية التي لجأ إليها الإسلام للإصلاح الاجتماعي؛ فكان الرسول ﷺ يقرع الأذان بالقرآن والحديث ليصل إلى القلوب والعقول، حتى تعرف الحق وتذكر الرشد، وتقوم عليها الحجة ويسقط عذرها أمام نفسها وأمام الله؛ ولذلك سبق عهد الدعوة عهد التشريع والإلزام، ومكث رسول الله ﷺ يدعو الناس ثلاث عشرة سنة، حتى تسربت دعوته إلى قلوب القوم واشتغلت بها أنديتهم فتساءلوا عن نبئها العظيم.

فلما انتشرت الدعوة، ووجد الرأي العام لها في المدينة، ابتدأت مرحلة التشريع والإلزام.

العلاج
بالتشريع

كذلك عالج الإسلام آفات المجتمع العربي وقتئذ بالدعوة ثم بالتشريع. واليوم، على الذين يريدون علاجها أن يسلكوا هذه السبيل، فيجب أن تتخذ الدعوة أساساً للإصلاح قبل التشريع،

ويجب أن يُلحَظ التدرج في التشريع وترك الطفرة، حتى يتهيأ الجو الصالح وتستعد أعصاب الجماعة لقبول ما يلقي عليها من الأوامر والإلزامات.

وقصة تحريم الخمر في الإسلام بالدعوة أولاً، وبالتدرج في التشريع ثانياً، تبين لنا أسلوب الإسلام في التوصل إلى أغراضه خطوة خطوة.

مرد الإصلاح
عامة إلى
الإحسان

قلنا إن الإسلام اتخذ الدعوة وسيلة للإصلاح الاجتماعي، ثم لجأ إلى التشريع لحماية مقاصد هذه الدعوة، وقد جعل الحياة كلها ترمي إلى الإيمان والإحسان في العمل فهو يحدد للفرد والجماعة الحقوق والواجبات على أساس هذا الإحسان. فكل تكليف وكل حق ينشأ في المجتمع الإسلامي إنما ينشأ بسبب واحد هو الإحسان للفرد أو للجماعة. وأي عمل من شأنه أن يباعد من الخير أو يقرب من الشر، سواء أعاد هذا العمل على صاحبه أم على غيره، فهو محرم.

لذلك نجد الإسلام قد تناول جميع نواحي الحياة، وحدد فيها المسؤولية لتحقيق قصده، وهو الحياة السعيدة التي يريدها للناس في هذه الدنيا، والتي جعلها وسيلتهم لحياة أرقى وأسعد في الآخرة.

فمثلاً يقول نبي الإسلام «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» إلى آخر الحديث السابق. فلم يُخلِ أحداً من مسئولياته عن الآخر، فأمر المؤمنين مسئول عن المؤمنين، ووكلاؤه وأمنائه مسئولون عما بين أيديهم من سلطته، ورب الأسرة مسئول عن أسرته، والمرأة مسئولة عن بيتها، والفرد مسئول عن نفسه وجاره، وكل فرد في المجتمع الإسلامي مسئول عن حُسن قيام المجتمع كله؛ لأنه مكلف كما قلنا بالعمل والدعوة لصالح هذا المجتمع، وبالتواصي بالحق والتعاون على البر والتقوى.

وهو مكلف بكل أولئك لغرض واحد، هو الإحسان قاعدة الإسلام الثانية بعد الإيمان، وليس أنجع لمقاومة الشر وآفات المجتمع من التربية الإسلامية التي جعلت هذه المسئولية تهبط من الأسمى إلى الأدنى، وتصعد من الأدنى إلى الأعلى، فهي التي تشد البناء الإسلامي وتمسكه من الخلل.

اتخذت الدعوة الإسلامية لتدعيم التضامن والتكافل بين المسلمين وسائل شتى، حتى أخى الرسول بين المهاجرين والأنصار في المدينة ذلك الإخاء الذي حل محل النسب والقربى.

تكافل
المهاجرين
والأنصار

ونشأت بالدعوة المحمدية جماعة متضامنة موحدة هي مصدر السلطات جميعاً، رأيها شرع، وقولها فصل، وأصبحت هذه الجماعة تكفل أفرادها كما أصبح أفرادها قوياً حية مسئولة لا يتم إيمانها، ولا يكمل دينها إلا بالإخلاص للجماعة والتفاني فيها، والفناء في سبيلها. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران / ١٦٩].

وقد شهدت في بعض الجماعات الإسلامية التي احتفظت بتقاليد المسلمين تضامناً وتكافلاً لا نظير له، لا يتمنى المصلح الاجتماعي أحسن منه لأية جماعة بشرية.

مثل من
التكافل في
قبائل الطوارق

رأيت بعض قبائل (الطوارق) في شمال إفريقية يحيون حياة هذا التكافل السعيد، فليس فيهم من يعيش لنفسه، وإنما لجماعته. وأعظم ما يفخر به ويعتز، هو ما يصنع لهذه الجماعة. وأول ما لفت نظري لحالتهم هذه أن رجلاً من أهل الحضر هاجر من الفرنسيين ونزل بينهم في فزان، فجاورهم وعاش بفضلهم، ثم خرج يطلب الرزق ويريد أن يردّ الجميل، وترك أسرته في جوار هذه الجماعة الإسلامية. غير أن النحس لازمه ولم يستطع كسباً، فجاءنا في (مصراته) يستمدنا فأعناهُ ليعود إلى أهله، ولكنه عاد إليّ بعد نحو سنة مرة أخرى فظننت أنه رجع من أهله، فقال

لا، وإنما الآن أستطيع الرجوع إلى أهلي، فقلت وكيف ذلك؟
 قال: بعد لقائنا الأخير اتَّجَرْتُ بما حصلت عليه وأصبح الآن في
 يدي ما أعود به إلى جماعة الطوارق. فقلت: إلى أولادك أم إلى
 جماعة الطوارق؟ قال: إلى الطوارق أولاً، فهم آووا أولادي في
 غيبتني، وأنا سأكفل أولاد من أجده غائباً منهم، وأقسم ما أعطى
 الله بين أولادي وأولاد جيراني.

فقلت: هل تعيش جماعتكم كلها كما تعيش أنت مع
 جيرانك؟

قال: كلنا في الخير والشر سواء، والفضل لصاحب الفضل،
 والواحد من جماعتنا يستحي أن يعود إلى النجع خالياً، لا حياءً
 من أهل بيته، بل حياءً من جيرانه الذين ينتظرون عودته كأهل
 بيته سواءً بسواء.

ليست جماعة الطوارق هذه أو أضرابها من أهل البادية
 وسكان القفر مختصة بهذه الروح الجماعية ولا هي من
 مستلزمات عصبيتها، وإنما هي الروح الإسلامية أكثر ظهوراً
 في هؤلاء الذين لا يزالون بمعزل من الحياة الحديثة المادية. وقد
 وجدت هذه الروح في الدساكر والقرى الإسلامية التي لا تزال

مطبوعة بالطابع الإسلامي، سواء أكان أهلها عرباً أم عجمًا، بيضاً أم سوداً، في المشرق أم في المغرب. فقد رأيت جماعة المسلمين في كثير منها لا يزالون يحيون حياة الخير والتضامن والتكافل والتعاون على البر.

لا يزالون أقرب إلى المجتمع الصالح كما أراده صاحب الدعوة من عشرات الملايين الذين فُتِنُوا بالحضارة الغربية المادية، فهم يعيشون لأنفسهم ولو انقضت جماعتهم، ويؤثرون شهواتهم على البر بأهلهم، فضلاً عن جيرانهم.

البر

كلمة جامعة - نظرة الإسلام إلى مشكلة الفقر - الفقر
لعلة والفقر لفقد الوسيلة - العمل هو الأصل - مطاردة
الترف والبؤس - القانون والضمير - اشتراكية أبي ذر -
محاربة الترف والاكتمال والربا - سلطة واسعة لولي الأمر -
المواساة بشعور المساواة - المساواة عقيدة وشعور ونظام -
الأشكال والمظاهر ليست غاية في الحكم - حق الفقير حق
الله - البر بغير المسلمين - فلننظم البر على طريقة الإسلام.

كلمة جامعة

البرّ ركن من أركان الدعوة، وسبيل واضحة للإصلاح
الاجتماعي. وقد وردت كلمة البرّ في القرآن على معانٍ شتى
تحددها القرينة، فهو الصدق والخير والإحسان على أوسع معانيه،
وطاعة الله.

ونقصد بالبرّ في هذا الفصل معنى الإحسان والمواساة
للفقراء والمساكين ومن تخلف من إخواننا في المجتمع عن السير
معنا إلى حياة مرضية مستغنية، لعجز به أو يُتم أو مرضٍ أو

مصابٍ أو جهل، أو غير ذلك مما يعرض من أسباب الضعف والفقر.

وقد سبقت الدعوة المحمدية جميع الدعوات الصالحة في تحديد البر وتنظيمه، وفي تعيين واجبات الأفراد والأمة والدولة في هذا الشأن. وهي من هذه الناحية ذات نظام اجتماعي شامل يستحق من أهل الرأي والنظر في جميع الملل عناية ودرسًا.

وهذه الحرب التي قامت بين النظم الفاشية والشيوعية والديمقراطية، داعية إلى المسارعة في بيان القواعد الإسلامية، والسنن المحمدية، لعل في ذلك هدى ومخرجًا مما اختلف الناس فيه.

وقد بينا كيف حارب الإسلام الفساد الاجتماعي بالدعوة، والرأي العام، وكيف يجعل من التكافل والروح الجماعية أساسًا دينيًا لا تستقيم السبيل إلى الله إلا به، ولا يتم إيمان الفرد، ولا تؤدي الأمة واجبها، والدولة أمانتها إلا بالعمل المتواصل على تمكينه في النفوس، وجعله نظامًا من نظم الحياة.

ولننظر الآن كيف عالج الإسلام مشكلة الفقر وهي أعظم آفات المجتمع البشري.

نظرة الإسلام
إلى مشكلة
الفقر

لم يجعل الإسلام الفقر سبباً لازدراء صاحبه، بل جعل أقرب الناس إلى الله أتقاهم؛ فالفقر على حاجته قد يكون في نظر الإسلام أعلى من أي رجل آخر مهما كان ماله وجاهه، وبهذا ابتداءً المواساة الأولى للفقير.

ثم نظر في حال الفقير؛ فإما أن يكون هذا الفقير عاجزاً عن الكسب لعلّة به، وإما أن يكون عاجزاً عن الكسب لفقد الوسيلة إلى العمل.

الفقر لعلّة
والفقر لفقد
الوسيلة

فأما الذي يعجز لعلّة لا علاج لها فقد جعل مواساته حقاً على المجتمع لا تبرعاً وتطوعاً. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج / ٢٤-٢٥] فصان بذلك كرامته الإنسانية.

وأما الذي يعجز لفقد الوسيلة إلى العمل فقد أوجب على الدولة إيجاد الوسيلة لتكسبه. وقد قبّح الإسلام السؤال ودعا المسلم للترفع عنه؛ فاليد العليا خير من اليد السفلى. وقد أعطى رسول الله ﷺ سائلاً درهماً وأمره أن يشتري به فأساً وحبلاً ويحطب، ولا يتعرض لذل السؤال.

العمل هو
الأصل

والأصل في الإسلام هو العمل والتكسب، وقد حض عليه
بجميع الوسائل، حتى لقد فضله على الانقطاع لعبادة الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة / ٢٧٧].

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ
مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف / ٣٠].

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ﴾ [الحج / ٥٠].

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ
أُجُورَهُمْ﴾ [النساء / ١٧٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ
الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة / ٧].

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل / ٩٧].

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ
الْحُسْنَىٰ﴾ [الكهف / ٨٨].

والعمل الصالح هو العمل الذي يتحقق به صالح الفرد والجماعة ويعود بالخير عليهما معاً. وللإسلام فلسفته الإنسانية ومبادئه المتكاملة في العمل. فيعتبر العمل الذي يتحقق فيه الخير والمصلحة لفاعله وللغير معاً أفضل من العمل الذي يتحقق فيه الخير والمصلحة لفاعله فقط.

ونلاحظ أن العمل الصالح قد قرن في هذه الآيات بالإيمان تأكيداً على أنه يليه في درجته. وقد جاء في القرآن الكريم ما يقرب من ثمانين آية يقترن فيها العمل الصالح بالإيمان. وفي الآية الأولى التي ذكرناها نجد العمل الصالح قد جاء قبل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

والحديث يطول في الاستشهاد بما جاء في القرآن الكريم وأحاديث الرسول ومواقفه ﷺ بالنسبة للعمل والحض عليه. فنجد في القرآن الكريم أيضاً:

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف / ٣٠].
 ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتُمْ﴾ [آل عمران / ١٩٥].

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ
وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة / ١٠٥].

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ
فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة / ١٠].

ونجد من أحاديث الرسول ﷺ:

«ما أكل أحدٌ طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده».

«من أمسى كالأً من عمل يده أمسى مغفوراً له».

«إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع أن
يغرسها قبل أن تقوم الساعة فليغرسها».

«ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان
أو طير أو بهيمة إلا كان له به صدقة».

وكما أمر الإسلام الفرد بالعمل والتكسب وحضه عليه،
فإنه كذلك ألزم الدولة أن تعين على إيجاد العمل لمن لا يجده
وأن تحمي من يعجز عنه. ولفقهاء المسلمين في هذا الأمر بحوث
وآراء مستفيضة.

وقد أراد الإسلام أن يجعل مستوى المعيشة متناسقاً
ومتقارباً بين أتباعه، فحارب الترف في أعلى المجتمع، وطارد
البؤس في أسفله، واتخذ لذلك وسيلتين:

مطاردة الترف
والبؤس

وسيلة الضمير وهي أقواهما، ووسيلة القانون؛ فجعل الحياة
السعيدة الخالدة لا تُنال إلا بالإنفاق على المستحقين من الأهل
والأقربين والمساكين، ولا ينال متاعها المسرفون الذين جعلوا
شهواتهم في هذه الحياة أهدافهم.

القانون
والضمير

جعل ضمير المسلم لا يستريح إذا طَعِمَ وَلَبَسَ وتمتّع، وجارّه
وَمَن حوله قد عجزوا عن القوت، وحضه حضاً قوياً على البذل
والقناعة والحد من شهواته في سبيل إغاثة الملهوفين والمحتاجين،
حتى لقد أمر أن يُطْعِمَ السيدُ الخادمَ بما يَطْعَمُ، ويكسوه بما
يكتسي.

اشترائية
أبي ذر

قال المعرور بن سويد: «رأيت أبا ذر رضي الله عنه عليه حُلَّةٌ وعلى
غلامه مثلها، فسألته عن ذلك فقال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله
يقول: «هم إخوانكم وخولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن
كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا
تكلفوهم من العمل ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه».

ولم يكتف الإسلام بإيقاظ الضمير لهذا، بل جعل للدولة أن تقتضي من فضلة مال الفرد مقادير لا يستهان بها لتكفل بوسائلها هي أيضاً حاجات الفقراء والمساكين.

وفي الحقيقة حين يحارب الإسلام الترف والاكتناز والربا، ويقول: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة / ٣٤-٣٥] وحين يقول: ﴿وَالَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة / ٢٧٥] وحين يقول: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة / ٢٧٦] وحين يقتضي الزكاة على الأموال المكنوزة ويحرم الربا، إنما يريد بذلك كله أن يرفع مستوى الطبقات الفقيرة، ويخفض من مستوى المترفين؛ ليجعل حياة الجميع سعيدة متناسقة.

محاربة الترف
والاكتناز
والربا

فتحريم الترف يوجه الأموال إلى إنتاج أكثر فائدة للجميع، وتحريم كنزها يوجب تداولها، وتداولها من غير ربا يؤدي إلى المشاركة فيها. وإذا لم يجد الناس في الترف لذتهم وجاههم،

وجدوهما في الإحسان والبر. وإذا لم يجدوا في الكنز ضماناً لهم، وجدوه في ضمانه المجتمع الإسلامي المتكافل الذي لم يهمل أحداً ولم يحتقر أحداً، وإذا لم يجدوه في الربا وجدوه في لذة الكسب والمشاركة مع إخوانهم الذين يعملون في أموالهم.

هذا الإسلام الذي حارب آفة الفقر بإيقاظ الضمير وبالتشريع، جعل العمل أسَّ المقاصد، فأمر بالسعي وفضَّله على الانقطاع للعبادة، وأمر بالجد والإتقان. وذلك لاشك أفضل الوسائل لمحاربة الفقر، ولم يجعل جزاء العمل مقصوراً على هذه الحياة، بل وعد به أيضاً في الآخرة.

والإسلام يدفع الفقر بالدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، ويقاوم بالحجة والحدود الشرورَ والرذائل، فلو أن وسائله استُخدمت في ردع أرباب الشرور والآثام، وفي الدعوة للفضيلة والخير، لتماسكت الأسرة الإسلامية وأدرك كل عضو فيها واجبه، وكبح من نزعاته، وكان ذلك من أمضى الأسلحة في مقاومة الفقر؛ إذ أن أعظم أسباب الفقر هي الإسراف في الشهوات، وارتكاب الآثام كتعاطي الخمر والمخدرات، وإهمال صحة البدن والأوامر الدينية التي من شأنها تقويم الأرواح والأبدان. ولو اتخذنا وسائل الإسلام في التراحم والتعاطف، ومبادئه في

الأخوة والتعاون، وأيقظنا ضمير الأمة الديني في هذه الناحية،
لطيناً الفقر طعنة تعجزه عن أن يدخل أكثر البيوت.

ولو قامت الدولة بواجبها في كفالة المتخلفين من إخواننا لما
يصيبهم في أنفسهم أو أبدانهم، أو لما يصيبهم من انقطاع السبل
بهم مع رغبتهم في العمل، وذلك بأن تكون سياستها قائمة على
أساس التكافل الذي جاء به الإسلام في قول رسوله: «المؤمن
للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» فوزعت الصدقة على من لا
سبيل له غير الصدقة، ووزعت العمل على الناس بقصد الخير
العام، ولو على سبيل الإيجار على عمل معين للقادر عليه،
لقاتلت هي أيضاً الفقر بوسائلها الفعالة.

وقد جعل الإسلام في هذا سلطات واسعة لولي الأمر،
فله في سبيل الإصلاح العام أن يُحدث أقضية بقدر ما يحدث
من المشكلات، وله أن يكيف الأحوال لتسير وفق الغرض
الأساسي للإسلام، وهو الإحسان.

سلطات واسعة
لولي الأمر

وقد قرر الإسلام في وضوح وعزم مبدأ المساواة، وهو أعظم
المبادئ في مقاومة الشرور الاجتماعية وأخصها الفقر، وجعل
هذه المساواة مستقرة في ضمير المسلم، ومالكة زمام تصرفاته في
العبادة والمعاملة والأدب.

المساواة عقيدة
وخلق ونظام

ومن فضل الدعوة المحمدية على البشر أنها تُبَغِّضُ في الاستعلاء والترفع على الناس، حتى ليكاد المسلم أن يفر من مجرد الخاطر الذي يخطر بذهنه بأنه أفضل من غيره. والمسلم الصادق لا يضمّر في نفسه أنه خير من خادمه مع سيطرته عليه. والله تعالى يشتد على الرسول نفسه ويعاتبه بالقرآن، لأنه تصدى لقوم من رؤوس العرب يرجو من وراء إيمانهم إيمان أقوام يتبعونهم، وتلهى بهم عن رجل فقير ضعيف جاء راغباً في الإيمان فقال :

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى . أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي . وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى . وَهُوَ يَخْشَى . فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ [عبس / ١-١٠].

ولست تجد في أي تشريع احتفالاً بالفقراء واعتناء بشأنهم مثل ما جاءت به الدعوة المحمدية إذ تحض المسلمين على رياضة أنفسهم على احترام الغير وتقديره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ [الحجرات / ١١].

ومتى رسخ هذا المعنى في أذهان الملوك والأمراء والحكام
والعامة والفقراء والأغنياء والملاك والعمال كما أرادته الدعوة
المحمدية، استحوالت الفرقة الاجتماعية وما يثيرها من حسد
وبغض، وما يترتب عليها من خلافٍ وشرٍّ ثم قتالٍ وحرب، وما
يكون من تسلط الأقوياء على المستضعفين، أو ما يكون من
ظهور المستضعفين واستذلالهم لمن كانوا أقوياء.

نعم قد يقال: إن مبدأ المساواة شائع الآن في أوروبا وأمريكا،
ومؤيد بشرائع وقوانين، ولكنه لم يمنع من القتال والحرب والفساد.
وهو قول ظاهره فيه الحق، وباطنه من قبله الباطل؛ فإن الأنانية
والمادية لم تبلغاً في عهد من العهود ما بلغت في عهد المساواة
القائمة على القوانين الحديثة في الغرب، ولم تصل القطيعة
والأثرة حتى في العهد الإقطاعي إلى ما وصلت إليه اليوم، ولم
تسيطر روح الشر بما فيها من غلٍّ وحسد سيطرتها في السنوات
المائة الأخيرة، مع شيوع حق المساواة في التصويت لانتخاب
الهيئات المحلية والعامة، ولم ينتظم الناس في مجموعات
الطوائف والحرف لينازعوا غيرهم من الطوائف كما انتظموا في
القرن الحالي، والكل يتحدث بحق المساواة.

والسبب في ذلك، أن التسليم بحق المساواة في الدعوة
المحمدية مقرون بالعقيدة والإيمان، فهو في صميم قلب المؤمن،
وهو المسيطر على ضميره، فلا خداع فيه ولا نفاق.

﴿إِنَّ النَّافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء / ١٤٥].

هذا فضلاً عن أن النظام الاجتماعي الإسلامي ليس
قائماً على تنازع السلطات، ولا على استقرار الأمر كنتيجة لهذا
النزاع، ولا على توازن القوى حتى يفسد باختلال هذا التوازن،
وإنما يقوم على التكافل بين أهل الملة، وعلى الروح الجماعية
وعلى المقصد الأسمى للوجود، وهو الكمال الروحي للفرد
والأمة، وعلى أن جميع الأعمال عمادها النية وقصدها رضا
الله.

فالنظام الاجتماعي في الدعوة المحمدية يجعل كفالة الحق
في ضمير الفرد وضمير الجماعة وسلطة الدولة، ويلعن الجماعة
كلها إذا ضاع الحق بينها.

ولا يخلي أحداً فيها من مسئولية الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر. والأشكال والمظاهر في النظام المحمدي لا قيمة لها إلا
بقدر ما تُصلح من العمل وتؤكد من حسن النية في ذلك العمل.

الأشكال والمظاهر ليست غاية في الحكم

فلم يُعَنّ المسلمون بطرائق الحكم ولا بكونه مَلَكِيًّا أو جمهوريًّا أو أوتوقراطيًّا أو ديمقراطيًّا، وإنما عنوا كل العناية بتحقيق الغاية من الحكم، وهي التكافل الاجتماعي، وأن يكون الناس سواسية، لا فضل لأحدهم ولا لأجناسهم إلا بالتقى والعمل الصالح، ولا خير في أحدهم ولا خير فيهم جميعًا إن لم تكن الغاية من حياتهم هي الخير العام.

وكل نظام يحقق الغاية من الدعوة المحمدية، وهي مصلحة الكافة وضمان حقوق الأفراد، فهو نظام إسلامي.

فإذا كانت المساواة على النظام الغربي لا تحد من الأثرة والمادية والشهوات والهوى، ولا تمنع نزاع الطبقات، ولا حرب الأجناس، فإنها صورة لا حقيقة؛ والإسلام يريد الحقائق لا الصور «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم».

ظاهر إذا أن مبدأ المساواة بالمعنى الإسلامي هو من أكبر دعائم البر وأفتك الأسلحة بأفة الفقر.

وقد دعا الإسلام إلى البر بكل وسيلة، ودعا إليه بالترغيب والترهيب، ودعا إليه بقوة القانون والدولة، فقال تعالى: ﴿يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة/ ٢٧٦]، وقال: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ

حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴿٩٢﴾ [آل عمران / ٩٢] وقال: ﴿أَرَأَيْتَ
الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّينِ . فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ . وَلَا
يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١-٣﴾ [الماعون / ١-٣] وقال: ﴿كَلَّا بَلْ لَا
تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ . وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٧-١٨﴾.

حق الفقير
حق الله

وكتاب الله وحياة رسوله يفيضان بفضل الإنفاق في سبيل
الله، واتخاذ الدنيا مطية للآخرة. ولم يكتف صاحب الدعوة ﷺ
بأن تكون دعوته موجهة بكل قوتها للبر بالفقراء والمساكين
والضعفاء والمصابين والمعوزين، بل جعل البر بهم حقاً مفروضاً
لا سبيل إلى المماطلة فيه؛ حتى إن العرب لما ارتدت عن دفع
الزكاة عقب وفاة الرسول، ونصح الخليفة الأول بأن يداريهم،
وقد تفاقم الشر، قال ﷺ: «والله لو منعوني عقال بغير كانوا
يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه». أي أنه يوجه كل قوى
الدولة لقتال قوم يمنعون حق الفقير فيما قيمته قيمة حبل يُعقل
به بغير! فحقوق الفقراء في الدولة الإسلامية مصونة، وليس
لأحد أن يمتن بها، فهي حق الله في ماله وكسبه وملكه. وقد بينت
الشرعية الزكاة وأنواعها وكيفية أدائها، كما بينت مستحقيها وما
لهم وما عليهم بتفصيل دقيق.

وتاريخ المسلمين في كل أوطانهم يفيض بالبر والعطف والرحمة بالبوّساء والغرباء، وما الكرم الذي كان به فخر البيوت والأسر والشعوب إلا أثر من آثار روح البر والإحسان الإسلامي.

ولم يكن البر في الدعوة المحمدية خاصاً بأهل الجنس أو الدين، ولكنه كان عامّاً للمساكين من البشر، فما منع اختلاف في الدين دون البر قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة / ٨].
﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة / ٦٠].

البر بغير
المسلمين

وتنظيم البر في العصر الحاضر يجب أن يقوم على نفس الأسس والوسائل التي جاءت بها الدعوة المحمدية، لأنها أفعال وأدوم. ولكن يجب كذلك أن نتصرف ونجتهد كي نحقق المقصد والغاية، وأن ننظر في عصرنا، وموارد الثروة فيه، ومصادر الغنى، وحالات الناس لنكفل الخير للجماعة ونرضي الله سبحانه وتعالى، حتى يعود للظهور بيننا من كانوا يابون أن

فلننظم البر
على
أسس الإسلام

يتعرضوا لوجوب أداء الزكاة عليهم بإنفاق أموالهم كلها، حتى قيل لبعضهم: كم يجب من الزكاة في مائتي درهم؟ فقال: أما على العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع.

لهذا المعنى تصدق أبو بكر رضي الله عنه بجميع ماله، وعمر رضي الله عنه بشطر ماله.

ولا عجب فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. وروح الدعوة المحمدية واضحة في أن الزكاة وحدها لا تبرئ أموال المسلمين من حقوق المحتاجين فيها، فما دام هناك محل للبر والصدقة فهي واجبة، وحق المسلم على المسلم لا ينتهي بأداء الزكاة.

يجب إذاً أن نستلهم من شريعة الإسلام الهدى، وأن نستوحي من روح الدعوة المحمدية نظاماً للبر تقوم عليه الدولة، لتوازن بين الثروات والحاجات، وتقيم التكافل الاجتماعي، ونقضي على حرب الطبقات ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة / ٧-٨].

العدالة والحرية

صور جاهلية - العالم بين الفرس والرومان - تخطيط
القيود وإزالة الفوارق - مبادئ في السياسة وعقائد في
الدين - خليفة يبيع في الأسواق - خليفة يلبس المرقع -
فجر العدالة الدولية - ميزان الخليفة - ميزان الشريعة -
كفالة الحريات جميعها - الدفاع عن الحريات

نتحدث في هذا الفصل عن مبدئين أساسيين لا بد منهما
لصالح حال المجتمع وتوجيه الحياة في طريق الخير العام، وهما:
الحرية والعدالة.

صور جاهلية

وكان الناس قبل الإسلام يعيشون إما على نظام القبيلة،
كالحال في بلاد العرب، وإما رعايا لدول أو أمراء، كما كان الأمر
حول شبه الجزيرة العربية في مُلك الرومان والفرس والأحباش.
وقد كان لكل أرض حال ونظام حسب ظروفها لا تنظمه مبادئ
جامعة، وأصول ثابتة مُسلّم بها؛ ففي البلاد العربية تسود مبادئ
القوة، وتتجلى الأثرة والأنانية، ويعتز الناس بالفتك والسلب،

ويفتخر كثير منهم باستباحة حقوق الغير والتسلط على ما في أيديهم، ينكرون الإخاء البشري والقومي والجنسي، ويرفضون المساواة خارج القبيلة مع الموالي وغيرهم من العرب، ويسخرون من العدل الذي لا يقوم على ما تبيحه القوة، ويحبون الحرية المطلقة ويتعشقونها، بل يموتون موتاً كريماً في سبيل التمتع بها. على أنها حرية خاصة بهم لا يمتعون أحداً بها.

وكان الفرس والرومان البيزنطيون جيران العرب، يحقرون العرب، ولا يعترفون بحق لهم في مساواتهم أو عدلهم. وكان مُلك الفرس يقوم على رجل له كل الحقوق هو كسرى، وعلى جماعة لهم من هذه الحقوق ما يمنع كسرى أو يعطي، إذ يُسَخَّر له ما في الأرض جميعاً ليكون ملك الناس جميعاً، وحوله أعوان وأمراء وجند يسندون العرش، ويحظون ببعض المتاع. إلا أنهم عُرضة في كل لحظة لإباحة أرواحهم وأموالهم وأبنائهم. نعم كانت الإمبراطورية الفارسية ثابتة القواعد، دائمة الملك، فقد عاش حكم آل ساسان أربعة قرون، ولكنه عاش على نظام عسكري، وحكم عرفي، لا على مبادئ العدل والحرية والمساواة والإخاء. وكذلك عاشت (بيزنطة) ألف سنة ولم تكن عقليتها بأحسن حالاً عن عقلية (المدائن)، فكان قيصر إمبراطور المغرب، بل على

العالميين
الفرس
والرومان

دعواه إمبراطور العالم، وكان كسرى خصيمه في المشرق. وما كان لعبادة النار أثر يذكر في هذه، ولا للمسيحية أثر في الأخرى، بل كانت مسيحية بيزنطة بما لا يشرف المسيحيين، بعيدة كل البعد عما جاء به سيدنا عيسى عليه السلام من إخاء وسلم ورحمة. وبلغ الغرور بسلاطين بيزنطة أنهم كانوا لا يعترفون لدولة بالوجود المستقل، فسيادتهم عالمية في نظرهم، والناس إما مُعْتَرِفٌ بذلك، وإما جاهل لا يدري أنه في نطاق هذه السيادة.

ومن أظرف ما يُروى أن سفير شارلمان في القرن التاسع كان في حضرة الإمبراطور في بيزنطة، فذكر له أن سيده شارلمان مشغول بحرب السكسون وأن هؤلاء السكسون برابرة دائمو الشغب. فقاطعه الإمبراطور قائلاً: مَنْ هؤلاء الهمَج الذين لم أسمع باسمهم، ولا قيمة لهم ليتعبوا سيدك كل هذا التعب؟! إني قد وهبتك إياهم، وبذلك أرحت سيدك منهم. فلما رجع سفير شارلمان حدث سيده بما وهبه الإمبراطور، فقال شارلمان: لو وهبك حذاء بدل السكسون لأعانك به على سفرك الشاق الطويل!

كذلك كان العالم في تصور قيصر وكسرى، وفي مخالب
الفوضى القبلية حين جاءت الدعوة المحمدية تذكر الناس
بأنهم من آدم وآدم من تراب ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ
ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ
اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات / ١٣].

وكذلك كان العالم لما بعث (عمر) - مَقْوُضٌ مُلْكٌ قيصر
وكسرى - إلى واليه يوبخه لاستكبار ابنه على قبطي مسيحي
ويقول له «يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم
أحراراً».

تخطيم القيود

وإزالة الفوارق

جاءت الدعوة المحمدية بالطريف الغريب من الدعوة إلى
العدل والمساواة والحرية.

فأصبحت الشريعة ينبوع الحريات والحقائق، تحدد الحقوق
والواجبات للأفراد والجماعات. فقام المستضعفون وسخر الطغاة
المتجبرون، وقالوا ما قال أسلاف لهم من قبل ﴿وَمَا نَرْبُكَ
أَتَّبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْفِطُوا﴾ [هود / ٢٧]
وما دروا أن الله أراد أن يقوِّض عالم الأثرة والأنانية والظلم
والاستبداد وأن يُحقِّق الحق، ويُبطل الباطل. وأن الشريعة مبادئ

واضحة كريمة تنظم ما بين الناس، أوحى بها العليم الخبير إلى أفضل رجل عرفه البشر في تاريخهم الطويل، هي المبادئ التي أقرت العدالة والحرية في ضمائر المؤمنين وجعلتها جزءاً لا يتجزأ من عقيدتهم وصميم نفوسهم.

مبادئ في
السياسة وعقائد
في الدين

جعل الإسلام هذه المبادئ جزءاً من العقيدة لا ينفصم منها وبذلك ثبتها وخلدها وصانها من عبث التحايل والرياء والتظاهر والدعاوى المغرضة أو الموقوتة.

فالمسلم لا يكون مسلماً إذا شك في أن أقل إخوانه وأعجزهم يعادله في الحقوق، فهما في حضرة الله في الدنيا والآخرة عبدان. أكرمهما أتقاهما.

هذه العدالة هي التي جعلت الصدقة على من يستحقها، حقاً في أموال من يقدر عليها لا منة في رقبة مستحقها.

خليفة يبيع في
الأسواق

وكانت هذه العدالة والمساواة واضحة في العهد الإسلامي الأول. وقت سيادة العقيدة وتملكها النفوس؛ فهي التي جعلت من أبي بكر. وقد انتخب للخلافة رجلاً يخرج إلى السوق عقب البيعة له ليعمل كما يعمل أي فرد من الناس فيها لكسب قوته وقوت عياله. فلما كُلم في ذلك، تشاور المسلمون في الأمر

واعتبروه أجيرًا لعملهم، ومنعوه من العمل، ورتّبوا له راتبًا حدّده بالحاجة، وكانت في عرفهم بضع دريهمات، لبيت الخليفة لا تجعله في زيّه ومطعمه أكثر حُظوة من سواد رعيته.

خليفة يلبس المرقع وجاء بعده عمر والعقيدة الإسلامية في أعزّ أيامها، وأمّكن سلطانها، فكان خليفة مختارًا من الشعب، غلب الفرس والرومان وهو يرقع ثوبه بيده ويخصّيف حذاءه بنفسه، ولم يخطر بباله ولا ببال المسلمين أن الخلافة تميّزه عنهم بشيءٍ غير ما أعطته من حق الأمر والزمّتهم من حق الطاعة ما دام وليًا للأمر.

كانت العدالة والمساواة عقيدة لا تصنعًا يتكلفها الناس أو يلزمونها بقانون رادع، فكانت حقيقةً نفسية تعمل في الظاهر والخفاء لإقامة مجتمع صالح مستقر. وفي هذا المعنى قال شوقي بك - رحمه الله - في مدح الرسول ﷺ:

أَنْصَفْتَ أَهْلَ الْفَقْرِ مِنْ أَهْلِ الْغِنَى فَالْكُلُّ فِي حَقِّ الْحَيَاةِ سَوَاءُ
فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا تَخَيَّرَ مِلَّةً مَا اخْتَارَ إِلَّا دِينَكَ الْفُقَرَاءُ
الْأَشْتَرَاكِیُّونَ أَنْتَ إِمَامُهُمْ لَوْلَا دَعَاوَى الْقَوْمِ وَالْغُلَوَاءُ
دَاوَيْتَ مُتُّدًا وَدَاوَوْا طَفَرَةً وَأَخَفْتُ مِنْ بَعْضِ الدَّوَاءِ الدَّاءُ
وَالْبِرُّ عِنْدَكَ ذِمَّةٌ وَفَرِيضَةٌ لَا مِنَّةَ تَمْنُونَةَ وَجِبَاءُ

وقد قدمنا أن الشريعة قررت أن المؤمن أخو المؤمن، وأنه في مَشرق الأرض أو مَغربها له من الحق ما لا سبيل لنكرانه. له البر، وله النصرة والحماية، وله الولاء والإخلاص والنصح. له هذا كله بمقتضى العقيدة والشريعة لا نزاع ولا جدال، فله النُصْفَةُ غاب الحاكم أم قام، وُجد القانون أم اختفى؛ لأنها حق يؤديه من ضميره بمقتضى إيمانه. هذا العدل قضى على القومية والعصبية والوطنية، وجعل المساواة فوق كل اعتبار، فللمسلم ما للمسلم في كل زمان ومكان.

وقد سبق الإسلام كل نظم العدالة الحديثة. حين قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل / ٩٠] وقال ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء / ١٣٥] وقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۖ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة / ٨].

فجر العدالة
الدولية

وقال: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء / ٥٨].

وقال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام / ١٥٢].

وفي الحديث القدسي «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم مُحَرَّمًا فلا تظالموا».

بل جعل العدل أساس نظام الخليقة كلها فقال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن / ٧-٩].

ميزان
الخليقة

فالإسلام قد جعل العدل فوق كل شيء، فهو يزن بالقسطاس المستقيم بين الكافر والمسلم، والعدو والموالي والمعاهد، فهم جميعًا في نظره أمام العدالة سواء.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة / ٨].

والشريعة الإسلامية في هذا الباب تستحق من جميع الناس، آمنوا بها أم لم يؤمنوا، نظرة صادقة؛ فإنها لا تزال سابقة في زمننا على ما به من تقدم في هذا الشأن.

انظر إلى أقوال بعض أئمة المسلمين قبل مئتي السنين. ميزان
الشرعة
يقول ابن القيم: «إن الله سبحانه وتعالى أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به الأرض والسموات، فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه». ويقول الإمام الشاطبي «إن أحكام الشريعة ما شرعت إلا لمصلحة الناس، وحيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله».

فأئمة المسلمين متفقون على أن العدل هو غاية الشريعة، وإنما تقيد الأحكام بالعدل الذي يريده الله قبل أن تقيد بشيء آخر.

وأما الحرية في الإسلام فهي من أقدم الحقوق: الحرية كفالة الحريات
السياسية، والحرية الفكرية، والحرية الدينية، والحرية المدنية، كُلُّها كفَّلها الإسلام، وخطابها خطوات لا تزال الحضارة الحديثة متخلفة عنها.

ولا يزال التاريخ يحدثنا بأمثلة منها وقعت في مجالس الخلفاء والأمراء حتى بعد أن صار الحكم في الإسلام مُلكاً عَصُوضاً، فكان الناس في أيام عمر بن عبد العزيز يناقشون

في حضرته استحقاق بيته للملك والخلافة. وكذلك رُوي عن مجالس المأمون ما كان يجري فيها من نقاش حول بيت الخلافة وأحقية بها.

وهذا دُعبل بن علي الخزاعي الشاعر، هجا جماعة من الخلفاء العباسيين واحداً بعد آخر وهم في عنفوان سلطانتهم، وانتصر لخصومهم العلويين دون أن تُصادَر حرية أو يناله أحد. ولما بويع لإبراهيم بن المهدي في العراق وخلع المأمون في غيبته قال دُعبل:

نَعَقَ ابْنُ شَكْلَةٍ بِالْعِرَاقِ وَأَهْلِهِ فَهَفَا إِلَيْهِ كُلُّ أَخْرَقَ مَائِقِ
أَنِّي يَكُونُ! - وَلَا يَكُونُ - وَلَمْ يَكُنْ يَرِثُ الْخِلَافَةَ فَاسِقٌ عَنِ فَاسِقِ

وما أظن أن مثل هذه الحرية سُمِحَ بها في عهد ملك من الملوك في زمن من الأزمان الحاضرة أو الماضية. وتقديس الإسلام للحرية هو الذي جعل من المسلمين في أحسن أيامهم، وخصوصاً العهد العربي لقربه من ظهور الدعوة، قومًا يسعون في ملكهم بين المشرق والمغرب من الصين إلى الأندلس جميع الملل والنحل تعيش في جوارهم وأمنهم.

بل أقام الإسلام بشرعه من المسلمين حُماة لأرباب العقائد المخالفة لهم، وألزم أهله أن يقاتلوا لصيانة حرية العقيدة وقدسيتها أماكن العبادة لمن دخلوا في عهدهم وجوارهم من مخالفيين في الدين.

الدفاع عن
الحرريات

تشبعت نفوس المسلمين بمعنى الحرية، فلم يضطهدوا بمقتضى شريعتهم، ولا إرضاء لعقيدتهم رجلاً نظراً في الكون واستنبط لنفسه نظرية من النظريات، أو ادعى رأياً من الآراء، فكانت الحرية العلمية مكفولة للصائب والمجوسى والنصراني واليهودي، يقول ويكتب ما يشاء. كذلك كان المسلمون أحراراً في هذا لا تعترضهم شريعتهم. ولا أعرف أن حرية الرأي والعقيدة والعلم قد اعترضها معترض في الدولة الإسلامية، إلا خشية الفتنة، أو حيث كانت سبباً في فتنة أو عرّضت سلامة الدولة لخطر.

وكان أمراء المسلمين وحكامهم على وجه العموم لا يعبأون في سياستهم بالنظر إلى الأفكار والآراء والمعتقدات والأبحاث العلمية إلا بقدر أثرها المباشر السريع على سلطانهم؛ فخاض المسلمون وغير المسلمين في الكلام، وفي نظريات علمية ودينية

في العصور الوسطى بحرية لم تتسع لها صدور الأوربيين
والأمريكيين إلى يومنا هذا.

تلك المبادئ العامة المتفق على ضرورتها وفضلها، والتي
بها يصلح المجتمع، أقامها الإسلام في ضمائر الناس، وناضل
عنها وحماها بسلطانه، لأنه يعلم آثارها الصالحة في إقامة مجتمع
صالح.

(٣)

في العلاقات الدولية

الدولة الإسلامية الأولى وعلاقتها

من تاريخ علاقات المسلمين بالمناهضين للإسلام - أول
معاهدة «دولية» بين المسلمين واليهود والوثنيين - نموذج
قديم للأمم المتحدة - الإذن بالحرب الدفاعية - حرب
للأغراض السامية - تنظيم علاقات الشر خير!

من تاريخ
علاقات المسلمين
بالمناهضين
للإسلام

ابتدأت الدعوة إلى الإسلام سرًا، فلما جُهر بها اشتدت
الخصومة، وترتب على ذلك اضطهاد المسلمين اضطهادًا تمثلت
فيه جميع أنواع الأذى. فأشار الرسول على أنصاره المستضعفين
بالهجرة إلى الحبشة فهاجروا إليها. وبهذه الهجرة ابتدأت أولى
الصلات الدولية، وبقي هو بمكة في منعة من قومه، يدعو إلى
سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة. فلم تستطع قريش صبرًا
على دعواه ضد آلهتها، بل ضد حياتها الاجتماعية والاقتصادية،
فتشاورت في قتله، وفاوضت بني هاشم في ذلك على أن تدفع
إليهم ما يرضيهم ديةً له فأبوا، فتحالف أهل مكة على قطيعة بني
هاشم، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في الكعبة، فلجأ بنو هاشم
ومعهم بنو المطلب إلى شُعب من شُعب مكة واعتصموا فيه ضد

أصحاب الصحيفة الذين تعاهدوا على أن يقاطعوا محمداً ومن يمنعه منهم، فلا يزوّجهم ولا يعاملوهم ولا يؤاكلوهم، واشتد الكرب بمن دافعوا عن الرسول بمن آمنوا به أو نصرّوه عصبية وأنفة، ودام هذا الحال سنين، فلما خرجوا من الشَّعب ذهب الرسول إلى (الطائف) مستنجداً طالباً حماية بعض زعمائها، ليمضي في دعوته فرجع مهيب الجناح، وقد رُدَّ على أشنع صورة، يتبعه الصغار، وهو يمشي دامي القدمين، يقيمونه كلما قعد، فلا يستريح إلى ظل ولا يأوي إلى كهف، حتى دخل مكة في حماية أحد المشركين، يسخر منه أهلها ويبكي لحاله أتباعه المستضعفون.

وجاءت فترة من الهدوء ظن فيها المهاجرون المستضعفون من الرجال والنساء والولدان أن مكة تؤويهم فرجعوا، فاشتد الكرب مرة أخرى، وأمرهم الرسول بالهجرة الثانية إلى الحبشة، ولقوا بلاءً شديداً حتى في مهجرهم. فقد أوفدت قريش رسلها، وعلى رأسهم عمرو بن العاص (فاتح مصر فيما بعد) يحمل الهدايا إلى النجاشي وأهل الحبشة ليغروهم على تسليم المهاجرين إليهم. فدافع المسلمون عن أنفسهم بالحجة وتمسكوا

بحق الجوار للملتجئ، وأسسوا بذلك أول علاقة دولية بين الأمة
المحمدية والدولة الحبشية.

واستمرت قريش تكيد للمستضعفين في مكة حتى استقر
رأيها على قتل محمد وتوزيع مسئولية قتله على بطونها، فتعجز
بنو هاشم عن المطالبة بثأره.

وفي الليلة التي تم فيها التآمر على قتل النبي خرج من
مكة ومعه رفيقه أبو بكر، فلما أحس القوم بذلك تبعوهما، وكانا
مختفين بغار ثور، فضلوا ثم خابوا في إدراكهما.

أول معاهدة
دولية بين
المسلمين
واليهود
والمشركين

ووصل المدينة فوجد فيها من سبقه من المهاجرين ومن
بايعوه من الأنصار، وما لبث أن عقد أول معاهدة دولية بين
المسلمين واليهود والمشركون. وهي من أنفس العقود الدولية
وأمتعها وأحقها بالنظر والتقدير من الناس كافة، وأولاها بأن
تكون نبراساً للمسلمين في أصول العلاقات الدولية بينهم وبين
مخالفهم من أهل الأديان الأخرى. هذا فضلاً عن أن عقدها
ابتدأت به الدولة الإسلامية حياتها، وابتدأ الاعتراف بالمسلمين
كدولة.

هذه الوثيقة هي عقد حسن جوار وتحالف دفاعي، وتعاون ضد العدوان، قُصد بها صيانة مجموعة من دويلات، كل منها يتمتع في نطاق الميثاق بسيادته الخاصة على قومه، وبحرية الدعوة لدينه.

ويتكافل الموقعون عليها على نصرة بعضهم بعضاً، وحماية عقائدهم ممن يريد أوطانهم أو جماعتهم بسوء. وهم بذلك يكفلون حرية العقيدة وحرية الدعوة لأعضاء الميثاق على تباين معتقداتهم. وإليكم الميثاق^(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

١- هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش و(أهل) يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

٢- أنهم أمة واحدة من دون الناس.

٣- المهاجرون من قريش على ريعتهم^(٢) يتعاقلون^(٣) بينهم وهم

(١) نقلاً عن كتاب «الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة» للدكتور محمد حميد الله الحيدري أبادي أستاذ الحقوق الدولية بالجامعة العثمانية بحيدر آباد دكن.

(٢) ريعتهم: أمرهم الذي كانوا عليه.

(٣) يتعاقلون: يأخذون ديات القتلى ويعطونها، وأصله من العقل وهو ربط إبل الدية لدفعها لأهل القتيل.

- يفدون عانيهم^(١) بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- ٤- وبنو عوف على ربعتهم، يتعاقلون، معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- ٥- وبنو الحارث (من الخزرج) على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- ٦- وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- ٧- وبنو جُشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- ٨- وبنو النَجَّار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- ٩- وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- ١٠- وبنو النَّبِيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(١) عانيهم: أسيرهم.

١١- وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٢- وأن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا^(١) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

١٢ ب - وأن لا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

١٣- وأن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم أو ابتغى دسيعة^(٢) ظلم أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم.

١٤- ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن.

١٥- وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

١٦- وأنه مَنْ تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

(١) مفرحاً: هو من أثقله الدين والغرم فأزال فرحه.

(٢) دسيعة (الدسع): الدفع. والمعنى: طلب دفعاً على سبيل الظلم أو ابتغى عطية على سبيل الظلم.

- ١٧- وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواءٍ وعدل بينهم.
- ١٨- وأن كل غازية غزت معنا يعقب^(١) بعضها بعضاً.
- ١٩- وأن المؤمنين يبي^(٢) بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.
- ٢٠- وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.
- ٢٠ب- وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن.
- ٢١- وأنه من اعتبط^(٣) مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود^(٤) به إلا أن يرضى ولي المقتول (بالعقل)، وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه.
- ٢٢- وأنه لا يحل لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة وأمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدثاً أو يؤويه، وأنه من نصره أو أواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

(١) يعقب: أي يكون الغزو بينهم نوباً يعقب بعضهم بعضاً فيه.

(٢) يبي: من أبأت القاتل بالقتيل إذا قتلته به.

(٣) اعتبط: قتله بلا جناية أو جريرة توجب قتله.

(٤) قود: فإن القاتل يقاد به ويقتل.

٢٣- وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله وإلى محمد.

٢٤- وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٢٥- وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ^(١) إلا نفسه وأهل بيته.

٢٦- وأن لليهود بني النجار مثل ما لليهود بني عوف.

٢٧- وأن لليهود بني الحارث مثل ما لليهود بني عوف.

٢٨- وأن لليهود بني ساعدة مثل ما لليهود بني عوف.

٢٩- وأن لليهود بني جُشَم مثل ما لليهود بني عوف.

٣٠- وأن لليهود بني الأوس مثل ما لليهود بني عوف.

٣١- وأن لليهود بني ثعلبة مثل ما لليهود بني عوف إلا من ظلم

وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

٣٢- وأن جَفَنَة بطنٍ من ثعلبة كأنفسهم.

٣٣- وأن لبني الشُّطَيْبَة مثل ما لليهود بني عوف وأن البر دون

الأيثم.

(١) يوتغ: يهلك ويُفسد.

- ٣٤- وأن موالي ثعلبة كأنفسهم.
- ٣٥- وأن بطانة يهود كأنفسهم.
- ٣٦- وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد.
- ٣٦ب- وأنه لا ينحجز على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم، وأن له على أبر هذا.
- ٣٧- وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.
- ٣٧ب- وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم.
- ٣٨- وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
- ٣٩- وأن يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.
- ٤٠- وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.
- ٤١- وأنه لا تُجَار حرمة إلا بإذن أهلها.
- ٤٢- وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مَرَدُّه إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.
- ٤٣- وأنه لا تُجَار قريش ولا من نصرها.

- ٤٤- وأن بينهم النصر على من دهم يشرب.
- ٤٥- وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.
- ٤٥ب- على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.
- ٤٦- وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البرّ المحض من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.
- ٤٧- وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وآثم، وأن الله جار لمن برّ واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ.

في هذا الميثاق وُضِعَ أساس الدولة المحمدية وأصبح المؤمنون والمسلمون رعايا هذه الدولة على اختلاف أجناسهم وعصبياتهم أسياداً أو موالي أمة واحدة دون الناس.

دستور الدولة
المحمدية

هذه الأمة تتعاقد في هذه الصحيفة مع أم أخرى من ديانات أخرى، فينشأ في أول تعاقد لها ميثاق «الأمة المتحدة»

نموذج قديم
للأمم المتحدة

أساسه النصر للمظلوم والنصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وحرمة الأوطان المشتركة وحرمة من يدخل في الميثاق ويقبل جواره، على أن تصان عقائد المتعاقدين وشعائهم وحريتهم في الدعوة لدينهم مهما تباينت هذه الأديان؛ فهو ميثاق من الأمم الإسلامية واليهودية بل والوثنية، لما في يثرب وقتئذٍ من الوثنيين الداخلين مع طوائف الميثاق المكونين لأطراف العقد. ولو كان في المدينة حينئذٍ مسيحيون لنص عليهم الميثاق.

ولقد سبق الإسلام بهذا الميثاق عهد «عصبة الأمم» ثم «هيئة الأمم المتحدة» بأكثر من ثلاثة عشر قرناً. وهذا التحالف ابتداءً به رد الفعل لاضطهاد وظلم دام أربع عشرة سنة، لم تمنع منه عظة حسنة، ولا لين ولا قربى ولا رحم ولا هجرة.

سلطت قريش ومن معها جميع أنواع الأذى والظلم، فأصابت المسلمين في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ومزقتهم وشتتتهم في الأرض، وهم يأبون الرد، ويدعون إلى تحكيم العقل، ويناضون ليتبين الرشد من الغي، لا يدفعون قوة بقوة، ولا يلجأون إلى عنف.

فلما بلغ السيل الزبى جاء أمر الله وأذن بالقتال وأُحِلَّت
الحرب للدفاع عن النفس وعن الوطن وعن حرية العقيدة، ونزل
حكم الله في هذه الآية الجليلة.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ
نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ
يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ
صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ
كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ.
الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ
وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج / ٣٩-٤١].

الإذن
بالحرب
الدفاعية

وضع الرسول الأساس المتين للدولة العالمية وللعلاقات
الدولية في الميثاق الذي ذكرنا على أساس الحرية للمشاركين
فيه والاستقلال.

ثم نزل حكم الله بإباحة الحرب لأغراض سامية محدودة،
منها ما هو سلبي، وهو دفع العادية ومنع الظلم، ومنها ما هو
إيجابي وهو الخير العام أو الصالح العام فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ

حرب للأغراض
السامية

مَكَّنْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا
بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿[الحج / ٤١].

فتبين الواجب بعد النصر، وحُدِّد المقصود منه، فليس
توسعا في الملك كما تفعل الدول المستعمرة، وليس تعجيزا
للآخرين وإنهاكا لهم ليضعفوا عن المزاخمة في العيش، ويُطْرَدوا
من الأسواق وميادين التجارة، ولا لوضع اليد على موارد
الثروات وكنوز الأرض وخامات الصناعة ليستأثروا بها، ولا علوا
واستكبارا في الدنيا، لكي تكون أمة أربى من أمة، وجنس أعلى
من جنس، ولكن لغاية واضحة محددة، هي أن يقيموا الصلاة
ويؤتوا الزكاة ويأمرُوا بالمعروف وينهَوْا عن المنكر.

ولما حاول الأوروبيون والأمريكيون بعد أن أكلتهم الحرب
العالمية الأولى أن يبينوا الحالات التي تكون الحرب فيها مشروعة،
وأن يحددوا أغراضها، ويسيطروا على شهواتهم، فعقدوا لذلك
المواثيق في عصبة الأمم وفي ميثاق (كيلوج)، استبشرنا وقلنا إن
سنن محمد ﷺ قد أخذت تسود التفكير العالمي. وإنا لندرجو أن
تكون الحرب العالمية الأخيرة خاتمة الضلال، وأن يجد الناس
في قواعد العلاقات الدولية التي سننتها الشريعة المحمدية هدى

ومخرجًا مما هم فيه. فميثاق محمد مع اليهود والمشركون في المدينة هو أول عهد دولي في سبيل صيانة السلم على أساس المنفعة العامة والحرية للجميع.

ومشروعية الحرب لدفع الظلم وضمان الحرية، وتحديد الغرض منها بالخير العام، هما أيضًا الأساس الصالح الذي يجب أن تُبنى عليه العلاقات الدولية في المستقبل.

تنظيم علاقات
الشرخير

أتت الشريعة المحمدية قبل ثلاثة عشر قرنًا بنظام كامل من عهود التحالف والتكافل والتحكيم، وجعلت الحرب ضد المعتدين زجرًا وتأديبًا لا محوًا وتعذيبًا ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال / ٦١] ﴿وَأَنْ أَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة / ٤٩] ﴿فَقَاتِلُوا آلَ بَغْيٍ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات / ٩].

وسيتبين في الفصول التالية هدى الإسلام في سبيل التنظيم الدولي وإقرار السلم الدائم على أساس العهود المقدسة الصالحة.

الحرب المشروعة

تحديد أسباب الحرب وأغراضها - الحرب الدفاعية هي
المباحة - وصايا وتحميس إذا وقعت الحرب - الإسلام
دين عملي - فريضة الجهاد على المسلم والمسلمة -
الحرب الهجومية غير مباحة - الحرب لأغراض مادية
غير مشروعة - ضرورة تقدر بقدرها - الضعف والذل
ظلم للنفس.

أشرنا إلى ما كان من اضطهاد وظلم للمسلمين استلزم
الإذن بالقتال، وقد أصبحوا في منعة بالهجرة إلى المدينة وبالميثاق
الذي عقدوه مع جيرانهم من أهل الملل والنحل الأخرى.

تحديد أسباب
الحرب وأغراضها

والآن لننظر في الحرب من الوجهة الإسلامية: أسبابها
وملابساتها وأغراضها؛ فإن ذلك مما يعين على تصور حالة
قد يكون فيها العلاج لداء العالم الحاضر، ويفتح الأذهان إلى
الهدى والتبصر.

أُذِنَ بِالْقِتَالِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِإِنْتِهِمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصَّوْمِعُ وَبِيعَ صَلَوَاتُ وَمَسْجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿[الحج / ٣٩-٤١].

فالإسلام حين أباح الحرب قد علل هذه الإباحة، وحدد المقاصد والأغراض منها: فهي دفع الظلم، واحترام حق الإقامة، والحرية في الوطن، ومنع الفتنة في الدين، وكفالة حرية العقيدة للناس جميعاً.

وهذه الحرية للناس جميعاً واضحة من تعدد أماكن العبادة لمثل مختلفة، من صوامع وبيع للنصارى وصلوات لليهود، ومساجد للمسلمين؛ فقد أباح الحرب لصيانتها من عدوان المعتدين. كذلك يقول تعالى:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة / ١٩٣].

ففي هذه الآية الجليلة تعلو الدعوة المحمدية على جميع الدعوات؛ لتحديدها الغرض من الحرب برد الطغيان، وبإسقاط مشروعية الحرب بمجرد أن ينتهي المعتدي من إسرافه وإعناته في فتنة الناس. وعندئذ لا يتجدد القتال وتستمر الحرب إلا على ظالم، يصبر على الظلم، ممن يُكرهون الناس على ترك دينهم. والفتنة والإكراه وسلب الناس حريتهم في دينهم أبغض إلى الله حتى من إزهاق النفوس ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ [البقرة/ ٢١٧].

الحرب الدفاعية
هي المباحة

وإذا تقصينا آيات الكتاب الكريم في القتال، ورجعنا إلى ظروف التنزيل، وتتبعنا الحوادث في حياة الرسول وحروبه وسراياه، حرباً حرباً وسريّة سرية ما خالطنا شك في أن الحرب المشروعة في الإسلام هي الحرب الدفاعية. ولا يسمح المقام باستقصاء وتفصيل للحوادث؛ ففي كتب السنة والكتاب الكريم وكتب السيرة من البيان والتفصيل ما يعين الباحث على الاطمئنان لما ذكرنا من أغراض الحرب المشروعة الإسلامية، ومن

التزام الإسلام جانب الدفاع. وما جاء من قتال المشركين حيث وجدوا، والإغلاظ عليهم، والقيود لهم كل مرصد، والتنكيل بهم من خلفهم، وشدّ الوثاق، هو ما كُلفنا به بعد وقوع الحرب، فهو نتيجة لها لا سبب لإعلانها.

وصايا وتحسيس

إذا وقعت الحرب

فأقواله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُنْسِ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة / ٧٣].
﴿وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة / ٣٦]. ﴿فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ. أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً كَتَبْنَا لَهُمْ أَنْ تَخْشَوْهُمْ قُلُوبُكُمْ أَنْ تَخْشَوْهُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ صُدُورِ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ. وَيَذْهَبُ غِظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة / ١٢-١٥].
﴿وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال / ٣٩]. ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ [البقرة / ١٩١]. ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ

﴿الله﴾ [التوبة / ٤١]. ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ
عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِدُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ
يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال / ٦٥]. ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ
كَأَفَّةٍ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَأَفَّةٍ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة / ٣٦].

هذه الأقوال إنما هي آيات توحى إلى القارئ بنفسها أن
حالة الحرب قائمة، وأنها تحريض على الاستمرار فيها والصبر
عليها والترغيب في الوصول بها إلى خاتمة يُطمأن إليها، من الأمن
والسلام للمؤمنين، والحصول على ثبات واستقرار للدين، ومنع
من الفتنة والارتداد بضغط المشركين وقهرهم، وأمل في أن
ينتهي المعتدون عما هم عليه.

الإسلام دين
عملي

ومن مزايا الشريعة المحمدية الجليلة أنها شريعة عملية تُواجه
الحقائق البشرية والفطرية، وتُجابه المعضلات بالحل العملي؛ فما
دامت الموعظة الحسنة لا ترد الظلم والاعتداء، وما دام أعداء
الإسلام لا يرضون حسن الجوار والعهد القائم على الإنصاف
وحرية العقيدة، وما دام أهل الشر ذوي سلطان خطر، فإن
الحرب واقعة بين الناس؛ فلم يقف الإسلام أمام هذه الحقائق

مكتوف اليدين بل واجهها بالحزم والعزم اللذين لآزما الرسول في دعوته طول حياته، فأمر بالاستعداد لها: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال / ٦٠] فجعل العدة نفسها للإرهاب الذي قد يمنع الحرب ويحفظ السلم.

وحين لم يبق للمسلمين سبيل إلا الحرب، وأصبح حقهم في ذلك واضحا، أُبيح القتال وكانت السلم هي المقصد الأسمى له، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة / ١٩٣] ولقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال / ٦١].

وما أحسن قول (شوقي) في هذا المعنى:

وَالْحَرْبُ فِي حَقِّ لَدَيْكَ شَرِيعَةٌ وَمِنَ السُّمُومِ النَّاجِعَاتِ دَوَاءٌ

فإن قامت الحرب الدفاعية المشروعة وقد استحكمت أسبابها، وجب القتال على الناس كافة، وأصبحت فريضة الجهاد على كل مسلم ومسلمة تؤدّي من صميم الوجدان وفق أوامر القيادة الإسلامية الممثلة في شخص ولي الأمر. وعندئذ تتجلى الهمم العالية التي يريد بها الإسلام، فيُحرّم النكوص والفرار،

فريضة الجهاد
على المسلم
والمسلمة

وَيُطَلَّبُ الصبر والمصابرة، والفداء والاستبسال وبذل الأرواح والأموال بسخاء، وهجر المنازل والأوطان في حالة استيلاء العدو عليها.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ . وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِنَالٍ أَوْ مَتَحَرِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال / ١٥-١٦].

ولا يكلف الإسلام الناس بقتال عنيف يستحقون على الفرار منه لعنة الله وغضبه وعذابه إلا إذا كان هذا القتال حقاً مشروعاً، دفاعاً عن أقدس ما يدين له المؤمن. وهو في هذا التكليف يأمر المؤمن، بالصبر والثبات وألا يُولي الكفار دُبْرَهُ، حتى ولو كان يقاتل بنسبة واحدٍ لعشرة! والتكليف بهذا هو التكليف بالمستحيل إن لم يقتنع المقاتل تمام الاقتناع بأنه يقاتل عن حق لا محل للشك فيه، هو حق الدفاع عن النفس والعقيدة ضد من يعتدي عليهما.

ولا يمكن في حرب العدوان أن يُحْمَلَ الناس على الصبر واحداً لعشرة، وهم يعرفون أنهم هم الذين اعتدوا وأضرمو نار

الحرب؛ فإنهم عندئذ لا يجدون من أنفسهم صبراً؛ إذ لا داعي للقداء بالنفس والرغبة في الموت دون الحياة.

فتلك الآيات الجليلة التي تحرض على القتال والاستبسال والاستشهاد والتشديد على العدو ومفاجأته والغلبة عليه والتربص له، وسدّ جميع المسالك والمنافذ في وجهه، والتي تدعو إلى بذل الأموال وهبة النفوس وهجر الأوطان في سبيل نصر الله، واضحة في أنها تحرض على حرب دفاعية مشروعة بشريعة الإسلام.

وإذا يظهر لنا من مجموع آيات الكتاب الكريم الواردة في القتال، ومن عمل النبي نفسه في سنّته، ومن السيرة وتاريخ حروبه، أن الإسلام لا يبيح حرب الاعتداء، ولا يُحلّ الحرب لعرض الحياة الدنيا؛ فعند الله مغام كثيرة. أما الغايات الأخرى التي يقاتل من أجلها الناس، كسيادة عنصر على عنصر، أو شعب على شعب، أو استعلاء ملك على ملك، أو طبقة من الطبقات الاجتماعية على طبقة أخرى، أو توسيع رقعة مملكة، أو أغراض حربية واستراتيجية، أو الأغراض الاقتصادية، أو الاستئثار بالمواد الخام والأسواق التجارية، أو تمدين المتخلفين عن الحضارة، أو غير ذلك مما تتخذه الدول وسيلة لإشعال الحرب

الحرب الهجومية
لا يبيحها
الإسلام

الحرب لأغراض
مادية غير
مشروعة

ونقض العهد وهدم السلم الدائمة، فليس ذلك كله في شيء مما أباح الإسلام القتال لأجله؛ ذلك لأن غايات الإسلام إنسانية سامية يعم نفعها الناس جميعاً، ونظرته علوية تقع على البشر جميعاً كأسرة واحدة متكافلة. والله تعالى ليس ربّ المسلمين وحدهم، بل رب العالمين.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات / ١٣]، «كلكم من آدم وادم من تراب»، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء / ٩٤]، ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة / ٨-٩]، ﴿فَإِنْ أَعْرَضَ لَكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء / ٩٠].

ضرورة
تقدر بقدرها

فالإسلام على استعداد دائم لعقد اتفاقات متنوعة مع جيرانه والأمم الأخرى تكفل دوام السلم، ولا تكلف هذه

الأم أكثر من أن تكون لها رغبة حقيقية في السلم، ونية صادقة للوفاء بالعهد، وهو مع هذه الرغبة الأكيدة في دوام السلم لا يستعجل الحرب ولا يباغت بها، بل يقيم حجته ويبسطها لمنزاعه وينذره، ويضع أمامه المخارج من مأزقه، فإذا عاند وأبى إلا قتالاً وأصر على عدوانه، كانت الحرب، وكان ذلك التحريض عليها والاستبسال والفتك بمن اعتدى، والصبر والمصابرة والبذل والتضحية والهجرة وكل ما ينطوي عليه الفداء بالأموال والأنفس مما جاءت به الآيات الجليلة التي ذكرنا بعضها، والتي يتخذها بعض الناس، وخصوم الإسلام وسيلة لتصوير الدعوة المحمدية بأنها دعوة دموية جعلت الحرب عنصراً دائماً لقهر الناس واستباحة أموالهم وأنفسهم.

فالدعوة المحمدية واضحة النهج مستقيمتة، ابتدأت بتحريم القتال، فلما ظلم أهلها واستحال ظهورها بغير دفع القوة بالقوة، أباحته، فلما أذنت به أمرت بأن يكون على أكمل وجه يؤدي للنصر، فلما كان لها النصر، نادى بأن ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة / ٢٥٦].

وهي دعوة موفقة تواجه الحق بالحق وبالصرامة والإخلاص.
فما دام أهل الشر لا يريدون إلا شراً فإن من ظلم النفس أن
يصبر الناس على الضيم، وأن يُسْتَضْعَفُوا في الأرض.

الضعف والذل
ظلم للنفس

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ
كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ
اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ
مَصِيرًا . إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا
يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا . فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ
يَعْفُو عَنْهُمْ ﴾ [النساء / ٩٧-٩٩].

فكما أن الدعوة المحمدية بغضت أتباعها في العدوان
إذ قال الله تعالى ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة / ١٩٠]، أمرت كذلك بالهجرة عن
الأوطان، بل بالاستشهاد والموت دون قبول الذل والهوان.

العرب لنصرة المظلوم

مبدأ شريف في الجاهلية والإسلام - قصة حلف الفضول - حلف مرغوب فيه دائماً - لا تحالف في الإثم والعدوان - وصايا قرآنية بالعدالة المثالية - حرب أخرى مشروعة - حلف جاهلي آخر يعدد بروح إسلامية - المسيحية والحرب - اختلاف المسيحيين فيها - الحرب العادلة عند بعض المسيحيين - لجوء المسيحيين إلى شبيهة بالنظرية الإسلامية.

مبدأ شريف
في الجاهلية
والإسلام

مما يشرف الدعوة المحمدية أنها أباحت القتال، بل جعلته من الفضائل لردّ المظالم ودفع العدوان عن الضعيف، سواء أكان فرداً أم جماعة، رغبة منها في إقامة العدل الذي يريده الله على الأرض.

وقد جلس رسول الله ﷺ لرد المظالم، كما جلس لذلك خلفاؤه من بعده، وبيده سلطان الدولة لقهر المعتدي ودفع الظلم.

قصة حلف
الفضول

وأقر ﷺ (حلف الفضول)، وهو ذلك الحلف الذي عقد في الجاهلية لنصرة المظلوم، وقال لو دُعيت إليه في الإسلام لأَجَبْتُ.

وسبب ذلك الحلف أن رجلاً من اليمن قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه رجل من بني سهم، قيل إنه العاصي بن وائل، وامتنع بسلطانه عن أن يدفع للرجل ثمن بضاعته، أو يرد إليه ماله، فقام الرجل بجوار الكعبة وصرخ بأعلى صوته:

يَا لِقُصَيِّ الْمَظْلُومِ بِضَاعَتِهِ بِيْطْنِ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَرِ!

فقام نفر من قريش وردوا عليه ماله، ثم اجتمع بنو هاشم والمطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة في دار عبد الله بن جُدعان وتحالفوا على رد المظالم وإنصاف المظلوم من الظالم. وكان النبي ﷺ معهم، وسنه وقتئذ خمس وعشرون سنة، وكان إذا ذكر حلف الفضول يقول «لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدعان حلف الفضول، أما لو دُعيت إليه في الإسلام لأَجَبْتُ، وما أحبُّ أن لي به حُمَرَاءُ النَّعَمِ وَأَنْتَى نَقَضْتَهُ، وما يزيده الإسلام إلا شدة».

فإذا قد أقرّ النبي ﷺ حلفاً تعاقد فيه طائفة من الناس على القتال لنصرة المظلوم، وقال إنه يفضل على خير ما في دنياه.

وبذلك أصبحت الدولة الإسلامية مكلفة شرعاً برد المظالم، بل والقتال لنصرة المظلوم.

ونستطيع إذاً أن نقرر أن الإسلام الذي أباح الحرب للأسباب الواردة في الآية الجليلة: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج / ٣٩]. وما بعدها - وقد ذكرناها في الفصل السابق - يبيح القتال كذلك لنصرة المظلوم فرداً أو جماعة، مسلماً أو غير مسلم، لأن رسول الله ﷺ الذي نَزَّهه الله عن ضلالات الجاهلية منذ صباه قد اشترك في حلف الفضول قبل بعثته، وأقره في الإسلام، وقال إن الإسلام لا يزيده إلا شدة.

فكما أن الحرب تقع للدفاع عن النفس من مظلوم ضد ظالم، فإنها تقع كذلك من قَوِيٍّ على قَوِيٍّ لنصرة مظلوم لا ينتمي لأحدهما. وإذا يجوز لدولة إسلامية أن تتحالف مع دولة أو دول أخرى لدفع الاعتداء والظلم عن المظلومين.

فارتباط مصر كدولة إسلامية في ميثاق (هيئة الأمم المتحدة) مثلاً لا ضرر فيه من الناحية الشرعية. ومتى حسنت النية وكان الميثاق قائماً على حب الخير والعدل والإنصاف وحماية المظلوم ومنع الاعتداء بالقوة فإنه يكون ميثاقاً مرغوباً فيه من المسلمين، حكمه حكم حلف الفضول الذي لم يزد الإسلام إلا توثيقاً وشدة، والذي كان من أحب الأشياء إلى قلب رسول الله ﷺ.

حلف مرغوب
فيه دائماً

أما إذا كانت المواثيق للتعاون على الظلم ولقهر المغلوبين واستباحة المستضعفين، فإن الإسلام يعدها تعاوناً على الإثم والعدوان الذي ينهى عنه، وبعداً عن التقوى والبر الذي يدعو إليه. قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا نَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة / ٢]. والأعمال في الإسلام كلها مرجعها النية فهي التي تصلحها أو تفسدها، والعبرة فيها بما تقصد إليه من خير، وما تريده من العدل الذي هو أساس نظام الخليقة كلها. يقول تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن / ٧] ويقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء / ١٣٥] إلى آخر الآيات التي ذكرناها في فصل سابق.

لا تحالف في
الإثم
والعدوان

فكتاب الله وسنة رسوله وأئمة المسلمين متفقون على أن العدل هو غاية الشريعة. وعليه فإن القتال لنصرة المظلوم من عباد الله هو أمر يستحق ثواب الله، وللدولة المسلمة أن تعلن الحرب وهي في حدود الشريعة ما دام مقصدها الإنصاف ودفع الظلم عن الغير.

حرب أخرى
مشروعة

وفي نظري أن هذه هي الحالة الوحيدة التي تكون فيها الحرب مشروعة ولو لم تكن دفاعية بالنسبة لجماعة المسلمين الذين هم في منعة بقوتهم عن أن يُعتدَى عليهم.

وعلى هذا الأساس يجوز للدولة الإسلامية كما قلنا أن تشترك في ميثاق كميثاق (هيئة الأمم المتحدة) مثلاً متى ثبت لها أن ذلك يقيم العدل بين الناس، كما أن لها أن تدعو إلى ميثاق أو حلف لرد المظالم وإنصاف المستضعفين.

وليس لها بالطبع أن تقاتل أو تشترك في قتال تُدعى إليه ما لم تتبين بكيفية لا محل للريب فيها أنها تقاتل دفاعاً عن النفس، أو دفعاً لظلم بين يقع على مُستَصرِخ مُستَضعِف لا يكون العدل والإنصاف إلا بإغاثته ونصرته، كالحالة التي أشرنا إليها في حلف الفضول.

وثمة حلف آخر عُقد في الجاهلية وجُدّد في الإسلام، وهو
بَيْنُ في إباحة الحرب لنصرة المظلوم، وبَيْنُ في منع التعاون على
الباطل والاعتداء.

حلف جاملي
آخر يحدد
بروح إسلامية

في هدنة الحديبية بين قريش والرسول ﷺ، كان الشرط
الرابع من شروط الهدنة «أن من دخل في عهد قريش دخل فيه،
ومن دخل في عهد محمد دخل فيه» وبناء على هذا الشرط
تحالف بنو بكر مع قريش، وتحالفت خزاعة مع النبي ﷺ، وكانت
قبيلة خزاعة حليفة في الجاهلية لعبد المطلب جدّ النبي ﷺ،
فأرادت خزاعة أن يكون ميثاقها مع الرسول مجدداً كما كان
مع آبائه.

وهذا نص محالفتها مع عبد المطلب «باسمك اللهم. هذا
حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة حلفاً جامعاً غير مُفرّق،
الأشياخ على الأشياخ، والأصاغر على الأصاغر، والشاهد على
الغائب، وقد تعاهدوا وتعاهدوا أوكد عهد وأوثق عقد لا يُنقض
ولا يُنكث ما قام الأخشبَان (جبلان بمكة) واعتمر بمكة إنسان.
وإن عبد المطلب وولده ورجال خزاعة متضافرون يتعاونون، وعلى
عبد المطلب النصرة لهم، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب

وولده على جميع العرب في شرقٍ وغربٍ وحَزَنٍ وسَهْلٍ، جُعِلَ
الله على ذلك شهيداً وكفى به وكيلاً».

فأقر النبي ﷺ نصوص هذه المحالفة وجدّد عهدها؛ غير أنه
زاد فيها شرطين: الأول ألا يعين خُزاعة إذا كانوا ظالمين، والثاني
أن ينصر خُزاعة إذا ظَلِمُوا، وبعد أن زاد هذين الشرطين كُتِبَتْ
نسختان من هذه المعاهدة تَسَلَّم كل طرف نسخة منها.

لم تكن خُزاعة وقتئذٍ قد أسلمت بل كانت لا تزال على
شركها، وكل ما بينها وبين الرسول هو تلك العلاقة الجاهلية
التي كانت مع جده، وكان أساسها تحالفاً على الحق والباطل.
فَشَرَطَا الرسول ﷺ في هذه المحالفة يَدُلَّان على عدة أشياء.

أولاً- أنه لا يُقَرَّ المحالفة على أساس تعاون غير معينٍ قد يجرّه
إلى باطل، وهو الذي بعثه الله لإقامة العدل، بل اشترط
فيها صراحة ألا يُعِين خُزاعة حليفته إذا كانت ظالمة.

ثانياً- أنه لا يمتنع عن نصرة مظلوم ولو كان مشركاً.

ثالثاً- أنه تعهد بنصرة هذا المظلوم ولو أنه مشرك مخالف في
الدين.

رابعًا- أن أساس الحرب المشروعة هي الحرب الدفاعية، سواء أكانت هذه الحرب دفاعًا عن النفس أم دفاعًا عن طرف ثالث يستحق النصر، وهي مباحة في حالة عدم الالتزام بها، وواجبة في الحالة المماثلة لحالة خزاعة، إذا كانت لنصرة معاهد مظلوم.

لقد حاولت بعض الأديان الأخرى قبل الإسلام أن تخفف من ويلات الحرب، وأن تضعف من شرها وأن تحدد بلاءها، حاولت محاولات صادقة ولكن مع الأسف قد طغت طبيعة الشر.

جاءت المسيحية بتحريمها الحرب بتاتا بقول السيد المسيح عليه السلام في إنجيل متى «أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضًا، ومن سخرّك ميلاً واحداً فاذهب معه ميلين».

المسيحية
والحرب

ويستند كذلك أنصار الرأي القائل بتحريم الحرب تحريمًا مطلقًا إلى قول المسيح عليه السلام للقديس بطرس «أعد سيفك إلى مكانه؛ لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون» وعلى هذا تكون المسيحية تحرم الحرب بل التسليح أيضًا.

ولكن المسيحيين اختلفوا فيما بعد؛ فبينما كان رجال الكنيسة الغربية في القرون الأولى للمسيحية يقاومون بكل سلطانهم الحرب حتى ولو كانت دفاعاً عن النفس، فإن رجال الكنيسة الشرقية في بيزنطة قد خلطوا بين شخص الإمبراطور سيد العالم وبين الرئاسة الدينية، فجمعوا في ذاته سلطان الله وسلطان الدولة، وسارت بيزنطة في طريق مخالف تماماً لرأي رجال الكنيسة الغربية، فلم تكتف بتحليل الحرب التي حرّمها المسيح، ولا هي اتخذت طريقاً وسطاً فأحلتها للدفاع عن النفس أو نصرة المظلوم كما فعلت الشريعة المحمدية، ولكنها رضيت أن يكون حق إعلان الحرب حقاً مطلقاً للإمبراطور، لا يحده إلا المصلحة التي يراها ذلك الإمبراطور جامع كل السلطات.

لقد كان ظهور المسيحية في العصور الأولى خيراً وبركة على البشر، فقاومت أصول الشرّ في نفوس أتباع المسيح، وصانت دماء غزيرة كان يريقها السلب والنهب والعدوان والطغيان. ولا شك أن المسيحية استمرت طويلاً تكافح إلى أن نسي الناس دين المسيح ودعوته، وأقاموا من شهواتهم وأغراضهم ومصالحهم كل الأسباب لحروب الطغيان التي اکتوى البشر بنارها في الشرق والغرب طول العصور الوسطى وما بعدها إلى يومنا هذا.

اختلاف
المسيحيين

الحرب العادلة
عند بعض
المسيحيين

ولقد بذل رجال من المسيحيين حياتهم في سبيل التمسك
بتحريم الحرب بل تحريم صناعة الجندية، وبذل آخرون جهوداً
جبارة في سبيل التوفيق بين نص الإنجيل وضرورات الدولة،
فخرجوا بالتفريق بين الحرب المباحة والحرب الممنوعة، وأثاروا
البحث فيما هي الحرب العادلة؟ فحددها بأن يعلنها الأمير،
وأن تكون عادلة، واشتروطوا فيمن يعلنها أن يكون سليم النية
صادقاً بلا طمع ولا وحشية.

والحرب في نظر هؤلاء المصلحين من المسيحيين تعتبر
وسيلة لتنفيذ حكم عادل قضى به قاض، فلا تبعثها الأنانية وإنما
يحدوها العدل وتلبسها الرحمة.

ولا يسمح المقام بسرد النظريات المسيحية وتطورها، فيمكن
للراغبين في التفصيل الرجوع إليها في مراجعتها.

ولكننا نستخلص من ذلك الجدل وتلك الأبحاث، بعد أن
دامت أكثر من ألف سنة، أنها اهتدت إلى مبادئ هي أشبه شيء
بالقواعد الإسلامية للحرب المشروعة والحرب العادلة التي أشرنا
إليها في هذا الفصل وما قبله.

وفي اعتقادي أن القواعد الإسلامية هي الأسس الصحيحة التي جمعت بين ما يقتضيه إقامة صرح العدل العالمي، وما تقتضيه الرحمة والأخوة البشرية، وما يقتضيه الإنصاف وكبح أهواء النفوس الشريرة، وما يقتضيه صون الدماء وإقامة السلم الدائمة على حرمة مقدسة.

لجوء المسيحيين
إلى شبيه بالنظرية
الإسلامية

لذلك فإني أدعو ذوي البصيرة والنظر لاستمداد الشريعة المحمدية في وضع نظام للعلاقات الدولية والسلم العالمي؛ فعلى ضوء المبادئ السامية العملية التي دعا إليها محمد ﷺ يمكن تجديد ميثاق جامعة الأمم، ويمكن اجتناب اتخاذ الحرب وسيلة لتحقيق الأغراض والمطامع البشرية.

﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران / ١٠٤].

ولتكن روح هذه الآية الكريمة روح الميثاق الدولي:

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات / ٩].

ولا شك أن هذا النظام للمؤمنين يمكن أن يكون نظاماً للناس جميعاً، ويمكن للدول الإسلامية أن تتعاهد عليه، وأن تقاتل لاحترامه ورد من ينتهك حرمة.

«وبعد» فالحرب لنصرة المظلوم لا يُراد بها أغراض دنيوية ولا تحقيق مطامع دولية، ولا شفاء حسد أو حقد، وإنما تقع لمجرد إحقاق الحق ودفع الباطل. وهي حالة ظاهرها التدخل بين طرفين آخرين والاعتداء على أحدهما لنصرة الآخر، إلا أن حقيقتها الدفاع، لأن المقصود منها رد العدوان عن مستضعف. وإذا اعتبرنا أن التكافل البشري سبب العمران، وأن العدل أساسه، فالحيلولة بين المعتدي وبين نقض أساس العمران هي دفاع عن العمران نفسه، وهو على هذه الصورة دفاع حتى عن المعتدي بمنعه من شر نفسه. وإذا قيل إن هذا يأذن بالتدخل المستمر في شئون الغير، والتدخل اعتداء من الدولة الإسلامية، وقيل إن الدولة غرضها نفسها، وليس لها أن تقيم من نفسها شرطياً عالمياً، قلنا إن هذه هي الحالة الوحيدة في نظرنا، وهي مبررة، وإن العالم يحس من أعماق نفسه الحاجة إلى من يُنصف المستضعف، وإن العالم بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً من حلف الفضول وحلف خزاعة، حاول أن يقيم في ميثاق هيئة الأمم المتحدة عهداً مماثلاً

نصرة المظلوم
ضرب من
التكافل

لما أرادہ الإسلام من نصرة المظلوم، فأقر مبدأ التدخل الدولي للسلامة الدولية، وإحقاق الحق وإزهاق الباطل. والعبرة في الأعمال بالنية، فهي التي تصلح الأعمال أو تفسدها. ولا شك في حسن نية الدولة الإسلامية ما دام الباعث لها على التدخل الذي يجر إلى الحرب هو ما يوصي به الضمير وتستلزمه العقيدة من غرضٍ سامٍ يُقصد به وجه الله وحده وإحقاق الحق.

✻ أدب الحرب

الحرب والرق والقضاء عليهما تدريجيًا - أدب عام وأدب خاص - بين الإنذار والمباغته - حماية حقوق المستأمن المنتسب للعدو - من سماحة الفقهاء - واصل بن عطاء والخوارج - مسالمة غير المحاربين - الغارات العصرية على الأمنين - فرار إلى وصايا الرحمة في الأديان - التخريب القاسي - حوادث ونصوص - نظرات في أحكام الأسر والاسترقاق - حادثة بني قريظة وغموض بعض ظروفها - لا قتل بسبب الشرك أو الكفر وحده - احترام للنفس البشرية لا يعرف التخصيص - آداب أخرى للحرب

الحرب والرق
والقضاء عليهما
تدريجياً

أجازت الدعوة المحمدية الحرب في أضيق نطاق كما تغاضت عن الرق لأنه كان أيضاً نظاماً عالمياً، وعملت تدريجيًا على منع الحرب ومنع الرق بأساليبها المختلفة، وجعلت القاعدة العامة بالنسبة للأسير المَنّ أو الفداء، فصار تشريعها العام بالنسبة للأسير مانعاً للرق. وبالحض بجميع الوسائل على تحرير الرقيق، وتخصيص سهم من الزكاة لفك الرقاب، وبالإحسان إليه وفقاً لآداب خاصة تستلزمها الشريعة ويستلزمها الورع،

قاومت الدعوة المحمدية الرق مقاومة كانت بالتدريج أفعل في تهيئة الضمير البشري للقضاء عليه من المفاجأة بالتحريم البات.

كذلك الحرب، جاءت الدعوة المحمدية والقتال نظام عام متأصل في نفوس البشر وفي حياتهم الاجتماعية، فلم يبدأ الإسلام بتحريمها، ولكنه حصرها في دفع العدوان ونصرة المظلوم فحدد أغراضها، ثم أمر بوقفها بمجرد جنوح الخصم إلى السلم، وأنهاها بالعهد والمواثيق التي لها حرمة الإيمان، حتى جعل حق الميثاق فوق حق صلة الإسلام، فأحاط الحرب بحدود ونظم وأسباب وأغراض وعهود وعُرف في أثناء القتال، بما يقلل وقوعها ويخفف من ويلها. ولو أن المسلمين وُفِّقُوا في هذه كما وفقت الدعوة المحمدية في مقاومة الرق لشمل العالم سلام دائم كما شمله اليوم النور من الرق. وإنا لنرجو أن يستدرك هدفها وتسود نظريتها، وقد طغى شر الحرب إلى درجة غير مسبوقة. ولا يزال أمام العالم مجال إذا اهتدى بهدي الإسلام.

عرفت الدعوة المحمدية الحرب شرًا واقعًا متأصلًا فأحاطتها بأدب عام من تعيين غرضها، وحصرها في دفع العدوان وحماية حرية العقيدة، وإنهاؤها بالعهد المصونة العادلة، وإحاطتها كذلك بأدب خاص أثناء الحرب نفسها، وفيما يجب أن يكون بين

أدب عام
وأدب خاص

الإذار

المتحاربين من عُرِفَ يرعونهُ؛ فمتى وقع بين المسلمين وغيرهم ما يستوجب الحرب، وجب على المسلمين أن يندروا عدوهم بِنِيَّتِهِمْ، ويمهلوه للرد والتفاهم إن أراد. وقد قال بعض الفقهاء إن هذه المهلة التي تعقب ما يسمى اليوم بالإذار النهائي يجب أن تكون كافية ليخبر العدو بها أطراف أهله ودولته، وهو أدب يتفق مع القانون الدولي الحديث. ولكن بعض الدول في هذا العصر تختار المباغته بالحرب والهجوم على الخصم من غير إذار، بل قد بلغ من احتياط بعضها لتتمكن من تمام المفاجأة للدولة الأخرى أن تتظاهر بالرغبة في دوام السلم، وأكثر من ذلك أن تخفي غضبها وتظهر عدم اهتمامها بالنزاع الذي تنوي الحرب من أجله!

افْتَنَّ أهل الحضارة الحديثة في الخديعة إلى درجة غير مسبوقة في تاريخ الأقاليم، حتى صاروا يعقدون عهوداً المقصود منها تغفيل المعاهد وطمأنته، حتى تكون مباغتته وأخذه على غِرَّةٍ كاملة.

ذلك أدب جديد، أو سوء أدب جديد في الحروب، ليس أبغض إلى الإسلام منه. والشرعية المحمدية تأباه روحاً وفعلاً، وتعد فاعله أثماً مستحقاً غضب الله.

والشريعة الإسلامية بعد أن تنذر الخصم بالحرب، وبعد أن تنقطع الحجة، لا تلجأ إلى مثل ما تلجأ إليه الدول في العهد الحاضر من مفاجأة المستأمنين في ديارها من رعايا الدولة أو الجماعة التي أعلنت عليها الحرب؛ فللمستأمن في الشريعة الإسلامية حقوق لا يمكن العدوان عليها لمجرد وقوع الحرب بين قومه والقوم الذين ينزل ديارهم، أو يقع في متناول سلطانهم، فلا يجوز الاعتداء عليه بمصادرة ماله، أو الإضرار بعمله أو شخصه، وله كفالة كل ذلك حتى تُهيأ له العودة إلى وطنه الأصلي ويدخل في حماية قومه. عندئذٍ وعندئذٍ فقط يجري عليه ما يجري على المحاربين، وذلك بنص القرآن بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتْلُغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة / ٦] وقد بلغ من حرص المسلمين على احترام حق المقيم في ديارهم والنازل بها عن رضا منهم قبل الحرب أو حتى أثناء الحرب، أن قرر فقهاؤهم أنه يجب على الإمام إذا وَقَّت للمستأمن مدة ألا يجعل هذه المدة قليلة كالشهر أو الشهرين، فإن في ذلك إلحاق العسر به، خصوصاً إذا كانت له معاملات يحتاج في اقتضاها إلى زمن طويل...

حماية حقوق
المستأمن
المنسب للعدو

من سماحة
الفقهاء

وقد بلغ من إنصافهم هذا الأجنبي المقيم في ديارهم، والذي يقاتلون أهله ودولته، أن أباحوا له التمتع بكامل حريته، كأن لم تكن بينهم وبين أهله حرب، ما دام خاضعاً لأحكامهم، مستقيماً في سيره وعمله ولم يركن إلى أذاهم بحال من الأحوال.

أقام الإسلام هذا الأدب مع المستأمن في حالة الحرب على أساس العدل والإنصاف. وما الحروب في جملتها إلا نتائج مباشرة لفقدان العدل والإنصاف.

لطيفة بين
واصل بن عطاء
والخوارج

ومن أظرف ما قرأته مما يدل على مقدار ما للمستأمن من حرمة، ما روي من أن واصل بن عطاء (زعيم المعتزلة) وقع هو وبعض أصحابه في أيدي الخوارج، وهم كما هو معلوم من أشد المسلمين تمسكاً بأهداب الدين وتعصباً في آرائهم، فخشي واصل وأصحابه شرهم، فقال لأصحابه: دعوني وإياهم، وكانوا قد أشرفوا على العطب، فقالوا: شأنك، فخرج إليهم، فقالوا: ما أنت وأصحابك؟ قال: مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ويعرفوا حدوده. فقالوا: قد أجرناكم. فجعلوا يعلمونه أحكامهم، ثم قالوا: امضوا مصاحبين فإنكم إخواننا. قال واصل: ليس ذلك لكم فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ

﴿مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة / ٦] فأبلغونا مأمنا. فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا: ذلك لكم. فساروا بأجمعهم حتى بلغوهم المأمن.

تلك القصة تدل على أن الحرمة التي للمستأمن كانت في نظر بعض أنصار الدعوة المحمدية أعظم من الحرمة التي للمسلم على المسلم، حتى إن أحد علماء المسلمين وجد فيها خلاصاً لنفسه ومن معه من يد مسلمين أشرار يقطعون طريق السابلة ويعصون الإمام.

ومن القواعد الأساسية التي بُني عليها أدب الحرب في الدعوة المحمدية ذلك المبدأ السامي، وهو الامتناع عن محاربة غير المحاربين وقصدهم بالأذى؛ فهو لا يجيز قتل الشيخ أو الصبي أو المرأة أو العجزة، أو من انقطعوا للعبادة أو العلم وامتنعوا بذلك عن أن يشتركوا في القتال، أو العامة من الصنائع والزراع والتجار الذين لا يقاتلون، أو بعبارة أعم، تلك الطبقات التي نطلق عليها اليوم: المدنيين.

مسألة غير
المحاربين

هؤلاء المدنيون لا يجوز قتلهم، وقد بلغ من حرص الشريعة على تجنبهم ويلات الحروب وإبعاد شرها عنهم، وحصر الضرر في القوات المقاتلة أن الفقهاء قالوا بوقف القتال إذا وقع بين صفوف

المقاتلين من لا يجوز قتله، وكان هلاكه محققاً بالاستمرار في القتال.

أين هذا الأدب ونبل الفروسية مما نحن فيه وما صار الناس إليه في الحرب الأخيرة والتي قبلها من إلقاء القنابل على غير هدى، تصيب النساء والأطفال والزراع والصناع والشيوخ والعجزة فتنسف بهم الأرض نسفاً، أو تحرقهم وديارهم حرقاً؟!!

أين تلك الحرمة للنفوس البشرية؟ وأين تلك النظرة للحرب على أنها تحكيم للسيف بين حامله وحدهم من هذا الأدب الحديث الذي لا يشبهه من قرب إلا ما قيل عن المغول أيام (جنكيز خان) ومن بعده، مما لا يزال مثلاً في الغابرين لأقسى ما وصلت إليه وحشية الهَمْج في قتل غير المحاربين وتخریب المدن والقرى؟!!

ليس لما يأتيه اليوم المتحضرون بغاراتهم الجوية، أو مدفعياتهم الأرضية شبيه في السوء والقسوة إلا ما كان أيام ذلك الطاغية المغولي قبل سبعة قرون، بل إن ما يحدث اليوم من استباحة كاملة لكل الحرمات بالغارات الجوية منقطع النظير. والشریعة الإسلامية تحرمه وتأباه في سلطانها وضعفها

غالبة أو مغلوبة. وإن أباح الفقهاء الرد على أعمال التخريب والتقتيل غير المباحة بمثلها متى ابتدأ بها الخصم، مستندين على قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة / ١٩٤] وقوله ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى / ٤٠] فهم متفقون على تحريم الابتداء بهذه الأعمال. وواضح من نص الآية وروحها أن المقصود الرد بالمثل لإندار الخصم وإقناعه بالعدول عما اقترف من إثم. وقوله ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ هو تأكيد كذلك لرغبة الشارع في ألا يجاب على أعمال العدوان المخالفة للرحمة والأدب إلا إذا قضت الضرورة القصوى.

أين هذا العرف الدولي والأدب الحربي الذي تريد تشييته الدعوة المحمدية، فتجعله جزءاً من العقيدة والإيمان بما تفعله الدول اليوم من التعويل على وسائل قتل المدنيين وتخريب العمار وحرق الناس وأموالهم وثمرات الأرض لتخضع خصومها وتجبرهم على إلقاء السلاح!

بل أين هذا بما فعلته بعض دول الحضارة الحديثة من استخدام الأسلحة الجوية بقنابلها ومدافعها الرشاشة لقتال بدو

الغارات العصرية

على
الأميين

لا يملكون من وسائل الحرب غير بنادق من بقية القرن الماضي،
وتسليط هذه المدافع الرشاشة على بيوت من الشعر، وعلى
السائمة من الإبل والغنم في مراعيها؟!!

فرار إلى
أخلاق الرحمة
في الأدب

حقاً لقد آن أن يفزع الناس إلى عقائدهم.. إلى ما جاء به
موسى وعيسى ومحمد، لتكون للحرب حرمت وأداب تخفف
من ويلها، وقد كان الهمج يعرفون بعضها ويرعونها.

وأين ما نحن فيه مع شديد الأسف والحزن بما وصلت
إليه الدعوة المحمدية من الأدب في الحرب، وتقريرها أن ليس
المقصود من الحرب التنكيل والتخريب، بل أن تكون كلمة الله
هي العليا، وكلمة الله لا تكون إلا حقاً وعدلاً وإنصافاً شاملاً
للناس جميعاً؟!!

هذا المبدأ مبدأ الرفق والرحمة حرّم على المسلمين في
حروبهم أن يلجأوا لقهر عدوهم بتجويع الأمة المحاربة، أو منع
أسباب الحياة من قوت أو دواء أو لباس من الوصول إلى غير
المحاربين منها.

التخريب
القاسي

ولقد بلغت القسوة في الحروب الحديثة أن الجيوش إذا
انسحبت من أرض دمرت ما بها، ولو كان في ذلك هلاك أهلها

فضلاً عن أعدائها. وهو عمل لا تبيحه الشريعة المحمدية بحال من الأحوال، فهي فوق أنها لا يمكنها أن تتصور الاعتداء على ممتلكات أهلها ممن تتركهم الجيوش الإسلامية وراءها، بمنوعة قطعاً بدينها من أن تحرق الزرع أو تقطع الشجر أو تحرم المدنيين المقيمين وسائل العيش في الأرض التي صارت ساحة للجيوش المتقدمة والمتأخرة.

ولا خلاف بين المسلمين في أنه يجوز في الحرب قتل المشركين الذكران البالغين المقاتلين، وكذلك لا خلاف بينهم في أنه لا يجوز قتل صبيانهم، ولا قتل نسائهم ما لم تقاتل المرأة أو الصبي^(١)، وإن اختلفوا فيما عدا هؤلاء. والنهج الواضح هو أنه لا يصح القصد بأذى لمن ليس شأنه القتال ممن نسميهم اليوم المدنيين، ولا تخريب العمار وحرق الزرع وقطع الشجر.

روى رباح بن ربيعة: أنه خرج مع رسول الله ﷺ في غزوة غزاها، فمرّ رسول الله وأصحابه على امرأة مقتولة، فوقف عليها، ثم قال «ما كانت هذه لتقاتل!»، ثم نظر في وجوه أصحابه وقال لأحدهم «الحق بن خالد بن الوليد فلا يقتلن ذرية ولا عسيفاً (أجيراً) ولا امرأة».

حوادث
ونصوص

(١) انظر بداية المجتهد ونهاية المقتصد للإمام ابن رشد.

وروى مالك عن أبي بكر الصديق أنه قال «ستجدون قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له، ولا تقتلن امرأة ولا صبيًا ولا كبيرًا هرمًا».

وقال زيد بن وهب، «أتانا كتاب عمر رضي الله عنه، وفيه «لا تغلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليدًا، واتقوا الله في الفلاحين»، وروى كذلك عن عمر أنه قال «لا تقتلوا هرمًا ولا امرأة ولا وليدًا وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند شن الغارات». ويقول الإمام ابن رشد «إنه ثبت عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال لا تقطعن شجرًا، ولا تخربن عامرًا». ولا يجوز لأبي بكر أن يخالف رسول الله مع علمه بفعله من قطع نخل بني النضير. والفقهاء يفسرون ذلك بأن أبا بكر رضي الله عنه كان يعلم أن حادثة بني النضير التي تشير إليها سورة الحشر كانت خاصة ببني النضير، كما أنه لا يُعرف عن رسول الله أنه قتل حيوانًا، والمسلمون متفقون على تحريم المثلّة؛ ولم يذكر الكتاب الكريم حادثة بني النضير في سورة الحشر بتفصيل غير الإشارة إليها في سياق القصة والموعظة، كما لم يشر إلى حادثة بني قريظة إلا على سبيل العظة كذلك بهذه الآية في سورة الأحزاب: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي

قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْزَرَكُمْ
أَرْضَهُمْ وَدِينَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿ [الأحزاب / ٢٦-٢٧] .

وليس في القرآن الكريم نص واحد على قتل الأسير، ولا
على استرقاقه، ولم يُرو عن رسول الله أنه استرق أسيرًا، والنص
الصريح هو تخيير الإمام بين أمرين لا ثالث لهما: المنّ والفداء.
يقول تعالى: ﴿ حَقٌّ إِذَا انْخَضَمْتُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ
حَقٌّ تَضَعُ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد / ٤] . ويقول الإمام ابن رشد
رواية عن الحسن بن محمد التميمي، إن إجماع الصحابة على
أنه لا يجوز قتل الأسير.

نظرات في
أحكام الأسر
والاسترقاق

فالتشريع العام إذاً هو أنه لا يجوز قتل المدنيين، ولا قتل
المحاربين بعد تسليمهم؛ وما شذَّ عن ذلك في الماضي، أو ما
يشذُّ عنه في المستقبل من عمل الإمام المسلم العادل، إنما يكون
لظروف وأسباب خاصة تقتضي تخصيصاً في الحكم.

حادثة
بني قريظة
وغموض بعض
ظروفها

وحادثة بني قريظة تحيط بها أسباب معلومة وأسباب نجهلها.
أما المعلوم فهو أنهم خانوا عهدهم واستغلوا ظروف كرب وقع
للمسلمين لما حاصرت الأحزاب المدينة، وقد زاغت الأبصار

وبلغت القلوب الحناجر، فنقضوا عهدهم، وطعنوا المسلمين من خلفهم.

وسبب آخر، هو أنهم نزلوا على حكم سيد الأوس سعد ابن معاذ، وهم من مواليه فحكم فيهم بما حكم؛ فهم سلموا على شرط، وكان الشرط عليهم. وقيل كذلك، إن ما حكم به عليهم من القتل جاء موافقاً لشرعة اليهود، وإن سعداً حكم عليهم بشريعتهم. والحادث في جملته يُشعر بغموض يكتنفه، مما يدعونا إلى الظن بوجود أسباب أخرى مجهولة لنا.

لاقتل لعة الشرك
أو الكفر وحدها

وما يبرر به بعض الفقهاء قتل المشركين أو من في حكمهم بعة الكفر أو الشرك وحدها، لا يستقيم في نظرنا مع نصوص الكتاب الكريم وروحه في موضوع القتال، ولا مع عمل النبي والمسلمين في فتوحاتهم أربعين سنة من الهجرة إلى نهاية أيام الخلفاء الراشدين.

أدلة العقل

والقول بالقتل لعة الكفر لا يستقيم في دين يجعل لقتل رجل مشرك من قوم لهم ميثاق ما للمؤمن من حق. يقول تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٌ﴾ [النساء / ٩٢]. بل مئزّه على المؤمن من قوم ليس لهم ميثاق.

أدلة التاريخ

ولو كان القتل لعله الكفر أصلاً كما يقول بعض الفقهاء
لقتل النبي مشركي مكة أثناء فتحها، ولقتل مشركي هَوازِن
بعد (حُنَيْن)، ولما حالف النبي ﷺ خزاعة وهي مشركة، ولكان
المسلمون في فتوحاتهم من الهند إلى فرنسا وباءً على العالم، ما تركوا
على ظهر هذه الساحة من الكفار حيًّا. وقد رُوِيَ عن رسول الله
حوادث كثيرة في العفو والرحمة مع خصوم أشداء ومع قتلة أعز
أصحابه وأهله. ويكفي أن نقرأ في كتب السيرة معاملته بعد فتح
مكة لعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية، وهما عدوان وابنا
عدوين له، وعفوه عن وحشي قاتل عمه حمزة، ولم يكن إلا
عبدًا حبشيًّا لا في العير ولا في النفير، وصفحه عن أبي سفيان
بن الحارث بن عبد المطلب، بعد أن أسرف في خصومته وهجوه.
فهذه أمثلة واضحة على العدل الذي يأبى قتل المدنيين، أو قتل
الأسرى، أو من جنحوا إلى السلم.

رفع إليه ﷺ بعد إحدى الوقعات أن صبية قُتلوا بين الصفوف،
فحزن حزنًا شديدًا، فقال بعضهم: ما يحزنك يا رسول الله وهم
صبية للمشركين؟! فغضب النبي وقال ما معناه: إن هؤلاء خير
منكم، إنهم على الفطرة. أو لستم أبناء المشركين؟ فإياكم وقتل
الأولاد! إياكم وقتل الأولاد!

ويروي البخاري عن جابر بن عبد الله قال: مرت بنا جنازة فقام لها النبي وقمنا، فقلنا يا رسول الله: إنها جنازة يهودي. فقال: «أولست نَفْسًا! إذا رأيتم الجنازة فقوموا».

احترام للنفس
البشرية بدون
تخصيص

فهذا احترام للنفس البشرية لا يعرف التخصيص، ولا يمكن أن يجيز قتل غير المحاربين، أو قتل الأسرى لعله الكفر وحدها.

فنحن مطمئنون تمام الاطمئنان لما ذكرنا من تحريم قتل المدنيين وتجويعهم ومن تحريم تخريب العمار والزرع والشجر، وقتل الأسرى، وتحريم المثلثة والإجهاز على الجرحى.

ونعتقد أن الوسائل الحديثة من الغارات الجوية وما يترتب عليها، والرمية بالمدفعية على غير هدى ومن غير إنذار على المدنيين أطفالاً ونساءً، شيوخاً ومرضى، زراعاً وأجراء، في البر أو البحر أو الجو، لا تبيحها الشريعة المحمدية.

آداب أخرى
للحرب

وقد جاءت السُّنة والعُرف بآداب أخرى كثيرة للحرب، من مجاملة رسل العدو وعدم التعرض لهم بأذى، ومن الإحسان للأسرى بما جعلهم مستحقين للبر، متساوين في ذلك مع أيتام المسلمين وفقرائهم. يقول تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ

الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ
مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿ [الإنسان / ٨-٩].

السلم الدائمة

السلم دائمة والحرب طارئة - دفع تهم وأوهام - من
أسباب اضطراب السلام - نصوص في تدعيم حياة
السلام - روح سلمية واحدة في مكة والمدينة - شهادة
الأجانب - شهادة التاريخ.

السلم دائمة
والحرب طارئة

لننظر في أساس العلاقات الدولية في نظر الدعوة المحمدية،
هل هو قائم على فرض أن الحرب هي الحالة الدائمة بين جماعة
المسلمين وغيرهم؟ أو أنها حالة عارضة والسلم الدائمة هي
أساس العلاقات الدولية، ينقضها العدوان والظلم وحده؟

دفع تهم وأوهام

يظن بعض الناس، لما صاحب الدعوة المحمدية في العصر
الأول من الفتوحات والحروب، أنها دعوة قامت على السيف
وتقوم به، ويظنون كذلك أن الإسلام بصفته ديناً وبصفته دولة،
في حالة نزاع دائم مع من يخالفونه في دياره وخارج دياره، وأنه يشبه
بعض الأديان الأخرى في اختصاصه بإله هو للمسلمين خاصة،
وهو معهم دون سواهم، أو كبعض الأديان التي جاءت في أول

عهداً برسالة السلام على أشمل معانيها فحرمت الحرب وأيضاً صناعة الجندية، ثم انقلب رؤساؤها الدينيون وانقلبت مؤسساتها اللاهوتية إلى النقيض، فأباحت الحرب وباركت الحِراب والمدافع فضلاً عن الجندية، ووصل بها الغلو في عهود طويلة إلى إهدار دماء المخالفين في الدين، بل إهدار دماء المخالفين في بعض مظاهر الدين وطقوسه لأهل الطائفة الواحدة، بل وصل الحال بهؤلاء الرؤساء الدينيين أنهم حرموا على الأمراء من دينهم أن يهادنوا مخالفين في المذهب فضلاً عن مخالفين في الدين، فجعلوا لأنفسهم حق فسخ العقود والمواثيق ونقض الأيمان التي يرتبط بها أمير مع أمير أو ملك مع ملك آخر، أو دولة مع دولة، وإن كان من شأنها أن تصون الدماء وأن تقيم العدل بين طوائف متناحرة، فلم تكن للمواثيق والأيمان في نظرها حرمة، لأن الملحد والكافر، بل المنشق والمخالف في المذهب مهدور الحق، فلا حرمة لعهدٍ معه إذا جازت مفاوضته ومعاهده.

وبذلك اختل نظام الاجتماع كله، بل استحال قيام نظام دولي، لأن زعماء الأديان كانوا يملكون حلّ الناس من أيمانهم وعهودهم، وكانوا يفترضون أن الأصل هو الحرب مع المخالف،

من أسباب
اضطراب السلام

وأن السلم عَرَضٌ يُنْقَضُ بمجرد القدرة على نقضه، وأنه لا ذمة
لكافر أو منشق على الإطلاق.

وذلك كله عكس ما جاءت به الدعوة المحمدية؛ فهي أولاً
تدعو إلى إله هو ربّ العالمين، منزّه عن الغرض والهوى، خلق
الجميع على فطرة واحدة، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو
القاهر فوق عباده، لا سلطان لهم مع سلطانه يقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ
رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود/ ١١٨].

هذه الدعوة من شأنها أن تفرض أن حالة السلم بين الناس
دائمة، وأنها هي الأصل، وأن عدوان بعضهم على بعض هو
وحده الذي يزعج هذه السلم، ويضرم لظى الخصومة، ولذلك
اعتبرت الحرب حالة ضرورة يطلقها من عقالها العدوان والظلم،
ويبيحها التكافل البشري، فتقع كذلك لنصرة مستضعفٍ
مظلوم مستصرخ.

وقد بينا فيما سبق كيف كان الإذن بالقتال، وما هي
أسباب الإذن، كما بينا ماهية الحرب المشروعة، مما يعين على
تفهم الدعوة المحمدية، ومما يبين أن الحرب التي أباحها الشريعة
تقع استثناء للقاعدة العامة، وهي السلم الدائمة بين البشر.

نصوص في
تدعيم حياة
السلام

ونجد أدلة أخرى من الكتاب والسنة، وما جرى عليه المسلمون، يقول ﷺ «لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية». فهو ينهى عن الرغبة في الحرب وتمنيها، حتى مع العدو، ويسأل الله أن يديم نعمة السلم.

وفي البخاري أن رجلاً جاء إلى النبي، فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يُقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

وهذا واضح في نقض معظم أسباب الحروب التي قاسى العالم ويلاتها، وحصرها في الحق والعدل الذي يريده الله، وواضح في أن الأصل هو السلم. وكان ﷺ يوم الأحزاب، والحرب قائمة، ينقل التراب، وقد وارى التراب بياض بطنه، ويحفر مع أنصاره الخندق وينشد.

لَا هُمْ^(١) لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلُّيْنَا
فَأَنْزَلْنِي سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا
إِنْ الْأَلَى هُمْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

(١) لَا هُمْ: بمعنى اللهم.

ففي هذا النشيد تتجلى روح التقوى والتنزه عن البغي الذي يفعله الخصوم، والدفاع عن حقه في اختيار دينه الذي تريد الأحزاب أن تفتنه فيه وترده عنه. فلولا هذا البغي لاستمرت السلم التي هي الأصل.

ثم لننظر ونتبصر في هذه الآيات الجليلة بروحها ونصها.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة / ٢٠٨]، ويقول تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال / ٦١-٦٢]، ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء / ٩٤].

ويقول ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة / ٨]. ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يَقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَّاءُ إِلَيْكُمُ السَّلَامُ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء / ٩٠].

ثم انظروا إلى روح السلم والمحبة التي تشع من هذه الآيات
الجليلة.

يقول تعالى خطاباً لرسوله ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ
كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمُ لَنَا
أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ
بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى / ١٥].

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَاسَلَمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَمُوا
فَقَدْ أَهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ [آل عمران / ٢٠].
﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ
لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية / ١٤].

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت / ٤٦] ويقول: ﴿لِكُلِّ
جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً
وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ
مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة / ٤٨].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس / ٩٩].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا / ٢٨].

روح سلمية
واحدة في
مكة والمدينة

قد يقول بعض الناس ممن آمنوا أو ضلوا: إن الآيات المكية تفيض بهذه الروح، بينما الآيات المدنية تشتد على الكفار والمنافقين، وتحض على القتل والفتك. وهو قول باطل لأن كتاب الله لا يتجزأ، وقد سبق أن بينا أن الحض على الحرب في معظم آيات الحرب هو تحريض على الصبر والاستشهاد والفتك في حرب واقعة فعلاً، ولم تنته إلى مستقر من السلم يطمئن إليه المؤمنون، فهي نتيجة للحرب لا دعوة إليها. ومع ذلك فإليهم بعض الآيات المدنية:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة / ٢٥٦].

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَاغُ الْمُبِينِ﴾ [النور / ٥٤].

ويقول تعالى لرسوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة/ ١٣].

فالإسلام في جميع أدوار الدعوة في المدينة أو في مكة لم يعول إلا على الحجة ولم يلجأ للسياط إلا دفاعاً، بل إن تاريخ انتشار الدعوة المحمدية واضح في أن هذه الدعوة قد انتشرت في الآفاق، وانتصرت انتصارات باهرة في المشرق والمغرب في أضعف أيام الدولة الإسلامية، بل في الانحطاط العسكري والمسلمون سائمة في يد برابرة المشرق ومتوحشي الفرنج في المغرب.

وفي ذلك يقول السير توماس أرنولد في كتابه (انتشار الإسلام): إن الفتح الروحي الإسلامي لم يتأثر بسقوط الدولة الإسلامية، وبضعف القوى السياسية؛ ففي أيام هزيمته السياسية نال أعظم انتصاره الروحي.

شهادة
الأجانب

وفي تاريخ الإسلام حادثان عظيمان يثبتان ذلك؛ فحين وضع الكفار المتوحشون من المغول والأتراك السلجوقيين أقدامهم على رقاب المسلمين في القرن الثالث عشر الميلادي

شهادة التاريخ

غزا الإسلام قلوبهم فاعتنقوا، وهم الغالبون، دين المغلوبين، ولم يكن للإسلام عون من سيف أو سلطان.

وإذا رجعنا البصر إلى صلح الحديبية، ذلك الصلح الذي حزن له المسلمون لقبولهم شروطاً مُذِلَّةً، والذي قرر وضع السيف في غمده عشر سنين، رأينا أن أعظم فتح معنوي للإسلام كان في أيام هدنة الحديبية، وفتح الحديبية السلمي هو الذي هباً لفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

هذا ولم يفكر المسلمون في إقامة جيش دائم، ولا اعتبروا الجندية صناعة إلا تقليداً لعدوهم، وقد صارت له معهم حدود وثغور لا بد للسلامة من الرباط فيها.

فلم تكن الدعوة المحمدية في حاجة لنقض السلم لتعيش، ولا كانت في وقت من الأوقات مُعَوِّلة على الإكراه في الدين لتنتشر، ولا رضيت بالحرب لعرض الدنيا ومنافعها وسلطانها وبسطتها، ولا لسيادة جنس على جنس، ورجحان طبقة على طبقة.

فالحرب عند المسلمين طارئة وللسلم الحياة الدائمة، ولذلك كله قامت العلاقات الدولية في نظر المسلمين على أساس

سلم دائمة بين البشر ينقصها العدوان وحده، فعُنِيَت الدعوة
المحمدية كل العناية بإقامة هذه السلم الدائمة على حرمة الذمة
وحرمة الأيمان والعهود.

العهود والمواثيق

المسلم والمعاهد ومن لا عهد له - رأي في مسألة التخيير بين
الإسلام والجزية والسيف - السلم بين المؤمنين - الإسلام
وطن المسلم - لا إقليمية في الإسلام - عالمية شاملة -
يسعى بدمتهم أدناهم - أخوة الذمة والعهد - حقوق
الذمي وواجباته - الغنم أكثر من الغرم - بين الذمة
الإسلامية ونظام الحماية الحديثة - الاستعمار الحديث
لا يعرفه الإسلام - كفالة الله وشهادته على العهود -
الذمي في كفالة الإسلام أينما كان من بلاد المسلمين -
عهود الأمان والمنافع - من وصايا الراشدين - إلى الأخوة
والوفاء - حق واحد للغالب - موجهات الصلح - من
حرب سنة ١٨٧٠ إلى حرب سنة ١٩٣٩ - حرمة العهود
فوق صلة الدين - عبد يعاهد وخليفة يقر عهده - امرأة
تجير والرسول يقر جوارها - تكريم للفرد - مثل رائع
لاحترام كلمة لم تكتب - متى يجوز نقض العهد.

المسلم والمعاهد
ومن لا عهد له

أقامت الدعوة المحمدية قواعد العلاقات الدولية بين
الناس على افتراض أنهم إما مؤمنون، وإما معاهدون، وإما لا
عهد لهم. فأما المؤمنون فأخوتهم تامة، وأما المعاهدون فيعاملون

بمقتضى عهدهم، وأما من لا عهد له فأمره يختلف باختلاف أحواله، ومصير العلاقات معه يتبع أحوالاً كثيرة. وعلى كل حال لا يجوز قتاله مفاجأة من غير إنذار، ولا يكون هذا الإنذار من غير سبب، ولا يكون السبب هو الطمع في ملك أو سلطان أو استغلال لخيرات أرضه، أو تحكم في منافعه وتجارته، أو استثثار بما عنده من المواد الخام والمعادن، أو أغراض عسكرية واستراتيجية، أو تهذيبه وتمدينه كما ادعى أهل الغرب في العصور الأخيرة، أو كي تكون أمة هي أربى من أمة، أو جنس أعلى من جنس؛ فليست هذه الأسباب صالحة لمهاجمته حتى بعد إنذاره الذي تشترطه القواعد الدولية الإسلامية، وليس هناك في الحقيقة سبب للخلاف في نظر الإسلام بينه وبين الناس إلا الفتنة ومنع الدعوة.

وقد قررنا سابقاً باطمئنان أن الإسلام حصر أسباب الحرب في كفالة حرية الدعوة، فهو يكتفي بضمان حريتها ليكون في عهد يقر السلم الدائم مع أي طائفة من البشر. وتاريخ الدعوة المحمدية واضح في هذا الشأن، فليس لازماً كما يظن بعض الناس أن من قضت الظروف بنزاع وخصام معه ملزم بالاختيار بين ثلاثة: الإسلام والجزية والسيوف.

رأي في
مسألة التخيير
بين الإسلام
أو الجزية
أو السيف

وليست هذه الحالات الثلاث التي كانت تُعَرَّض على الأعداء آتية في عمل المسلمين على سبيل الحصر. فإننا نجد اتفاقات وعهودًا وحالات سلم قائمة بين المسلمين وجيرانهم أو دول أخرى ليس لها جوار بغير أن يُشترط لذلك حالة من الحالات الثلاث. وهذه النظرية نظرية الخيار بين ثلاثة أمور يظنها بعض الناس من القواعد العامة، لأنها كانت شائعة في العهد الأول من الفتوحات الإسلامية، بينما الحقيقة أنه قد سبقتها عهود للرسول ولحققتها اتفاقات وعهود للدولة الإسلامية لم تستلزم إحدى الثلاث. وحق إمام المسلمين وجماعتهم في عقد ما يرون فيه المصلحة من العقود متفق عليه؛ فصلاح الحديبية مثلاً لم يشترط شيئاً منها، بل بالعكس كان فيه شرط اعتبره عمر رضي الله عنه إعطاء للدنية في الدين وإذلاً للمسلمين قبل مشركين محاربين، ولم يرض به إلا طاعة وتفويضاً للرسول صلوات الله عليه.

وإذا رجعنا للعهود المنوعة والبيعات والمحالقات التي عقدها النبي صلوات الله عليه بنفسه، رأينا فيها أمراً واحداً مطرداً، هو القصد إلى نشر دعوته، والوصول بهذه الدعوة إلى الظهور، وألا يعترض شيوعها وظهورها قوة. وكثيراً ما كان الوصول إلى حالة سلم مستقرة هو الهدف الأسمى لتمكين الدعوة من الحرية اللازمة لظهورها،

فلا يُشترط له شيء آخر، بل يكون شرط الجزية أو الإسلام مؤخرًا ومانعًا للتفاهم، فتُصدَم الدعوة، ويُؤجل انتشارها.

ففي هذه الحالة يصبح شرط الجزية أو الإسلام مضرًا ويكون فاسدًا، وعلى ذلك ليس حقيقياً أن إمام المسلمين أو جماعتهم ملزمون بإقامة السلم على شَرْطَيَّ الإسلام أو الجزية، وإلا كانوا في حالة حرب دائمة مع أكثر البشر وامتنع ظهور الإسلام كدعوة عالمية.

قلنا إن العلاقات الدولية الإسلامية قائمة على افتراض أن الناس مؤمنون أو معاهدون أو لا عهد لهم. فأما المؤمنون فالسلم بينهم أبدية لا ينقضها إلا الكفر والردة، فإن بغت طائفة على أخرى فهم جميعاً على الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله وتقبل التحكيم، فإذا قبلته كان الإنصاف والقسط، لا الغلب والقوة، هما الميزان الذي توزن به شرائط الصلح. يقول تعالى:

السلم بين
المؤمنين

﴿وإن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات / ٩].

الإسلام
وطن المسلم

فالمؤمنون في جميع أطراف الأرض إخوان لا تفرقهم
الأوطان ولا العصبية ولا المذاهب، ولا المنافع ولا الخوف
ولا المنعة ولا العبودية، ولا سبب من الأسباب، للمسلم حق
الأخوة على المسلم أينما حلّ وأينما كانت الدار، فلا جنسية
غير الجنسية المشتركة التي يكفي لثبوتها شهادة أن لا إله إلا
الله وأن محمداً رسوله.

لا إقليمية في
الإسلام

فالمسلم في أي وطن من أوطان المسلمين وطني له جميع
حقوق (المواطن) وعليه جميع الواجبات المفروضة على المواطن
أينما وجد؛ فإن فرض مثلاً أنه وُجد ماراً إلى الحج في مصر وهو
أت من المغرب، أو وُجد في العراق وهو قادم من الصين، وكانت
مصر أو العراق في حرب، وجب عليه الجهاد مع أهلها كما يجب
عليه لو كان في بلده وقد هُوجِمَت. كما أنه لو انقطع به السبيل، أو
شق عليه الأمر، فله في زكاة هذا البلد فريضة، وجماعة المسلمين
تكفله، بل له كافة ما لهم من حقوق. فالأخوة الإسلامية كاملة
بين الأسود والأبيض والعبد والحرّ، ليس في ذلك أدنى ريب ولا
شك لدى أي طائفة من المسلمين أو أي مذهب من مذاهبهم.

وعلى ذلك فالملايين السبعمئة من المسلمين في الأرض
هم إخوان لا يمكن بمقتضى الشريعة الإسلامية تصور حالة

حرب بينهم يخوضونها في سبيل الله أو الوطن أو الدولة، فإذا وقع فيها بعضهم فالحكم لكتاب الله، ولا بد للمسلمين من التدخل لإنهاء القتال، ولا تستقر ضمائرهم حتى ينتهي على صورة مرضية بالقسطاس المستقيم.

ومن هذا يتضح أن الإسلام عالمي ودولي، بمعنى أنه يضع قواعده على أساس علاقات بشرية عامة، ومنفعة بشرية مشتركة. وهو كذلك ينظر بهذه النظرة العالمية للمخالفين في العقيدة، فهم في نظره بشر، وتكاد تكون مسئولية الفرد في نظامه العالمي كمسئولية الدولة، فعهدة الفرد كعهدة الجماعة، وحقوق هذا كحقوق هؤلاء، ولل فرد في نظامه شخصية وسيادة تكاد تماثل شخصية الجماعة وسيادتها.

عالمية شاملة

فمثلاً يسمح النظام الإسلامي للفرد أن يجير ويؤمن ويعطي عهداً لفرد أو جماعة من الناس، وأمانه وعهده محترم، لقوله ﷺ «ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم». فإذا تصورنا العالم الإسلامي اليوم وهو ممتد من المشرق إلى المغرب، وتصورنا أمه وطوائفه وأفراده، وتصورنا ما لهؤلاء من العلاقات مع جيرانهم ومواطنيهم، وما بينهم من عهود واتفاقات، وعلمنا أن هذه الصلات والعهد مرعية من المسلمين جميعاً، أمكن أن

يسعى
بذمتهم أدناهم

نتصور أن البشرية كلها كادت أن يشملها نطاق واحد من الأمان المشترك.

أخوة الذمة
والعهد

هذه هي الأخوة الإسلامية، لها من القوة ما يكفل السلم الدائمة بين أقوامها وأجناسها وأوطانها ومذاهبها. أما ما بين المؤمنين وغيرهم فالمعاهدون منهم إما أن يكون لهم عهد ذمة، وإما أن يكون لهم عهد أمان أو تبادل منافع؛ فأما عهد الذمة فهو عهد أبدي لفرد أو جماعة في دار الإسلام قبلها المسلمون في جوارهم وأعطوها ذمة الله ورسوله والمسلمين مقابل ضريبة سنوية تسمى الجزية. وهؤلاء هم الذين سرى عليهم لفظ الذمي ولو أنه مع شديد الأسف أصبح ثقیلاً فإن أصله نبيل، فالتسمية جاءت من ذمة الله، وهي أكبر تأكيد لحقه في أن يتمتع بكامل حريته الدينية والإدارية والسياسية، وأن تُصان له هذه الحقوق مقابل الولاء وقدر من المال يتفق عليه لنفقات الدولة.

حقوق الذمي
وواجباته

هذا الذمي المعاهد هو جار المسلم يواليه ويؤاخي، لا ينقص من حقه شيئاً ولا يتدخل في الشئون التي له بعهد، فإن احتكم إليه فعليه العدل الذي عليه للمسلم سواء بسواء. ظلمه حرام، واضطهاده حرام، وإهنته حرام، وحرمانه من حقه حرام، له دينه وللمسلم دينه، وعلى المسلم أن ينصره ويمنعه ويحوط حريته

الدينية والشخصية وحرية جماعته ويكفلها بقوته، وليس له عليه إلا الوفاء والامتناع عما يضر المسلمين في عقائدهم أو سلامتهم.

وليس أدلّ على إدراك المسلمين هذه الحقيقة وعملهم بها مما فعل خالد بن الوليد مع نصارى (حمص) فإنه لما علم أنه لا قبل له بدفع الروم عنهم، ردّ ما كان أخذه من الجزية إليهم، وقال: إنما أخذناها جزاء منعتكم والدفاع عنكم وقد عجزنا^(١)، وكذلك فعل صلاح الدين الأيوبي في حروبه مع الصليبيين حيث رد الجزية إلى نصارى الشام حين اضطر إلى الانسحاب منها، فلم تكن الجزية حقاً تعطيه القوة للغالب على المغلوب، وإنما كانت منفعة جزاء منفعة، وأجرًا جزاء عمل.

غنى أكثر

وإذا فمجرد الاتفاق ودفع الجزية يكفل للفرد أو الجماعة المعاهدة ما للمسلم من الحقوق، بل لو دققنا النظر نجد أن هذا المعاهد يدفعه هذه الضريبة، وهي رمز ولائه ورضاه، يتمتع بكافة الحقوق، وليس عليه كل التكاليف كتكليف الجهاد والزكاة، فتبقى ضريبة الدم حملاً على المسلم وحده، وضريبة الزكاة حملاً عليه كذلك وحده، مع جواز حق المعاهد فيما جمع الإمام

(١) لعل الخلاف في الرواية نشأ عن أن كلا منهما قاتل الروم متعاصرين، وكان أبو عبيدة القائد العام وخالد في إمرته.

من هذه الزكاة، فإنما الصدقات للفقراء والمساكين مسلمين وغير مسلمين .

فإذا أراد المعاهد أن يقاتل في صفوف المسلمين كان له ما لهم في الغنيمة.

بين الذمة
الإسلامية
ونظام الحماية
الحديثة

وإذا نظرنا في عهد الذمة وعهود الحماية لبعض الدول أخيراً في بلاد المسلمين وغيرهم، تبين لنا الفرق العظيم بين عهد يقوم على أساس الأخوة البشرية، يرعاه دين يدعو إلى عبادة الله رب العالمين، ويسوي بين الناس جميعاً فكلهم من آدم وآدم من تراب، لا يلتفت للعنصرية ولا للجنسية ولا للغة ولا للثقافة والأدب والعرف بل للحق الإنساني، وبين عهد يقيمه الغلب ويصونه القهر وتحدوه المنفعة ويديمه الاستغلال ويصحبه الاحتقار.

فذاك له حرمة من صميم الوجدان والعقيدة، وهذا له قوة الغلب وشهوة الهوى والأثرة. وقد كان أثر الأول الحب، فدخلت الأكثرية العظمى من أصحاب عهود الذمة في دين الجماعة الإسلامية راغبة متطوعة، لأن نظام الإسلام عالمي، واعتناقها لمبادئه لا ينافي كرامتها الإنسانية ولا عزتها القومية.

وقد بلغ في ذلك أن والي مصر في زمن الخليفة عمر ابن عبد العزيز شكّا إليه أن نصارى مصر وأهل الذمة فيها يتركون دينهم ويدخلون في الإسلام فتناقصت إيرادات الجزية، واستأذنه في منعهم، فكتب إليه الخليفة بتلك العبارة النيرة «قُبْحُ اللَّهِ رَأْيُكَ! مَا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا جَابِيًا وَلَكِنْ بَعَثَهُ هَادِيًا». إذا كان الهدف الهداية لا الجباية، والمساواة لا القهر والتفريق.

ولم تكن عهود الذمة ذات صلة بما يسمونه الاستعمار في هذا العصر، فهذا المعنى لم يَدْرُ بِخَلْدِ المسلمين في فتوحاتهم، ولا تعرفه الشريعة الإسلامية، وإنما تعرف حق المساواة لصاحب عهد الذمة، له ما للمسلم وعليه ما عليه، وله أن يعيش في حرية تامة بقوانينه وعرفه ونظمه. له أرضه وله ما تُغْلَى هذه الأرض. له ما على ظهرها وما في بطنها، وليس عليه ضرائب غير الجزية مقابل المنعة وكفالة نظامه الذي يختاره ويقيمه بكامل حرите، غير مُضَارٍّ لمعاهديه من المسلمين. فشتان ما بين النظام الإسلامي من حرية وإنسانية وما في الاستعمار من سلب للحرية، واستباحة لكل ما يملك المغلوب وما ينتج.

الاستعمار
الحديث
لا يعرف
الإسلام

لا قيد في الاستعمار لإرادة الغالب، وقيد الإسلام المسلم بعهدده، فلا يُنْقَضُ ولا يُتَجَاوَزُ ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا

كفالة الله وشهادته
على العهود

عَهْدُكُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ
اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴿٩١﴾ [النحل / ٩١].

الذمي في
كفالة الإسلام أينما
كان في بلد
إسلامي

وكما أن للمسلم حقاً مساوياً لحق كل مسلم آخر في أي
وطن من أوطان المسلمين، فإن الذمي المعاهد له مثل ذلك،
فعهده محترم في مشارق الأرض ومغاربها، لما بين المسلمين
من التكافل. وعلى ذلك فالمعاهدون أينما كانوا في سلم دائمة
لا ينقضها إلا النكث والعدوان، وكذلك تمتد ساحة السلم
البشري وتستقر بصفة خالدة بين الأجناس والأديان في ساحة
البشرية بهذه المساواة التي تمليها الشريعة وتكفلها العهود.

عهود الأمان
وتبادل المنافع

ليست العهود من نوع واحد، ولا هي جميعاً كعهود الذمة
التي أشرنا إليها؛ فقد تكون عهود أمان، وقد تكون عهود حسن
جوار، وقد تكون معاهدات صداقة أو تجارة أو أي نوع من أنواع
التعاقد الدولي لإقرار السلم وتبادل المنافع.

فهي جميعاً في نظر الدعوة المحمدية عهود مقدسة هي
مواثيق جعل الله عليها شهيداً وكفيلاً، لها حرمة دينية لا تسمح
بالخدعة والتدليس والكذب.

كتب عثمان رضي الله عنه، إلى عماله وولاته عقب توليه الخلافة هذا الكتاب.

«أما بعد، فإن الله خلق الخلق بالحق، فلا يقبل إلا الحق. خذوا الحق وأعطوا الحق، والأمانة قوموا عليها. لا تكونوا أول من يُسَلَّبُها فتكونوا شركاء من بعدكم. الوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن الله خصم من ظلمهم».

من وصايا
الراشدين

ونظام العالم الذي يقوم على مثل هذه الروح، وبعهود لها مثل هذه الحرمة، هو نظام سلم حقيقية، يستمر ما شاء الله، وإذا اضطرب فلا يعم خطره ولا يدوم شره. أما ما نحن فيه من عهود تُعَقَدُ لَتُنْقَضَ، وذمم مخفورة وأثرة موفورة، وأمم تتعالى على أُمم، وأقوام تتسامى على أقوام، فقد لقينا جزاءه في تلك الحروب العالمية التي لا تُبْقِي ولا تذر، هلك فيها البشر، وعم الشر.

فإلى الأخوة البشرية التي تعلو على الجنس والقبيلة، وإلى الوفاء للعلاقة الدائمة التي يريد بها رب الناس بين الناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء / ١].

إلى الأخوة
والوفاء

حق واحد
للغالب

وقد تبين أنه ليس للحرب نتيجة ولا خاتمة يرضاها الله إلا السلام الذي يستقر على العدل والإنصاف والأخوة البشرية، وأنه ليس للغلب إلا حق واحد هو منع الظلم. وكل ما يُعَقَّد من العهود نتيجة للحرب يكون مخالفاً للروح الإسلامية إن أقام ظلماً أو استعباداً، أو أقر استغلالاً واستباحةً لما هو من حق الإنسان بصفة كونه أخاً في البشرية. يقول تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل / ٩٢].

أي لا يجوز أن تقوم عهودكم على الدّخل، أي الفساد والغش الخفي لكي تكون أمة هي أربى من أمة، أي أكثر مالاً ورجالاً وقوة وصولاً مما يجعلها أرجح.

وليس المراد من معاهدات الصلح في نظر الإسلام استدامة حالة الغلب الذي نتج عن حرب اقتضاها العدوان بدوام الحرمان والإذلال للمغلوب، بل الغرض الوصول إلى إقامة العدل الذي يريده الله ويطلبه لأعدائنا وأصدقائنا على السواء. يقول تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة / ٨]. ولو أن دول الأرض في العصور

القديمة والحديثة اهتدت بهدي القرآن في هذا المعنى لحصرت الحرب في أضيق دائرة، ولزالت معظم الأسباب التي تحرك الفتنة من مرقدتها، وتثير النار من مكنونها.

وما يقوله اليوم الكثير من الساسة وقادة الشعوب، وما قالوه من قبل من أن الغرض من حربهم هو إقامة العدل والإنصاف ومنع الطغيان يتفق مع الدعوة المحمدية ولو أنه لا يستند إلى مثل الإيمان والتدين الذي استندت إليه؛ ففي الشريعة المحمدية كما بينا سابقاً لا تجوز الحرب إلا لدفع الظلم والعدوان، ولا تنتهي إلا بمنع الظلم والعدوان وإقرار العدل والحق الذي يريده الله لا الذي تُزوّقه وتنمقه المطامع والشهوات، ولا الذي يوجبه الخوف من العودة إلى الظلم والعدوان.

ويقول تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال / ٦٢].

فلا تملّي شرائط الصلح عوامل الخوف ولا عوامل الطمع، لأن الله الذي نصر الحق وأيده بالمؤمنين كفيل بالنصر ما دام المراد وجه الله والبر والعدل.

موجهات الصلح

فلو كانت الدول الأوروبية وغيرها تُقَسِّط وتُنَصِّف ما انتهت
 من حرب سنة ١٨٧٠ بما سبب حرب سنة ١٩١٤، ولا انتهت هذه بما
 سبب حرب سنة ١٩٣٩، وكنا نرجو أن تعقب الحرب الأخيرة
 حالة تسود فيها روح الدعوة المحمدية أفكار الناس وتستقر
 مبادئها في نفوس الزعماء والقادة لتكون خاتمة المآسي.

من حرب
 سنة ١٨٧٠
 إلى حرب
 سنة ١٩٣٩

أما الرياء وابتغاء حسن السمعة والدعاوى التي يُراد بها
 الدُّخْل والغشُّ فلن تزيد أصحابها إلا وبالاً والعالم إلا شتاتاً
 والحضارة إلا ضعفاً والعمران إلا خراباً، وهي على النقيض تماماً
 مما جاءت به الدعوة المحمدية. ولست في هذا متهماً قومًا دون
 قوم، ولا مُدَّعياً بأن المسلمين الآن أحسنُ حالاً وأصدقُ قولاً
 ورأيًا من أهل الملل الأخرى، فليس هؤلاء وهؤلاء على شيء من
 روح الدعوة المحمدية، ولا صدق الإيمان بمبادئها.

وقد حرم الإسلام الخيانة في العهد سرًّا أو جهراً كتحريمه
 الخيانة في كل أمانة مادية أو معنوية، فلا مجال عنده لإباحة
 نقض العهد بالخيانة فيه وقت القوة، كما أنه لا يرضى العهد
 الذي يمليه الغلب والظلم، فهل رأيتُم أو سمعتم في الزمن الذي
 نعيش فيه بعهدٍ عُقِدَ وكانت له الحرمة التي يريدتها الإسلام؟ ألا

تروون وتسمعون كل يوم بالذم المَخْفُورَةُ^(١)، والعهود المباحة متى
قَدَر أحد المتعاقدين على استباحتها، أو ظن في ذلك نفعاً له؟

ما قيمة العهود والأيمان تعقد لتُنْقِض ويُحْتَالَ في تفسيرها
والخلاص منها متى لاحت مصلحة، أو بدت منفعة من قريب أو
بعيد، أو ضَمِنَ قَوِيٌّ بسلطانه وقدرته العسكرية أن يفسرها كما
يشاء أو ينقضها كما يشاء؟

أما ذلك الأدب المحمدي الذي جعل حرمة العهود فوق
حرمة الدين فضلاً عن عَرَض الحياة الدنيا فلسنا نحن ولا غيرنا
على شيء منه؛ فقد جعلت الشريعة حق الميثاق فوق حق الدين
نفسه؛ فللمشرك من قوم بينهم وبين المسلمين عهد حق الدية
تدفع إلى أهله، وليس للمسلم من قوم ليس لهم مع المسلمين
ميثاق دية.

حرمة العهود
فوق صلة
الدين

وقد حرمت كذلك الشريعة نصرة المسلم للمسلم
على من بيده ميثاق وهو غير مسلم؛ يقول تعالى: ﴿وَإِنْ
أَسْتَضَرُّوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [الأنفال / ٧٢].

(١) بالذم المَخْفُورَةُ: بالذم المَغْدُورَةُ. (م).

هذا هو التقديس للعقود والمواثيق، وهذا هو الوفاء للأعداء الذي يبقى أبد الدهر للناس فيه الهدى، هو الأدب العالي في علاقات الدول وعلاقات البشر، هو الأدب العالي في السلم والحرب.

عبد يعاهد
وخليفة يقرعه

وقد بلغ من احترام المسلمين للعهد أن أقروا عهد الفرد من المسلمين بل عهد العبد منهم يؤمن به طائفة من المحاربين: كتب أبو عبيدة رضي الله عنه وهو قائد الجيش إلى عمر رضي الله عنه وهو الخليفة أن عبداً آمناً أهل بلد بالعراق وسأله رأيته، فكتب إليه عمر «إن الله عظم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى تفؤا، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم». وقد استمد عمر هذا الرأي من قوله صلوات الله عليه: «ويسعى بذمتهم أدناهم».

امراة تجير
والرسول يقر
جوارها

وكذلك أقر المسلمون أمان المرأة، لقوله صلوات الله عليه: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ». وإن اختلف المسلمون في قيمة العهد الذي يعطيه العبد أو تعطيه المرأة باسم المسلمين واشتروطوا إذن الإمام فإن الجمهور متفق على احترام أمان الرجل الحر المسلم.

كرامة الفرد

ولا يخفى ما في هذا المعنى من سموً بمكان الفرد يتناسب مع المسئولية التي وضعت على عاتقه مما يستلزم أن يكون عالي

الجناب موفور الكرامة والأدب مع الخصوم وفي الجيش، فهذه الثقة به وهذا التقدير لحسن تصرفه بإعطائه حق التعاقد نيابة عن المسلمين جميعاً يُحدث في نفسه عزة وتقديراً للحق يكفل استقامته خيراً من القوانين الزاجرة والعقوبة الرادعة. وتاريخ المسلمين فياض بأمثلة من أدب الحرب أشهرت فروسياتهم في الغرب والشرق في الفتوحات الأولى وفي الحروب الصليبية.

وقد ضرب صاحب الدعوة المحمدية بنفسه أعلى مثل في التاريخ في هذا الأدب العالي، وفي الجدِّ في عهوده وحبه الصراحة وبغضه التحايل والالتواء والكيد، حينما كان يفاوض سُهيل بن عمرو في الحديبية: فبينما كان يكتب عقد الهدنة جاءه ابن سهيل نفسه يرُسِّف في الأغلال، وقد فرّ من الأعداء الذين كان يمثلهم أبوه ويتفاوض مع الرسول باسمهم، وكان هذا الابن ممن آمنوا بمحمد ﷺ.

مثل رائع لاحترام
كلمة لم تكذب

جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو مستصرخاً وقد انفلت إلى المسلمين من أيدي المشركين، فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلابيبه وقال: «يا محمد لقد لجأت القضية بيني وبينك» أي فرغنا من المناقشة قبل أن يأتيك هذا.

فقال محمد ﷺ: صدقت. فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين أأردُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني! فلم يُغنِ عنه ذلك شيئاً، ورده رسول الله وفقاً للشروط التي اتفق عليها ولم يكن قد كتبها، ولكنه كان قد انتهى من المناقشة وقَبِلَ الشرط فلم يتحایل ولم يتردد. وإني لا أعلم في تاريخ البشر مثلاً لرعاية الكلمة التي قيلت ولما تُكتب ولما تُنصَّ كهذا الذي ضربه رسول الله في الحديبية على مرأى من خصومه وعلى كُرِهٍ من أنصاره!

أين هذا الأدب وهذا الجِدُّ بين الأعداء مما نحن فيه بين الأصدقاء؟ بين المسلمين أنفسهم وبين المسيحيين أنفسهم وبين هؤلاء وهؤلاء من تحایل ولجاج! ذلك لأن الدعوة المحمدية تعلم أصحابها أن حسابهم مع الله، وأنه لا يغنيهم من الله شيء؛ فلا بد من الصدق في الظاهر والباطن والقوة والضعف؛ فلو أن أدب العهود الدولية في الحرب وفي السلم قام على مبادئ لها حرمة الإيمان وتقديس العقيدة لاستقر السلم على حرمة العهد وخَفَّتْ ويلات الحروب وتضاءل شرها.

والشريعة المحمدية لا تبيح نقض العهد للطمع أو تحقيق أغراض من عَرَضَ الحياة الدنيا، أو لاستعباد وظلم، ولكنها تبيحه للصالح العام متى خاف المسلمون خيانة المعاهد وتحقق

لديهم ختله وسوء قصده، فعندئذ يجوز نبذ عهده: ﴿وَأَمَّا
تَخَافَتْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال / ٥٨]. ولكن لا يجوز لهم أن يحتالوا في
ذلك، أو يفاجئوا بنقض العهد من غير إنذار وإمهال. وهو أدب
وعُرف جاءت به الشريعة قبل أن يُقرَّه العُرف الدولي الحديث،
ومع الأسف لم تبق له حرمة في السنين الأخيرة، وقد جرى عليه
المسلمون حتى مع من لا عهد لهم. وقد أوصى النبي والخلفاء
الراشدون عمالهم وأمراء جيوشهم بالإنذار قبل البدء بالحرب.
وفقهاء المسلمين متفقون على أنه يجب إنذار العدو حتى يعلم
سبب نقض العهد، وأنه ليس المراد منه سلب مالهم أو قتلهم أو
سببهم، فرما أجابوا للمقصود من غير حرب، وأن القتال من غير
دعوة إثم يستوجب غضب الله. فإذا ساءت نية المعاهد وساء
قصده فإن العزة التي جعلها الله للمؤمنين تأبى عليهم الذلُّ
والهوان والرغبة في السلم الذي يُحلُّ ما تحرمه الشريعة، أو يُقرَّ
العدوان والتسلُّط والقهر. وفي مثل هذه الحالة يقول الله تعالى:
﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد / ٣٥].

متى يجوز
نقض العهد

(٤)

في أسباب الاضطراب العالمي

الاستعمار

إثارة الرغبة في بحث شامل- مقاتلون ومحايدون-
الأسباب الأساسية للاضطراب- الاستعمار أو الخراب -
فرائسه هي فرسانه - سراب - سبب الحروب في القرنين
الأخيرين- شر على الغالب - شر على المغلوب- آثاره
في الغرب وفي الشرق- محاولات لالتماس المخرج-
التضحية بالاستعمار لنجاة الحضارة - الدعوة المحمدية
تنكره- لا حجة على الإسلام إلا من نصوصه وسننه.

إثارة الرغبة
في
بحث شامل

تناولت موضوع العلاقات الدولية من وجهة النظر
الإسلامية، ولمست نواحي عدة منها، ورجوت من هذا الغرض
العاجل في كلمات محدودة أن أثير الرغبة في القارئ، سواء
أكانوا من الأمة الإسلامية أم الأمم الأخرى، لبحث مستفيض
فيما جاءت به الدعوة المحمدية، لعلهم يجدون في أصولها
وفروعها مخلصاً من محنة المدنية الحاضرة، وذلك الاضطراب
الذي أصاب البشرية بحربين شاملتين في مدى ربع قرن.

مقاتلون
ومحايدون

وإذا نظرنا للعالم الحاضر في الحرب العالمية الأخيرة، وقد
عمّ الدنيا شرّها، نجده ثلاث طوائف: طائفتان تقتتلان، وثالثة
تعتزلهما ولا تسلم من شرهما.

فماذا يشكو منه الثلاث؟ أما الطائفتان المتحاربتان فكانت
كل منهما تدعي على الأخرى دعاوى لا سبيل لتحقيقها ولا
فائدة من المناقشة فيها؛ فكلّ كان يقول إنه مظلوم معتدى عليه،
وإنه يحارب للحق وإقامة صرح الحضارة. فلندع هذه الدعاوى
حقها وباطلها.

وأما الطائفة الثالثة المعتزلة، فبين محايد قد انتُهكت
حرماته، وآخر شاكي السلاح، ساهر الليل تزخر أرضه بالقوى
خشية أن تُستَبَاح.

فإذا نظرنا إلى أسباب النزاع بين هذه الأمم نظرة إجمالية
خلال القرنين الماضيين بدا لنا أنها تتفاقم عصرًا بعد عصر،
وقد تكون بلغت الذروة في الحرب الأخيرة إذ شملت القارات
الخمس.

الأسباب
الأساسية
للاضطراب

فما هي دواعي هذا الشر المتزايد؟ وما هي الأغراض
العقيمة التي ظلت عصرًا بعد عصر لا تستقر ولا تتحقق؟

أهي الغرام بسعة الملك، والتزاحم على حيازة الأمم
المستضعفة والاستئثار بالتصرف فيها وفيما تملك من مواد؟

أم هي النزاع والخصومة، بين الطبقات على المصالح
الخاصة والنظم الاقتصادية.

أم هي الإفراط في النزعة الوطنية أو العنصرية وما يترتب
عليها من الأثرة وحب الانفراد بالعزة، ثم إنكار حقوق الآخرين
والتسلط عليهم، جيراناً كانوا أم في أقصى الأرض؟

أم هي طغيان المادية وحب الترف، مما ترتب عليه تركيز
الاهتمام في جمع المال، والانحدار في المتاع العاجل كغاية
للحياة، فتباعد ما بين طبقات الأمة الواحدة من الفروق، وأُغري
بعضها ببعض، وآل ذلك إلى النزاع الداخلي والخارجي.

أم هي انهزام القوى المعنوية أمام القوى المادية، مما ترتب
عليه تبليل الأخلاق والعقائد والعرف الصالح، فضاعت المروءة
وقلَّ الإخاء، وفشا الاستخفاف بالعهود والمواثيق، وصار الغدر
والخدعة من الأخلاق الشائعة في علاقات الأمم، وحل الخوف
محل الأمن، ودأب الناس على الاستعداد للحرب ثم المفاجأة
بها؟

أم هي أسباب أخرى أعظم أو أصغر، أم هي هذه جميعاً؟
 قد يكون هناك أسباب وحوادث كثيرة، لها أثرها الوقتي.
 غير أن نظرة فاحصة في الأسباب التي ذُكرت تهدي إلى
 الاعتقاد بأن فيها أصول الفساد العالمي ومسببات هذه الكوارث
 والحروب الطاحنة.

فهل جاءت الدعوة المحمدية بأسباب وقائية وبالعلاج لهذا
 الفساد؟ ذلك ما سنحاول بيانه.

أما السبب الأول الذي أشرنا إليه فيمكن حصره في كلمة
 واحدة: هي الاستعمار الحديث. وليس أدل على ما فيه من
 فساد، وعلى قوة هذه الآفة من أن الحروب لم تكن عامة إلا
 بعد ظهوره وانتشاره. وبعد أن انتشر فشمّل القارات الخمس
 وصار مظهرًا وسببًا للصراع المادي انقلبت الحروب إلى شر عام.
 وبانتشاره تطاولت الأعناق إليه، وظنت جميع الأمم أنه سبيل
 الغنى والقوة، فتسابقن وتحاسدن وحقدن، ولم يصدّها عنه
 أن رأت بعضها في الماضي وقع فريسة له؛ فلقد كان بعض فرسانه
 الأوّل من الأسبان والبرتغاليين والفرنسيين فرائس له. وفي
 فرسانه الأخيرين بعض العظّات.

الاستعمار
 أو الخراب

فرائسه هي
 فرسانه!

يقول (نيتي) رئيس وزارة إيطاليا قبل العهد الفاشيستي (١٩٢٠-١٩٢١) في كتابه (أوربا بلا سلم) «إن الطليان أنفقوا أربعة عشر ملياراً ليشتروا غرارة رمل!» يقصد ليبيا.

فكم بلغ الثمن بعد أن أنفقت إيطاليا الفاشية ما أنفقت في ليبيا والحبشة وغيرهما؟ لقد استنزفت إيطاليا مالها ودماءها وكيانها للاستعمار ولم تحصل إلا على الخراب والدمار...

الاستعمار سراب

سيدركون جميعاً بعد هذه الحروب الدامية، وقد أصيبت هذه الحضارة المادية بضربات معجزة، أن الاستعمار سراب يجرون وراءه، ويتنازعون عليه، حتى إذا جاءوه لم يغنهم عن العمل والكد والحياة الطيبة شيئاً، وأنه كالقذيفة تُلْقَى على الصخرة فتصيبها، وقد تحدث بها حدثاً، ولكنها كذلك ربما ارتدت فقضت على قاذفها.

سبب الحروب
في القرنين
الأخيرين

والاستعمار سبب معظم الحروب في القرنين الأخيرين، وله أثره فيها جميعاً، واستقصاء البحث في كل منها يرشد إليه في مكان ما من الأرض: في تراث أمة مستضعفة أو في أحد المعبودات الحديثة من البترول والذهب والفحم والقطن وغيرها من ثمرات الأرض أو معادنها.

والواقع أن الاستعمار الأوربي على طرازه الحديث شرٌّ على الغالب والمغلوب، شرٌّ على المستعمر والمستعمر. والشعوبُ الغالبة تُستدرَج بسببه إلى حياة التواكل فيصيبها الترف القاتل، وتقع في خصومات مع الحاسدين والناقمين وتعرض كيانها القوي للزوال. وما أصاب بعض الأمم منه في الماضي لا تزال آثاره عالقة بها إلى اليوم.

شر على
الغالب

والاحتفاظ بالمستعمرات كميدان للاستغلال المادي يهبط بمستوى العيش في سكان هذه المستعمرات فيحدُّ من مقدرتها على الاستهلاك، فضلاً عن قلة روح الابتكار والنشاط والإنتاج فيها، ويضع بذلك قسماً كبيراً من سكان العالم في منزلة السائمة، فيصبحون عالة على البشرية.

شر على
المغلوب

كل ذلك مع ما أشرنا إليه مما يحركه الحاسدون والطامعون من المكاييد والحروب، يسرع بالحضارة إلى الانهيار والزوال.

ألم تكن حروب نابليون وما جرَّت من ويلات على العالم وعلى فرنسا نفسها منشؤها الحقد والحسد بسبب الاستعمار والرغبة في السُّبق إلى أملاك المستضعفين؟ وكذلك حروب روسيا وتركيا والنمسا.

آثاره في
الغرب

ألم تكن كلها للاستزادة من أملاك المستضعفين؟ وحرب
اليابان والروس في أوائل هذا القرن، لم تكن لتحدث على
بعد الشُّقَّة بينهما لو لم يلتقيا في سبيل التوسع على حساب
المستضعفين.

والحرب العامة الأولى، والحرب العالمية الأخيرة مهما ادَّعي
لهما من الأسباب فإن الحقد الدفين في صدور من فاتتهم الغنائم،
والرغبة في التوسع وحيازة المواد الخام وأملاك المستضعفين، هي
من أهم أسس النزاع بين الأقوام الغالبة القوية.

أليس الشعور الباطني في نفوس الأمم الكبيرة بشرِّ
الاستعمار هو الذي دعاها بعد الحرب العالمية الأولى لتَلْمَسَ
المَخْرَجَ في نظرية الانتداب ونظرية حرية تناول المواد الخام؟

محاولات لالتماس
المخرج

سيستمر شرُّ الاستعمار مستطيرًا حتى يكتشف الناس
بالتجربة وبالتضحية حلاً مرضياً للأقوياء والضعفاء على حدِّ
سواءٍ.

لقد كانت الحروب الماضية قاصرة على الجيران؛ أو على
دولة وأخرى؛ فلما صار الاستعمار عالمياً صارت الحروب كذلك،
فلا بد إذا من مبادئ عامة لتسوية المشكلات العالمية. وستكون

التضحية بالاستعمار
لنجاة الحضارة

التضحية بالاستعمار ضرورة لنجاة الحضارة الحالية. وها هي ذي الشعوب الكبيرة تتلمسُ السبيل، فميثاق الأطلنطي وأشباهه من التصريحات التي جهر بها المتحاربون دليل على إدراكهم ما جرّه الاستعمار من شرٍّ على الغالب والمغلوب.

هو شرٌّ على المغلوب لما بيناه ولأنه يفقده شخصيته وخلقه وعزته وثقته بنفسه ومقدرته على العمل المنتج الكبير، فيصبح لا أثر له في تكييف الحضارة العالمية. فكيف يستقر العالم من اضطرابه، ومئات الملايين من البشر قد صارت عبئاً في تفكيرها ونشاطها على العشرات؟!

الاستعمار لاشك شرٌّ على الجميع، وإذا بقي الحكم للقوة في مصير الأمم بعد هذه الحروب فإن المأساة ستستمر وتتجدد.

الدعوة المحمدية
تنكره

ومن فضل الدعوة المحمدية أنها تنكر الاستعمار وتحكيم القوة لأغراض دنيوية. فهي لا تبيح الحرب لتوسّع في الملك، أو الحصول على المواد الخام، أو لاحتكار الأسواق، أو لدعوى تمدين الناس، أو للمواقع الإستراتيجية، أو لاستعلاء وطن على وطن، أو دولة على دولة، أو عنصر على عنصر كي تكون أمة هي أربى من أمة ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ

اللَّهُ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ
مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ
كَثِيرَةٌ ﴿[النساء / ٩٤].

وقد أشرت إلى ذلك في كثير من الفصول السابقة وسُقت
في سبيل بيانه الآيات والأحاديث وأمثلة من الواقع. ووجهة
النظر الإسلامية في العلاقات الدولية واضحة، فالناس سواسية
كأسنان المشط، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعافية،
أي حُب السلام.

فالإسلام لا يعرف نزاعاً ليس المقصود منه أن تكون كلمة
الله هي العليا، وأن تكون الحريات للجميع مكفولة.

لا حجة على
الإسلام إلا من
نصوصه وسننه

قد يقول بعض الناس إن في تاريخ المسلمين ما لا يتفق وما
تدعو إليه. ونحن ندعو إلى كتاب الله ودينه لا إلى ما فعل بعض
الدول والملوك، بما قد يشبه من قريب أو بعيد ما يفعل الأوروبيون،
وقد باءوا بالخسران كما باء المحدثون.

فلا شك أن الاستعمار بجميع أشكاله تأباه الدعوة
المحمدية، وقد ثبت الآن بُعد نظرها، بل ثبت سموها وغرضها
الإلهي بما فعل الاستعمار بالناس قديماً، وبما يفعل في العصور

الأخيرة، وقد اتسع شره وعمّ بلاؤه وجرّ الويل والخراب في
حروب عالمية متعاقبة.

وإنا لنرجو أن يستفيق الناس إلى الهدى، وأن يجدوا في
هذا المبدأ المحمدي وسيلة لإقامة العلاقات الدولية على غير
ما تقضي به نظريات الاستعمار، وأن تقوم هذه العلاقات على
الإخاء وعلى تلك الروح الدولية الإسلامية التي لا تعرف
الجنس ولا اللون ولا الوطنية الضيقة، ولا العلم ولا الجهل، ولا
التقدم ولا التأخر، ولا تعرف البشر إلا إخوة من آدم، وآدم من
تراب.

نِزاع الطبقات

التفاوت قديماً وحديثاً- أمثلة من التاريخ العالمي-
التعقيد العصري في المذاهب والدعوات- من آثار البخار
والكهرباء- الرأسمالية والعمالية- في الدول الشيوعية
والنازية والفاشية والديمقراطية- البساطة الإسلامية
في معالجة مشكلات المال- المبدأ ثابت والتنفيذ مرن-
الشرع مع المصلحة- مثلاً رائعان من حرية التصرف
للدولة- أكبر مهام الدولة- لا نزاع متى خلصت النوايا
لله- الإيمان هو الحارس الأول على المصلحة العامة-
إلزام الدولة بمنع النزاع وبالتأمين الاجتماعي - العنصر
الروحي التهذيبي- محاربة الترف والبدخ- الرسول
الزاهد- المتاع الباقي- جمع بين المصحف والسيف.

التفاوت قديماً
وحديثاً

نزاع الطبقات ظاهرة للحضارة الأوربية، وقد فشا داؤه وعمّ
بلاؤه. والناس منذ النشأة الأولى متفاوتو الحظوظ في هذه الدنيا،
منهم الفقير والغني، والحاكم والمحكوم، والضعيف والقوي،
والمرضى والصحيح، يعيشون متعاونين متفاهمين في حدود
القبيلة أو مجموعة القبائل، أو اتحادات القرى حول مدينة؛

أو مجموعات المدائن والقرى حول أعظمها؛ فكانوا بطبيعتهم مأخوذين بغريزة الاجتماع والتعاون الذي أدركوه بالفطرة والتجربة.

وكانت هذه المجموعات البشرية كخلايا النحل، تتعاون للإنتاج على نظام مقبول من الجميع؛ فإن لم يكن مقبولا عن رضا فهو مسلّم به طواعية وعرفاً.

وكان هذا النظام يضطرب ويختل أحياناً بعدوان مجموعة أخرى، أو بفسادٍ داخلي ينشأ عن شذوذ أو ظلم بانحراف هيئة قوية أو فرد قوي واستبداده وأثرته، ولا يلبث هذا الاضطراب أن يستقر بعودة الأمور إلى نصابها، وسير التعاون في الخلية على مقتضى الغريزة والعرف المتفق عليه.

ولم يعرف الناس نزاع الطبقات عنصراً للاضطراب والخلل كما هو اليوم، ذلك النزاع الحاد الدائم بين الفقراء والأغنياء، والعمال والصناع والملأ والمديرين.

نعم قد نجد في تاريخ البشر دعواتٍ قوية متطرفة كدعوة (المزديكية) في فارس، وكانت تقول بالمساواة التامة في المعاش. ونجد في أعقاب الدولة الرومانية نزاعاً بين العامة والخاصة، أو

أمثلة من
التاريخ
العالمي

بعبارة أخرى بين العبيد والأحرار. ونجد في صدر الإسلام أمثال أبي ذر رضي الله عنه يهجر الشام محتجاً على الثراء وملكية الأرض، ونجد الخوارج يشهرون سيوفهم ويستبسلون في سبيل الفوضى الاجتماعية، فيقول المتطرفون منهم بأن لا حكم إلا لله، وينكر ضرورة الحكومة مُدْعِيًا أن في طبيعتها الفساد، وأن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدافع من الدين والوجدان ما يكفي لاستقامة شئون المجتمع، وينكرون حقوق الملوك. وكان المعتدلون من الخوارج لا يُورَثُونَ مَلِكًا مُلْكًا، ولا يؤثرون به بيتًا ولا قبيلة ولا سيدًا على أي أحد من الناس، ويقولون بإمامة العبد ومساواته للقرشي والهاشمي، ويتزهدون ويحملون الناس على الزهد، حتى كادوا يسوون ما بينهم في المعاش ولو أنهم لم يُحَرِّمُوا الْمَلِكَ.

التعقيد العصري
في المذاهب
والدعوات

وجدت هذه الدعوات على أنها شاذة، ومع ذلك لم تصل إلى شيء مما وصلت إليه الدعوة الاشتراكية أو الشيوعية، ولا ادّعت ما ادّعتا من المساواة في الرزق والكسب والملك، ولم تقم على أنها نزاع وصراع طائفة العمال مع غيرها من الطوائف، ولم تصل إلى مثل النزاع الحديث والحروب الدامية بين العمال والطبقات الأخرى.

فهذه الشيوعية، وهذه الاشتراكية التي نظمت الأحزاب
(العمالية) والاشتراكية والشيوعية لاشك جديدة، وهي أثرٌ
مباشر للنظام (الرأسمالي) الحديث.

وكان الناس على البساطة الأولى متعارفين؛ فالجار الغني
صديق جاره الفقير، يعرفه شخصيًا ويعرف أولاده، يتصلون
جميعاً في شيء من الإخاء، تجمعهم قرى الدم أو قرى الجوار،
وشيوخ القبيلة أو القرية مهما حسنت حالته المعاشية أو كبر جاهه
هو شيخ الفقير والغني، موصول الود بالجميع، وغناه وثراؤه لا
يتجه للزينة والترف والأثرة؛ فعزه في الكرم وفخره في الإيثار،
وأبناءؤه على عزتهم ككل أبناء القبيلة أو القرية، يلعبون كما
يلعبون ويطعمون ويلبسون طعاماً ولباساً يشبه في جوهره ما يأكل
الناس وما يكتسون.

فلم تكن دوافع الحسد والغيرة تحركها مظاهر الترف والبذخ
يتمتع به الكبراء والأغنياء ويسرفون في أذى عيون الناس وأذانهم
ونفوسهم، وكانت كذلك الثروات محدودة وجمهور الشعب في
مستوى واحد.

فلما استُخدم البخار والكهرباء تضخمت الثروة واتسع
من آثار البخار والكهرباء نفوذ أصحابها وكثر عددهم، وحلّت المحركات الآلية محل اليد،
وسَهّل الانتقال، وزادت السرعة في كل شيء، فنمت التجارة
ونما المال وبعدت الشُّقّة بين الفقر والغنى فانحطّ مستوى طبقة
الصناع والعمال، وبَسَمَت الدنيا لمُلاك الآلة ومُلاك الأرض
والسماسرة والتجار والمسيطرين على وسائل النقل، وحل النظام
الرأسمالي الجديد بكل ما يصحبه من جفاءٍ ازداد به الناس بُعداً
في الفكر والمظهر، وانقلبوا أعداء.

وكان لابد للطبقة المحرومة، وقد هبطت إلى نوع من
الرأسمالية والعمالية العبودية للآلة وصاحبها، أن تلتمس لنفسها سبيلاً للحرية،
وقد أحست أنها على كثرتها لا تملك من الأمر شيئاً، فاحتقرت
دساتيرها، ورأت فيها وسائل ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب،
تمكن أرباب المال من التحكم واستخدام الشرطة للغلب، غلب
القلة المالكة الضعيفة على الكثرة المحرومة القوية، فاتجهت إلى
الثورة، ونظمت لذلك النقابات والأحزاب وأصبحت هذه
عنصراً أساسياً من عناصر الاضطراب العالمي.

وما كادت تنتهي الحرب العالمية الأولى حتى ابتدأت
ثورات جامحة وفتن دموية وصلت ضحاياها في الحرب الأهلية

الروسية إلى عشرات الملايين، وفي الحرب الأهلية الأسبانية التي استمرت ناراها أكثر من سنتين إلى مليون، ولم تسلم بقية الأقطار الأوروبية والأمريكية من فتن دموية، ولا تزال الدعوة تُلْهب غيظ الفقراء على الأغنياء، وطبقة الصناع والعمال والزراع على الملاك، وتهيب الأرض لانفجارات أشدَّ خطرًا في كل مكان.

وقد أخذت الحكومات والشعوب في تلمس العلاج، فذهبت مذاهب شتى؛ فبعضها ذهب إلى استئصال طبقة الملاك كما حدث في روسيا، وبعضها إلى استئصال دعاة العمالية والشيوعية كما حصل في أسبانيا، وبعضها عَوَّل على القهر والاستبداد لإقامة الأمن والتوازن، فسلبت الحرية الشخصية كما حصل في إيطاليا وألمانيا، إذ انتزعت الزعامة الدكتاتورية الأمر من يد الجميع.

في الدول
الشيوعية
والنازية
والفاشية
والديمقراطية

وفي البلاد الديمقراطية لا تزال الرأسمالية تبسط كف العلاج بالهبات للطبقات المحرومة، وتتحايل للمخلص، وقدرها لا يزال في السماء!

ومن الصعب جدًا في مثل هذا العرض السريع أن ندخل في بحث النظام الرأسمالي ماله وما عليه، كما يصعب كذلك

متابعة المشكلة الاجتماعية ومتابعة الأوروبيين والأمريكان فيما يعرضون من حلول، وما يقاسون من ويلات نظام الربا والأثرة، وسنكتفي بما ذكرنا معتمدين على معرفة أكثر القارئ لمعضلة النزاع بين الطبقات وأسبابها وآثارها.

ولننظر فيما جاءت به الدعوة المحمدية من قواعد لنرى هل فيها العلاج لمشكلة المجتمع في هذا العصر؟

البساطة
الإسلامية في
معالجة مشكلات
المال

أول مشكلات المجتمع وأسباب النزاع هو الفقر. وقد بينا في فصلي التكافل والبر كيف عالج الإسلام، ونورد هنا بعض الحديث الذي يوضح أن الإسلام مرّن يسير مع المصلحة العامة في معالجة الفقر الذي هو السبب الأكبر لنزاع الطبقات، وقد اتخذت الشريعة لذلك سبيلين:

الأول - أنها جعلت للمحروم حقّه الثابت في أموال الناس جميعاً، وأقول جميعاً لأن الحد الأدنى من المال أو الملك أو المنتجات الذي تستحق فيه ضرائب الزكاة يستطيعه كل صحيح يعمل؛ فالنصاب في زكاة الفطر مثلاً هو ما زاد على قوت يوم من خبز الشعير، وقد جعلت فيه الشريعة حقاً للمحروم.

وقد تنوعت الضرائب الشرعية في أموال الناس لمقاومة الفقر والقضاء عليه، وجعلت هذه الأموال بنص القرآن مخصصة لأصناف المحتاجين، وليس للإمام أن يصرفها في غير ما خُصِّصَتْ له.

ولم يبين القرآن بالتفصيل ما تجب فيه الزكاة من الأموال، ولا المقدار الواجب دفعه، وقد بينت السنة ذلك في كتاب كتبه رسول الله ﷺ لمن ولّاهم أمر الصدقات، وبين القرآن من تُدفع لهم الصدقات فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 60].

فالقرآن وضع المبدأ والرسول نفذه، والقرآن خصص الزكاة وعلى الإمام أن يوجهها حسب الحاجة؛ فقد يجد أن ما كان يُنفق لتحرير الرقيق أو للمؤلفة قلوبهم أو ابن السبيل معدوماً أو قليلاً في زمننا الحاضر فيوسع في نصيب الفقراء. وسبيل الله الذي يدل على معنى عام يجد الإمام فيه أبواباً كثيرة من البر الذي يوجّه للمصلحة العامة في كل عصر حسب مواضع أهله، كالتأمين الاجتماعي الآن مثلاً.

المبدأ ثابت
والتنفيذ
مرن

الثاني - لم تكتف الشريعة بهذا الحق المعلوم في أموال القادرين للمحتاجين، بل جعلت الدولة كفيلاً على إقامة التوازن الاجتماعي، فرأس الدولة مسئولٌ عن هذا التوازن يعدله بالزكاة، فإن لم تكف فله باسم المصلحة العامة أن يأخذ من أموال الناس للصالح العام، وعليه أن يقيم العدل بالقسطاس المستقيم.

الشرع مع
المصلحة

وحيثما كان هذا العدل فثمَّ شرع الله ودينه. فإذا فرض أن هذا العدل يقتضي أمراً لا نص فيه ولا أثراً شرعياً فعليه أن يجتهد برأيه.

مثلان
رائعان
من حرية
تصرف الدولة
حسب الظروف

وإليكم مثلين من اجتهاد الإمامين الكبيرين أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما: كان أبو بكر يقسم المال بين الناس على السواء، لا يفضل أحداً على أحد، ف قيل له: يا خليفة رسول الله، إنك قسّمت هذا المال فسوّيت بين الناس، فمن الناس أناسٌ لهم فضلٌ وسوابقٌ وقَدَمٌ، فلو فضّلت أهل السوابق والفضل بفضلهم؟ فقال: «أما ما ذكرتم من السوابق والقدم والفضل فما أعرفني بذلك، وإنما ذلك شيء ثوابه على الله، وهذا معاشٌ، فالأسوة فيه خيرٌ من الأثرة».

فلما كان عمر وجاءت الفتوح فضّل وقال: «لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه». وعلى ذلك أسس ديوان الجيش. ومع ذلك، فعمر الذي لم يتبع الرأي الذي يقول بأن الأسوة في المعاش خير من الأثرة هو الذي ترك ظاهر النصوص القرآنية في الغنائم^(١)، إذ قال: لما فتح الله على المسلمين العراق والشام ردًا على من أرادوا قسمة الأرض بين فاتحيها والاحتفاظ بالخمس فقط للمصالح العامة: «فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعُلُوجها»^(٢) قد اقتُسمت وورثت عن الآباء؟ ما هذا برأيي». فقال له عبد الرحمن بن عوف: «فما الرأي؟ ما الأرض والعلوج إلا ما أفاء الله عليهم». فقال عمر «ما هو إلا كما تقول، ولست أرى ذلك، والله لا يُفتح بعدي فتح فيكون فيه كبير نيل، بل عسى أن يكون كلاً على المسلمين. فإذا قُسمت أرض العراق بعُلُوجها وأرض الشام بعُلُوجها فما يُسدّ به الثغور؟ وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل

(١) لعل عمر كان في ذلك مقتدياً بفعل رسول الله ﷺ في خيبر حين قسمها بين جنوده الفاتحين والدولة فوزع نصفها عليهم وأوقف الباقي على المسلمين. فاتخذ عمر استثناء الأرض من توزيعها على الفاتحين قاعدة لما فتح العراق والشام فجعل الأرض كلها وقفاً على المسلمين جيلاً بعد جيل. وقد أخذ مالك بما فعل عمر في هذا ولم يأخذ به الشافعي (انظر زاد المعاد لابن القيم، غزوة خيبر وما فيها من الأحكام)

(٢) جمع عُلج وهو الواحد من كفار العجم.

الشام والعراق؟» فأكثروا على عمر وقالوا: «تقف ما أفاء الله علينا بأسياقنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا؟! ولأبناء قوم ولأبناء أبنائهم لم يحضروا؟!» فكان عمر لا يزيد على أن يقول: هذا رأيي. قالوا: فاستشر، فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا، فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيته أن تقسم لهم حقوقهم، وكان رأي عثمان وعلي وطلحة وابن عمر رأي عمر، فأرسل إلى عشرة من الأنصار: خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج، من كبارهم وأشرفهم، فلما اجتمعوا قال: «إني لم أزعجكم إلا لأن تشركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم، فإني واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرّون بالحق، خالفني من خالفني ووافقني من وافقني، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو هَوَاي، معكم من الله كتاب ينطق بالحق، فوالله! لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق» قالوا: «قل نسمع يا أمير المؤمنين». فذكر لهم وجه الخلاف، فأيدوا رأيته، فقرر إبقاء الأرض بأيدي أهلها، وضرب الخراج عليها، وسكت المخالفون اتباعاً للرأي الغالب.

هذا مثل من تصرف تلميذ الرسول وخليفته في أمر جاء به نص وهو نفسه يسلم بهذا النص^(١). غلب عمر رضي الله عنه الرأي الذي

(١) وفي رواية عن الزهري ما يدل على أن عمر في استدلاله على ضرورة استثناء الأرض =

قضت به المصلحة العامة التي رآها ورأتها الأغلبية من عقلاء المسلمين أهل الشورى.

فالشريعة المحمدية لا تقف مكتوفة اليدين متى بانَّت المصلحة العامة، بل هذه المصلحة والعدل هما غرض الشريعة الذي لن تتجاوزه.

فإقامة توازن اجتماعي يُرفع به شرُّ الحاجة عن المحتاج، ويستقيم معه العدل والتأمين الاجتماعي هو أكبر مهام الدولة الإسلامية. ومسئولية الإمام وأهل الشورى في ذلك واضحة.

أكبر مهام
الدولة

والدعوة التي لا يترددُ صاحبها وأتباعه في إقامة ميزان العدل الاجتماعي على أساس المصلحة العامة لا يمكن أن تقوم الخصومة بين أنصارها على أساس المصالح الطائفية الدنيوية؛ فالمصلحة العامة لا تتجزأ، والطوائف لا وجود لها متى كان الكل

لا خصومة ولا نزاع
متى خلصت
النيات لله

=وعلوجها من التقسيم والتوزيع على فاتحيها كان معتمداً على ما يفهم من عموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر / ١٠] بعد سياق الآيات في سورة الحشر من قوله تعالى: ﴿مَا آفَأَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى...﴾ [الحشر / ٧] إذ أن آية: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ عامة فيمن يأتي بعد من الذريات الذين رأى عمر أنه لا تحفظ مصالحهم ومصالح الدولة مع توزيع الأرض على فاتحيها.. وعلى كلتا الروایتين قد أثبت عمر أن المصلحة العامة كانت سبب تخصيص النص العام أو فهمه فهما آخر يتسع له السياق.

عبيداً لله متساوين، وكانت مصلحة الكل فوق مصلحة الفرد أو الطائفة.

قد يقال إن أكثر ما يختلف عليه الناس يقوم على دعوة من المصلحة العامة، وإذا فليس ما أتت به الدعوة المحمدية من ترجيح هذه المصلحة بكافٍ لمنع الخلاف، وليست كلمة العدل ذات معنى واحد عند الناس ليكون للعدل ميزان ثابت. وهو اعتراض صحيح إذا كانت هذه المصلحة مطلقةً بغير حد، وكان هذا العدل متروكاً لمجرد ظن الناس، وذلك ما لم تتركه الدعوة المحمدية للهوى.

فالشريعة الإسلامية تستمدُّ تعاليمها من الإيمان برب العالمين إله الناس جميعاً الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ومن الإحسان الذي لا تُقبل فيه الدعوى، والذي يقصد به وجه الله.

فالجماعة المؤمنة إذاً لا تستطيع أن تترك رأيها للشهوات، والمصلحة العامة عندها واحدة تقوم على العمل الذي يُرضى خالق الناس جميعاً، فلها ضابطٌ من الوجدان الطاهر البريء. والمصلحة العامة كذلك محدودة بما تقتضيه الأخوة التي قررها

الدين وجعلها شرطاً لتمامه «لا يؤمن أحدكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه». «كلكم من آدم وأدم من تراب». فعنصرُ الأثرة منفيٌّ بالعقيدة، وفي هذه العقيدة أكبرُ ضمان.

والمصلحةُ العامة أيضاً ليست موكولة للصدفة، لأن على الأعمال حساباً يُقْتَضَى من إله عليم في الدنيا والآخرة، فهو يجازي الأمم المسرفة المفرطة المتخاذلة في الدنيا، ويحاسبُ الناس على أعمالهم في الآخرة. والعدل هو الإنصاف بالحق موزوناً بالإخاء والمساواة، فليس عدلاً ما يتنافى مع الإخاء والمساواة.

الإيمان هو
الحارس الأول
على المصلحة

وعليه فالدولة الإسلامية التي يكفلُ فيها الإمامُ التوازن الاجتماعي والتي تقومُ على قوله تعالى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ أَلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء / ٣٥]. والتي أخذَ فيها رأي عمر رضي الله عنه في ظرفٍ ما، وعُدل به عن ظاهر النص القرآني عدولاً مبرره المصلحة العامة لا محل ولا سبيل لنزاع الطبقات فيها.

قد يقال: إن ذلك صحيح ما دام خوف الله وطاعته أصلاً في اعتبار المصلحة العامة، فما القول إذا ضاع الإيمان وفسد الوجدان؟ والجوابُ أن ذلك هو ما أصاب العالم وجرَّ هذه

الولايات على الحضارة الأوربية، وجرّها بالطبع على المسلمين والشرقيين منذ أمدٍ طويلة.

ومع ذلك فالشريعة الإسلامية بما أوتيت من سعة الأفق وحسن التقدير قد فرضت كذلك مثل هذه الحال فأقامت الزجر والتعنيف لرد الناس إلى الحق، حتى أباحت القتال لنصرة المظلوم، ووكلت إلى ولي الأمر إقامة الحق بالقوة، إذ لما ارتد العرب وأبوا أن يدفعوا للفقراء حقوقهم قاتلهم أبو بكر وقال «والله لو منعوني عقالٍ بغير كانوا يؤدّونه لرسول الله لقاتلتهم عليه!» فلم يكِل أمر الفقير لوجدان الناس وقاتلهم على حقه.

إلزام السلطان
بمنع نزاع الطبقات
وبالتأمين
الاجتماعي

والشريعة المحمدية حين خصّصت بنص القرآن إيراد ضرائب الصدقات للتأمين الاجتماعي ضد صنوفٍ من الحاجة لم تكِل الناس إلى وجدان الإمام أو الدولة، وزادت على ذلك أن جعلت للإمام أن يفرض في أموال الناس بقدر ما يؤمّن الحاجة، كما عليه التزاماتٌ لا مخلص منها لأصنافٍ من المصابين في المجتمع أشار القرآن إليهم، ولا بد له من أدائها من بيت مال المسلمين. ويمكن أن يضاف إلى هؤلاء الأصناف أصناف أخرى من ذوي الحاجة بالقياس؛ فعليه مثلاً علاجُ مَنْ لا عائل له من المرضى، وإرضاع من أبت أمه إرضاعه، وإيواء من لا مأوى له،

وَإِطْعَامَ مَنْ لَا عَمَلَ لَهُ، وَإِعَانَةَ الْقَادِرِ عَلَى الْعَمَلِ بِتَمَكُّينِهِ مِنَ الْعَمَلِ.

فالشريعة المحمدية لم تترك الأمر لوجدان الناس وحده، ولو أنها في الحقيقة كانت حكيمة في استخدام الوجدان كأحسن أداة لعلاج المشكلة الاجتماعية.

وقد أشرنا إلى ضرائب الصدقات باعتبارها أداة لمقاومة الفقر وبالتالي علاجاً للمشكلة الاجتماعية، وأشرنا كذلك إلى حق الإمام في التشريع والاجتهاد برأيه بعد استشارة ذوي العقول والعلم من أهل الرأي متوخياً المصلحة العامة وحائلاً بين الطبقات والطوائف وبين النزاع والتحاسد والبغضاء. فهذه الضرائب المقررة بنص القرآن والمباحة باجتهاد الإمام ورأي جماعة المسلمين أصل ثابت في مقاومة الفقر.

وقد عولت الدعوة على الوجدان تعويلاً كبيراً وجعلت جزاء المحسنين الجنة، فنرى التحريض على إنفاق المال في سبيل المحتاجين إليه يتردد في آيات الكتاب في كل مناسبة، وفي أقوال الرسول في كل حين. وليس هذا مقام سرّد عشرات الآيات وعشرات الأحاديث ويكفي قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ

العنصر
الروحي
التهذيبي

الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ [إبراهيم / ٣١].

والتربية المحمدية تهذيب يرمي إلى التكافل الاجتماعي،
ويجعل الغرض من العمل والحياة البر ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل / ٩٠]. فكل شخص حسنت
تربيته فهو مهياً تماماً للخدمة الاجتماعية؛ وهذه التهيئة بالتربية
المحمدية هي أفعال الوسائل في مقاومة آفات المجتمع وأقدرها
على جمع الناس ومنع النزاع.

وإذا اعتبرنا ما ذكرنا من وسائل مقاومة المشكلة الاجتماعية
أعمالاً إيجابية في الدعوة المحمدية لمنع حرب الطبقات، فإن
الأسباب السلبية ليست أقل أثراً في هذا السبيل؛ فبينما نجد أن
الدولة الإسلامية هي أكبر مؤسسة للتأمين الاجتماعي، يرأسها
إمام المسلمين ويقوم فيها أهل الشورى مقام مجلس الإدارة في
الشركة، ونجد هذه الدولة تعمل لرفع مستوى العيش للطبقة
المحرومة، نجد كذلك الدعوة المحمدية تقاوم بسلاح الإيمان
والدين الإسراف والترف لتنزل بمستوى البذخ إلى مقام لا يثير
الحسد والضعينة، فتعني على المترفين والمُسرفين في شهواتهم

وتحذرهـم سوء المصير وعذاب الله والحـرمان الآخـروي، بل لا تكتفي بذلك وتنذر المجتمع كله بالويل لتركه مُسْرِفيه ومُتَرَفِيه دون ردع ولا زجر. ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال / ٢٥]. ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف / ٣١]. ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبٍ بِطَرَفٍ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص / ٥٨].

وبين أن من أسباب الخراب الاجتماعي كثرة المترفين في الأمة ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء / ١٦]^(١).

محاربة الترف
والبذخ

أحلت الدعوة الطيبات من الرزق، ولكنها حرمت على الرجال لبس الحرير والذهب كرمز لبغضها الترف والزينة الكاذبة، وأباحـت للنساء الزينة، ولكنها قاومت غلو المرأة بإعطاء القوامـة للرجال، وبمنعها من الظهور في تبرج. وما زالت الشريعة تحذ من الإسراف والترف وبذخ العيش حتى ظن الناس أن

(١) أمرنا: أي أمرناهم بأوامر التقى ونهيناهم عن الآثام والفسوق. والأمر في اللغة يشمل

ليس لغني سبيل إلى ملكوت السماء بغير الخروج من ماله،
وصار التقشف رمزاً للتقوى.

الرسول الزاهد

ولقد كان رسول الله نفسه على ما أوتي من سلطة أكبر
الزهاد: يقول ابن مسعود: «دخلت على رسول الله وقد نام على
حصير وقد أثر في جنبه وقلت: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً
نجعل بينك وبين الحصير يقيك منه؟ فقال: «مالي وللدنيا! ما أنا
والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها».

ويروي ابن هشام عن زيد بن أسلم «لما استعمل رسول
الله ﷺ عتاب بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهماً. فقام
أسيد وخطب الناس فقال: أيها الناس، أجاج الله كبد من جاع
على درهم! قد رزقني رسول الله درهماً كل يوم فليست لي
حاجة إلى أحد».

وروي أن رسول الله دخل على فاطمة وفي يدها سلسلة من
ذهب، وهي تقول لامرأة عندها: هذه أهداها أبو الحسن - تقصد
علياً زوجها - فقال ﷺ: «يا فاطمة أيسرك أن يقول الناس: ابنة
رسول الله في يدها سلسلة من نار!» ثم خرج ولم يقعد، فأرسلت
فاطمة بالسلسلة فباعتها واشترت بثمنها عبداً فأعتقته، فحدث

رسول الله بذلك فقال: «الحمد لله الذي نَجَّى فاطمة من النار».

وكان دعاؤه ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً» أي لا يزيد عن الحاجة.

وعن أبي أمامة الأنصاري قال: ذكروا عند النبي الدنيا فقال: «ألا تسمعون؟ ألا تسمعون؟ إن البذاذة من الإيمان. إن البذاذة من الإيمان» أي التواضع في اللباس والزينة.

فالدعوة المحمدية قد قاومت الفقر والترف فقاومت البغض والحسد، واستحال معها نزاع الطبقات. هَوَتْ بفضل الأموال والأحساب وسمت بفضل التقوى والقناعة، وعوضت الناس عن كثير من متاعهم المادي بمتاع روحي، فلا شك أن فاطمة حين باعت السلسلة وحررت العبد كانت تشعر بغبطة وسرور كلما ذكرت فعلها، أكثر مما لو أبتت السلسلة في يدها.

المتاع
الروحي
أبقى

وهل كان عمرُ غالبٍ قيصر وكسرى، وهو في ثوبه المرقع أقلُّ متاعاً بنفسه الراضية من المترفين الجبابرة في قصور قيصر وكسرى؟ كلا. ولقد كان النجاح الذي أوتيته الدعوة المحمدية في علاج المشكلة الاجتماعية بوسائلها السلبية والوجدانية

أعظم أثرًا في إصلاح المجتمع من وسائلها الإيجابية بضرائب الصدقات أو كفالة الدولة للمحتاجين بسطوة السيف والقانون.

جمع بين
المصحف
والسيف

والدعوة التي استطاعت أن تجمع بين السيف والوجدان ليتسلطا في وقت واحد، ويسيرا في نهج واحد لغاية واحدة هي مجاهدة آفات المجتمع، هي الدعوة الموفقة التي ستظل حيّة على مدى العصور.

✻ النزعات العنصرية والوطنية

العنصرية قديماً وحديثاً- الوطنية والقومية الحادة عصبية
حديثة- أثر التشدد في الحدود الجغرافية والجنسية-
انتقال العصبية الحادة إلى الشرق- نظريات اختلاف
الدم- أضرار الهجرة الإجبارية- بارود الحروب الحديثة-
الإسلام لا يعرف وثنية العنصر والوطن- وضع العلاقات
البشرية على أساس معنوي- خلاف أخف من خلاف-
القوة ليست وسيلة الإسلام لتحقيق أهدافه- لا سيادة
ولا عبودية.

ولننظر الآن في سبب آخر من أسباب الاضطراب العالمي
وهو الإفراط في النزعة الوطنية والعنصرية وما ترتب عليها من
الأثرة وحبّ الانفراد بالعزة والسلطان وإنكار حقوق الآخرين،
ثم النزاع والتسلح والحرب.

العنصرية قديماً
وحديثاً

كان الناس يتنافسون قبائل ويتحاسدون ملوكاً ويختلفون
على الله أو في سبيل الله، ولم تكن نعمة الوطن ولا نعمة العنصر
فاصلاً حاسماً بين المجموعات البشرية كما أرادت المدنية

الحديثة. وتاريخ العرب والترك والبربر وغيرهم من الأقوام الإسلامية حافلٌ بالنزاع القبلي، بعيدٌ عن النزاع العنصري. وكذلك كان الشأن في أوروبا، وكانت الأسرة الملكية تضم تحت رايتها باسم الولاء للملك أو باسم الولاء للمذهب قبائل وشعوبًا تتحد مصالحها وإن اختلفت أصولها أو لغاتها، وأحيانًا عقائدها. وكثيرًا ما تكون هذه الأسرة غريبة، أو تكون من الأقلية القومية في الدولة، فتتكون تحت رايتها مجموعة تربطها القوانين وتتسع لأقلياتٍ شتى تعيش تحت الراية، ينالها من الشقاء والسعادة مثل ما يصيب الجميع.

وكثيرًا ما تكون هذه الأقليات أرغب في هذه الراية والولاء لها منها لأقرب الأقوام والعناصر من جنسها أو لغتها تحت رايةٍ أخرى.

كان الأمر كذلك في كثير من الدول التي عاصرناها كالدولة العثمانية تحت لواء آل عثمان، والدولة النمساوية المجرية تحت لواء آل هابسبرج، وقد شاهدنا شعوبًا من العرب أشدَّ ولاءً وإخلاصًا لدولة آل عثمان منهم لأمرائهم وأشرافهم من العرب.

وكان الأمر كذلك في الدول القديمة، وفي دول القرون الوسطى، كالدولة العباسية والإمبراطورية الرومانية المقدسة والإمبراطورية البيزنطية. وكذلك عرفنا من الصقالبة في دولة النمسا من كانوا أوفى لها منهم لأبناء عمومتهم من الروس.

كذلك كان يرقى سُلَّم المناصب كلُّ من سمحت له مواهبه وظروفه في خدمة الملك أو السلطان، فتجد البرامكة وآل طاهر الإيرانيين، أعلى الناس مقامًا في خلافة الهاشميين من العرب، وعائلة (كوبرلي زاده) من الأرثوؤط في خلافة العثمانيين من الترك، بل لقد صعد هذا السلم من العبيد في الدول الإسلامية عدد أكثر بكثير مما تأذن به نسبتهم العددية، وبلغ الذروة من الممالك ما بين مصر والهند في الدول الإسلامية عشرات السلاطين ممن لا تزال آثارهم خالدة في دلهي والقاهرة، وفي تلك الساحة الإسلامية العظيمة من الأطلسي إلى الهادي.

ولم يكن الناس يتساءلون عن عنصر ولا أصل، وإنما يتساءلون عن عملٍ وخُلُقٍ ودينٍ. فمن الممالك الذين وصلوا إلى أعلى مناصب الدولة في مصر والبلاد الإسلامية نجد الأرمني والروسي والصقلي والكرجي والشركسي والتتري والتركي

والفرنحي والسوداني والحبشي. ولو تعقبنا أنسابهم لانكشفت
لنا عن جميع ألوان البشر.

فلم تكن الوطنية بمعناها الحديث، ولا القومية بعصبيتها
الحاضرة حدًّا فاصلاً بين الناس كما صارت في العصور الأخيرة.

الوطنية والقومية
الحادة عصبية
حديثة

فالوطنية والقومية بمعناها الحالي لم يكونا مع الأسف
خطوة في سبيل الاستقرار، بل كانتا عاملاً لزيادة الاضطراب
العالمي، وسبباً جديداً لنزاع أوسع دائرة وأعصى حلاً.

فإن الوطن باعتباره مقاماً جغرافياً لقوم من الأقوام لم
يستطع أن يحدد حدوداً لجنسه من غير أن يصطدم بقوم آخرين
وباتشارهم، ولم تساعد الطبيعة إلا نادراً على تحديد ساحة
خاصة لعنصر خاص. ففي أوروبا كلها لا تجد إلا الجزر البريطانية
التي حددها البحر، ومع ذلك فلم تخلُ إيرلنده من نزاع مع
بريطانيا على مقاطعة (ألستر) في شمال إيرلنده.

أثر التشدد في
الحدود الجغرافية
والجنسية

وقد مرّ قرنان على الأقل على أوروبا، وقد غرقت في دماء
حروبها لتعديل الحدود وتحرير الأقليات بين الفرنسيين والألمان،
وبين هولاء والنمساويين؛ وبين هولاء وهولاء والصقالبة، وبين
النمسا وإيطاليا، وبين البلقانيين جميعاً، وبينهم وبين الدولة

العثمانية، وبين روسيا وجيرانها من الغرب أو الشرق أو الجنوب،
وبين التشيك والبولنديين والمجر والرومانيين.

وهكذا نجد النزاع على ما يسمى الوطن وحدوده قائماً لا
يستقر بل يتزايد على مدى الأيام، وعلى قدر الحدة في العنصرية
والوطنية.

فما لم تكن الطبيعة بالمصادفة قد فصلت في الأمر ببحر أو
جبل فلا بد من النزاع.

انتقال العصبية
الحادة إلى
الشرق

وهذه المشكلة الأوربية المستعصية وما يتبعها من نزاع
على الحدود ونزاع على العنصرية وما تنطوي عليه من مشاكل
الأقليات، أخذت تنتقل إلى الشرق نتيجة لتأدبه بأدب الغرب،
واعتناقه نظرية الوطن والقومية، فأخذنا نسمع في السنين الأخيرة
بقضايا شبيهة بالقضايا البلقانية على سنجق الإسكندرونة بين
سوريا وتركيا، وعلى شط العرب والحدود بين العراق وإيران.
ولم يكن المسلمون بتربيتهم الحمدية يتنازعون على مثل هذه
القضايا باعتبارها مشاكل عنصرية، وستكون هذه المشاكل سبباً
لبلاء الشرق كما كانت سبباً للحروب الدامية في الغرب، فيتنازع
العرب والترك والكرد والشركس والأذربيجانيون والإيرانيون

والأفغان والهند والأزبك والصين والمغول.. إلى آخرهم، على
الحدود والأقليات، حتى يدخل الشرق جُحْر الضَّبِّ الذي
دخله الغرب!

والوطنية بالعرف الحديث شرٌّ جديد، والعنصرية بلاء
أعظم، ولا دواء لهما إلا بتهجير عشرات الملايين من منازلها
الحالية، وحصر كل منها في نطاق جغرافي خاص.

وقد أخذ بعض الأوربيين يُسرف في الدعوة العنصرية،
فغالوا في معناها واشتطوا في مرماها، فجعلوا عنصرًا سيّدًا نقيّ
الدم وآخرين دون ذلك. وهو أمر محال لا وجود له، يزيد العالم
اضطرابًا وخصامًا.

نظريات اختلاف
الدم

ومن ذا الذي يستطيع أن يفرز الأقوام ويحلل دماءها
ويكفي الناس شر الأقليات المذهبية واللغوية والقومية، ويكفيهم
بلاء الحدود التي لم تأذن بها الطبيعة ولا العقيدة والفكر؟

وقد جرب اليونان والترك الهجرة الإجبارية، ولم يستفد
منها اليونان ولا الترك رغم ما صاحبها من اضطراب وقسوة في
نزع الناس من مناباتهم ومساقط رؤوسهم. على أن هذا التهجير
الذي كان محدودًا وساعدت عليه ظروف خاصة لا يمكن تعميمه

أضرار الهجرة
الإجبارية

كقاعدة. ومع ذلك، فلو فُرض أننا ضَمْنَا جيلًا من الناس في سبيل هذه التسوية، فإن الأجيال الآتية كفيلة بنقض ما سوّينا؛ لأن طبيعة الحياة تستلزم النُّقلة، والمصالح تتبدل، والأقوام تنمو وتنقرض، فلا بد من اختلاط جديد وانتشار جديد، ولا بد من العودة إلى القسوة والتهجير الجبري.

بارود الحروب
الحديثة

وقد حاولت عصبة الأمم حلًّا لمشكلة الأقليات فهل حلّتها؟ ألم تكن هذه المشكلة في السوديت واللوريين ودانزج وترنسلفانيا وبسرابيا والدبروجة من مسببات الحرب الأخيرة ومضخماتها؟ ولقد كان الغلو في معنى الوطنية والعصبية القومية عاملاً أساسيًا في زيادة الاضطراب العالمي، والتدرج بالحروب من نزاع موضعي إلى شرٍّ مستطير أبعد مدًى في الأرض، وأوسع دائرة في الخطر، أو بعبارة أخرى متناسبًا مع الانتشار الكبير للأقوام، متناسبًا مع سهولة الانتقال الحديث، متناسبًا مع الغلو في الأفكار القومية والوطنية.

الإسلام لا يعرف
وثنية العنصر
والوطن

والدعوة المحمدية لا تعرف الوطنية والعنصرية بالمعنى الحديث؛ فوطن المسلم ليس له حدود جغرافية، فهو يمتد مع العقيدة، بل هو في الحقيقة وطن معنوي كما أن الدين أمر

معنوي. يقول الله تعالى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةً فَإِنِّي فَأَعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت / ٥٦]. والمسلم أخو المسلم أينما كان، جاوره أم تباعدت به الأرض، والمسلم أينما حلَّ في دولة إسلامية فقد حلَّ في وطنه، وإذا وجد في دار حرب بين جماعة معادية للمسلمين فسقطت عنه بعض التكاليف أو سقط بعض ماله من حق فإنه يكسب جميع الحقوق وتكون عليه كل الواجبات بتحوله عن داره، أو بدخول أهل هذه الدار، متى تغيرت الظروف بصلح أو ميثاق مع المسلمين، أو اشتراك في الدولة.

فالعنصرية أو العصبية للقبيلة أو الوطن أو اللون أو اللغة أو الثقافة تنكرها الدعوة المحمدية وتعتبرها دعوة جاهلية. يقول ﷺ: «ليس مِنَّا مَنْ دعا إلى عصبية» فالإسلام يأبى كل عصبية لغير كلمة الله، ولا يعرف الولاء إلا للعلاقة الروحية. والناس من أي جنس أو لون أو وطن إخوان إذا اتفقوا في العقيدة، وولاؤهم إنما يكون لأمر معنوي لا لأمر مادي. يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾ [الحجرات / ١٣]. ويقول سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَءَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ
تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي
سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ ﴿التوبة / ٢٤﴾.

وضع العلاقات
البشرية على
أساس معنوي

وهذه نظرية قد وضعت أساس العلاقات البشرية على
وحدة الفكر ووحدة الغاية المعنوية، فهي بلا شك أسمى
من النظرية الحديثة التي جعلت الجنسية أو المصلحة المادية
أساس الولاء المشترك، لأن النظرية المحمدية تسمو بالبشر
وتشرّفه بالعقل والروح، بينما الأخرى تُهبطه إلى المادة فتشغل
ناحية الحيوانية منه، والعناية بحاجات الروح أدعى إلى السلم
والاستقرار من العناية بحاجات الأبدان.

فنظرية الروح أسلم عاقبة وأدعى إلى السكون والتراحم.

خلاف أخف
من خلاف

قد يقال: إن ذلك معناه أنك ترجح أن يكون النزاع بين
الناس على العقائد والرأي لا على البترول أو القطن، وذلك لا
يغير كثيراً من قيمة النزاع وشرّه، ولا ما ينشأ عنه من اضطراب
وحروب عالمية. وذلك صحيح لأول وهلة. ولكن نظرة في طبيعة

الناس تعلمنا أنهم أشد انفعالاً وأكثر تحفزاً للشر حيثما يكون الأمر متعلقاً بالمادة وماساً بحاجاتهم البدنية، فالفلاح يقتل جاره لسقية ماء يريد لها لحقله، ولكن لا يخاصم هذا الجار على خلاف ديني أو مذهبي، ولم نسمع أن مثل هذا الخلاف يؤدي إلى القتل إلا في النادر الشاذ.

وتاريخ الدعوات الفكرية قد تصحبها الحدة في بادئ الأمر، وينتهي شأنها إلى الاستقرار والحجة وسعة الصدر، لأن البشر لا يستطيعون التحمس للاعتداء والأذى إلا بحافز مستديم، والحافز المستديم هو حاجاتهم اليومية المرتبطة بمطالبهم المادية، وكثيراً ما تكون حماسهم ثم فتكهم وهم يندفعون وراء فكرة سامية مشوبة بعامل خفي من مطالبهم البدنية.

ومع ذلك فالدعوة المحمدية قد احتاطت للأمر، فبعد أن أقامت العلاقات بين الناس على أساس وحدة الهدف المعنوي، حرّمت على أنصارها أن يتوسلوا بالقوة لنشر الدعوة. يقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة / ٢٥٦].

فالإسلام لا يأذن باستخدام القوة إلا لضمان حرية الدعوة للناس جميعاً. وفرق بين المطالبة بحق حرية الرأي وبين الإكراه على تغيير حرية الرأي.

القوة ليست
وسيلة الإسلام
لتحقيق أهدافه

وإذا نستطيع أن نقرر أن الاضطراب العالمي القائم على دعوى الوطن الجغرافي، ودعوى القومية والعنصرية، ودعوى الحقوق المادية للوطن والعنصر يزول لو أننا اتخذنا من أصول الدعوة المحمدية ومبادئها الدولية نظريتنا للعلاقات بين الأمم بسيادة الروح التي تدعو إليها وتشاركها فيها الأديان السماوية الأخرى.

ولعل الناس يجدون في ذلك الهدى، ولعل في نظام العالم بعد الحرب الأخيرة، وبعد هذه العبر ما يقوم على تلك النظرية السامية البعيدة التي جعلت عمر بن الخطاب بعد أن بعد عن عصبية الجاهلية ونشأ في المدرسة المحمدية يقول: «لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لوليتُهُ» والتي يعبر عنها رسول الله بذلك القول المأثور: «أنا أخو كل تقى ولو كان عبداً حبشياً، وبريء من كل شقى ولو كان شريفاً قرشياً».

لا سيادة
ولا عبودية

هزيمة القوى المعنوية ❁

السيطرة على المادة وأثرها في طغيان المادية - سرعة التطور المادي وبطء التطور الروحي - تباعد الفروق بين الناس تبعاً لحظوظهم من العلم المادي - بلبلة وشتات وتناكر - ضرورة التوفيق السريع بين الروح والمادة - نَعَم تستحيل إلى نَقَم - جرائم تُرتكب باسم الحريات - لا بد من ضوابط أدبية قبل الكارثة الكبرى - توفيق الإسلام بين الحياتين - المدنية تتحطم مرتين في ربع قرن - أتعмир للتخريب؟ فلنرجع إلى منابر الهدى والرحمة في الأديان - تصوير للحرب تسخر منه العقول - أجهالات في مكان الكمالات! أفلح من زكاها.

سبب آخر من أسباب الاضطراب العالمي، هو انهزام القوى المعنوية أمام القوى المادية، أو بعبارة أخرى تخلف القوى المعنوية عن اللحاق بالتطور الفجائي للحياة المادية، واختلال التوازن بين الروح والمادة.

وكان الناس وهم على الفطرة الأولى لا يسيطرون على المادة إلا سيطرةً محدودةً، ولا يطمعون في التغلب على الطبيعة طمعهم بعد اكتشاف البخار والكهرباء، ونفاذهم إلى القوى الكامنة في

السيطرة على
المادة وأثرها في
طغيان المادية

الذرة، وإلى عناصر المادة وتحويل تراكيب هذه العناصر. فلما
افتنوا في استخدام الكيمياء والميكانيكا، واستخرجوا من ذلك
قوى جديدة، انصرفوا عما وراء الطبيعة وعن عالم الروح إلى قهر
الطبيعة والإيمان بالمادة وفعلها دون سواها.

ففي أجيال معدودة تغير وجه الحياة وانعكست وجهات
النظر، فلو خرج أجدادنا من أجدادهم لاستنكروا حياة أهل
الحضارة الجديدة استنكار سكان الكهوف لسكان ناطحات
السحاب. فقد تغيرت أسباب العيش وتغيرت كفياته وتغيرت
أغراضه، وانقلب الناس إلى السرعة يطلبونها وإلى الحركة الدائمة
يستطيبنها، فنفروا من الدعة والسكون بقدر ما كان أجدادهم
ينفرون من الضوضاء والسرعة.

تغير طرُز الحياة فجأة ولما يستقر، بل هو في تغير مستمر؛
فالفرق بيني وبين أبي هو جيل واحد^(١)، ولكنه أعظم من الفرق
بين أبي وبين آبائه قبل عشرات الأجيال.

(١) ولد أبو حسن عزام في النصف الأول للقرن الماضي ومات في أوائل هذا القرن (١٩٠٩)
وكان شيخاً ريفياً زعيماً في قومه متفقهاً في الدين ممثلاً لمديرية الجيزة في مجالسها النيابية.
وكان أبوه سالم عزام حاكم إقليم أي من بيئة متصلة بالدولة ومع ذلك فإن الفرق بيننا
ما ذكرت.

سرعة التطور
المادي وبطء
التطور الروحي

هذا التغييرُ الماديُّ المستمر، وهذه السرعةُ التي لا تزال تتضاعف دون أن تبلغ حدَّها الأقصى، قد جعلت الإنسان وهو يلاحقُ الحياةَ الماديةَ الجديدةَ يُغفلُ، أو لا يستطيع أن يحتفظ بحياة معنوية مناسبة؛ فهو لا يستطيع أن يساير هذه السرعة المتفجرة تفجَّرَ المادة إلى أجزائها مسيرة يحتفظ فيها بترائه المعنوي، فتخلفت الحياةُ الروحية التي كسبها الناسُ في تجربة آلاف السنين عن الحياةَ المادية الجديدة التي كسبوها في قرن واحد، وتطورت هذه الحياةُ تطوراً فجائياً، وبقي الإنسانُ مثقلاً بتراثٍ معنويٍّ ضخم لا يتحرك معه فخلَّفه وراءه.

تباعد الفروق
بين الناس تبعاً
لحظوظهم من
العلم المادي

فَنَرَى الناسَ مختلفي الحياة اختلافاً كثيراً بعد أن كانوا في أطراف المعمورة تربطهم صلات معنوية ومادية قوية، ولا تختلف نظرتهم للحياة ولا كيفية عملهم فيها إلا قليلاً. والفرق بين أبناء الجيل الواحد في بلدٍ واحدٍ أكثر مما كان من فرقٍ بين إنسان في شمال أوروبا وآخر في وسط آسيا منذ بضعة قرون. بل إن الفرق بيني هنا في القاهرة وبين بعض الفلاحين من أبناء عمومتي، وأنا لا أزال وثيق الصلة بأهلي، هو أكثر بكثير في طَرز الحياة وطَرز التفكير مما كان بين أحد أجدادي الأقربين وسكان المغرب الأقصى أو الأفغان. ولا أظنُّ أن (ابن بطوطة) حين رحل

من المغرب الأقصى إلى الشرق الأقصى وجد من الفرق بين الناس ما يجده قرويُّ لم يسبقُ له زيارة القاهرة إذا جاء إليها من ناحية قريبة في الجزيرة مثلاً.. ففي الوطن الواحد أصنافٌ من الأمم تباعدت أفكارهم وأخلاقهم ومعنوياتهم تباعداً متناسباً مع قدرتهم على ملاحقة الحياة المادية الجديدة، فمنهم من يركبُ في موكب الحياة المادية المتحركة، ومنهم من يتعلقُ بمركبها، ومنهم من يجري وراءها، ومنهم من ينظر حائراً، ومنهم من يشقُّ وقعه وانقطع..

فالذين ملكوا المادة وصناعتها، عليهم - وهم في موكب الحضارة - مَسْحَةُ التجانس الظاهري، ولو أن صلاتهم الروحية أضعفُ جداً مما كانت، والمتخلفون أقلُّ تجانساً.

لقد صارت الأمم صنوفاً من الناس متقاطعة، وصار البشرُ مشتتين في عالم متناكر تبلبلت فيه الأفكار، واختل العرفُ البشري، وتباعدت ألوانُ العيش المادي، وتكاثر صوره الذهنية، وتناكرت الطبقات والطوائف والأقوام. وكلما امتد دور الانتقال تعددت مظاهرُ الأفراد والجماعات واستعصى الرجوعُ بها إلى أصولٍ مقبولة ومسلّمٍ بها من الجميع، أو مسلّمٍ بها على

بلبله وشتات
وتناكر

الأقل من كُتَلٍ كبيرة كانت تجمَعُها صلاتٌ روحية قوية في عقائد دينية مشتركة تشمل مئات الملايين من الخلق.

وما يُظَنُّ من أن الحياة المادية القائمة على السرعة وسيلة عاجلة لجمع البشر على نظرة موحدة للحياة المادية، وعلى أسسٍ معنوية مقبولة من الجميع، أمرٌ قد يكون في سبيل التحقيق، ولكنه لا يزال بعيداً جداً، وسيلقى العالم أهوال أدوار الانتقال والاستقرار، ولن يستطيع الناس أن يخلعوا التراث المعنوي والفكري كما يخلعون الثياب، ولذلك ها نحن أولاءٍ نشهدُ تشعُّبَ الأفكار والآراء واضطراب الحياة.

ضرورة التوفيق
السريع بين
الروح والمادة

ولا بد لنا من التفكير العاجل والعمل السريع للتوفيق بقدر المستطاع بين الحياة المعنوية الموروثة وبين الحياة المادية المفاجئة، وتجنب أثر الصدمة التي تتولد منها هذه الانفجارات الهائلة بين الأمم وبين الطبقات في الأمم. لا بد لنا، كي نتمتع بثمار المدنية الآلية ونستكمل نعمتها، من بعث الحياة الروحية بعثاً جديداً مناسباً للحياة المادية الجديدة. ففي هذه الحضارة نعم لا حد لها؛ فقد تغلب الإنسان بالآلة والعلم على كثير من الصعاب والويلات؛ زاد إنتاجه وسهل انتقاله وقهر الأمراض الجائحة

واتقى القحط، وتعددت مصادرُ لهوه ومرحه وتزينت له الأرضُ
وأخذت زخرفها ومشى في قرنٍ واحد بالحضارة المادية ما لا
يقاس معه مشيُّه في القرون الماضية، ولكنه في قرنٍ واحد كذلك
قضى أو كاد يقضي على تراثه المعنوي الذي كسبه في عشرات
القرون.

نسي الله فأنساه نفسه. ففي جيل واحد هُزمت حياةُ
الروح هزيمةً نكراء أمام حياة المادة، وأخذت الآلة الصماء، وقد
سيطرت، تفتك على غير هدى وبغير ضابطٍ من دين أو خلقٍ
أو عرفٍ، وبقي تراث البشر المعنوي لا حراك له، فشكَّ الناسُ
في قيمته، وهم اليوم ينظرون إليه شيعاً بعضها يعطف عطف
الأحياء على الموتى، وبعضها يشمت شماتة الغالب بالمغلوب،
وبعضها يُخلص له ولكنه في الاشتغال بحاله يتخلف عن موكب
الحضارة السائر في عزة المنتصر وزهوه.

والواقع أننا من غير تدبر اندفعنا في سبيل قد حوّل النعم
التي نتمتع بها إلى وسائل هلاكٍ لنا ولحضارتنا؛ فبدل أن نناصر
القوى المعنوية ونعطيها من مجهودنا وهمتنا ما نعطي القوى
المادية أخذنا نزيّف آراء ونخترع لها نظريات ونصدقها، ولا نلبثُ
أن نرتدّ عنها. وها نحن أولاء بهذه الآراء الخطيرة نسيرُ للهلاك.

نعم تستحيل
إلى تقم

فباسم حرية المرأة ندمر هدوء المنزل وحياة الأسرة، وباسم
حرية الوطن تمزق الأوطان، وباسم حرية العمل وحرية رأس
المال سنمحو رأس المال ونستعبد الطبقات، وباسم مقاومة هذه
الحريات سنفقّد حرية الفرد وحرية الجماعة وحرية الرأي. ولم
يكن أهل الرأي والعقل والعلماء والفلاسفة أقلّ أثرًا في المجتمع
البشري منهم في عصر سيطرة الآلة الذي نعيش فيه.

جرائم ترتكب
باسم الحريات

هذا ولا تزال هزيمة الأديان والعرف والأدب القائم على
تجارب آلاف السنين لم تبلغ نهايتها، فإذا بلغت ولم يحل
محلّها شيء آخرُ يسندُ الحياة المعنوية والقوة الأدبية فأَيُّ ضابط
يبقى لهذه الآلة الجامحة والقوى المتفجرة التي أطلقها الإنسانُ
من عقال الطبيعة وعجز عن أن يوجهها للخير وحده؟! فلا بد
للعقلاء من صيحةٍ أرجو ألا تضع في ضوضاء الآلة. لا بد
للعقلاء من الصبر والكفاح في سبيل الحياة الروحية، في سبيل
أن تسائر القيم المعنوية القيم المادية، وأن تزدوج الحياتان لا أن
تتنازعا وتتفارقا.

لا بد من
ضوابط أدبية
قبل الكارثة
الكبرى

ولقد كان الإسلام أبعد نظرًا حين دعا إلى هذا التزاوج فيما
يؤثر من ميراثه، بقوله: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل
لآخرتك كأنك تموت غدًا». والدنيا مطية الآخرة.

توفيق الإسلام
بين
الحياتين

فلتكن الحياة المادية الفانية التي تغير وجهها في قرن واحد كل هذا التغير، مطية للحياة الخالدة الباقية حياة الفضيلة حياة الرحمة. قد يقول بعض الناس: إنك تكاد تُنكر الرقي الأدبي والمعنوي الذي صاحب هذا التطور المادي الفجائي وتنكر نعم المدنية الجديدة؛ وإني لا أنكر شيئاً من فضلها، ولكني أنعي هزيمة القوى المعنوية وهزيمة العقل أمام الآلة الصماء المتحركة التي تحملنا في جوفها وتشملنا بين أجزائها. وقيم الأشياء بأثارها والأعمال بنتائجها.

ونحن الذين شاهدنا ويلات الحروب العالمية مرتين في ربع قرن أحق الناس بالتساؤل عن القيمة الحقيقية للمدنية التي هذه بعض أثارها. ولنا كل الحق في أن نقف لنتدبر ونرجع البصر كرّتين إلى القوى المعنوية للأديان، لعلنا نستمد منها تسلح الوجدان البشري ضد طغيان الآلة الصماء، لنرجع إلى تلك القوة المعنوية التي كانت توجهنا إلى الخير العام بقوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران / ١١٠]. فجعلت هدف الحياة هو فعل الخير ومقاومة الشر.

مدنيتنا تتحطم
مرتين في
ربع قرن

أتمير
للتخريب؟

أما أن يكون غرضُ الحياة الحصولَ على المواد الخامة، ثم تقديمها للآلة الصماء، ثم النزاع على الأسواق لتوزيع منتجات الآلة، ثم القتال على المادة كي تستمرَّ في حركتها، ثم نطلب المزيد فننتزعُ لمنتجاتها الأوطان أسواقاً، ونفتحُ الأرض لمخزون الرِّكاز فيها، ويتقاتلُ عبيد الآلة من أجل السبق إلى حاجاتها، ثم ينتهي بنا الأمر إلى حروبٍ عالمية تُسلَّطُ فيها قوى الآلة كلها لتدمير نفسها وتدمير الحضارة البشرية - فأمرٌ لا يمكنُ أن يدومَ، وهو عندي من نتائج خذلان القوى المعنوية أو جمودها ومناصرة القوى المادية.

فلنرجع إلى
منابع الهدى
والرحمة في
الأديان

نعم لنرجع إلى الأديان نستمدُّ منها الهدى، ولنُوفِّقُ بين هذه الأديان لنستمدَّ من وفاقها القوة، لتتوازن الحياة المعنوية والحياة المادية، ولكي تُوجَّه الأولى الأخرى في سبيل الخير العام، وقد دعانا الله إلى ذلك بقوله:

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى / ١٣].

ولتتصوروا مقدار الخطر من فقدان هذا التوازن ومقدار الحاجة إلى العقل والروح في أحسن عصور الحضارة المادية، تصوروا أنكم دُعيتُم لمشاهدة معركة للقَطَط في جبل المقطم، وقد اصطفت القَطَطُ صفين، ثم هجمت تتقاتل؛ ألا تضحكون عندئذٍ من القَطَط؟ ألا تهزءون بعقولها؟ ألا تسخرون من سخفها؟ بل ألا تنقلبون من السُّخْرِ إلى الرثاء لها ثم البكاء لما أصابها..؟!!

تصوير للحرب
تسخر منه
العقول

فإذا قيل لكم إن قَطَط أحد القارات قد تعلمت علمًا يَكُنُّها من الحركة في السماء وتحت الماء والمخابرة والتفاهم مع قَطَط باقي الأرض بالأثير، وأنها استخدمت علمها وكتبها وعقلها وأدبها، فجمعت قَطَط العالم لمعركة عامة بينها واتخذت ميدانًا للمعركة أوسع من جبل المقطم: سهول أوروبا والصين وجزر آسيا وجبال إفريقيا وصحراءها، وكل مكان تعيش فيه طائفة من القَطَط، وأنها حشدت كل شيء لدوام معركة لا نهاية لها، ثم علمتم أن القَطَط نجحت في خططها، ودعيتُم بصفَتكم الإنسانية أو بصفَتكم ملائكة هذه الأرض لتشهدوا حيوانية القَطَط المتمدنة المسيطرة على الكهرباء والكيمياء، أكنتم تسخرون من عقول القَطَط؟ أم تُعجبون بمدنيتها وعلمها؟ أم كنتم تبكون لما أصاب القَطَط من الضلال؟ أظن أن الملائكة في السماء ورسَل الله منا،

الذين جاءوا بالهدى هم كذلك في السماء ييكون لما يصيبُ
الناس في هذا العصر وما أصاب القوى المعنوية من الهزيمة أمام
الآلة الصماء.

أجهالات في
مكان
الكلمات

إن انهزام القوى المعنوية بسيطرة المادة هو انهزامُ العقل
والمروءة والوفاء والفروسية والتقوى والرحمة والقناعة. وإذا
انهزم أولئك جميعاً حل الجهلُ والغدر والخيانة والأثرة والرياء
والفتك محلّها واضطرب لذلك النظام العالمي.

أفلح من
زكاها

والدعوةُ المحمديةُ حين عُنيت بالروح وتزكيتها، وحين
وازنت بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة، وأقامت الشريعة
على ميزانٍ من العدل تزُنُ بين حاجات الروح وحاجات البدن،
قاومت الطغيان الماديّ فمنعت سبباً من أسباب الاضطراب
العالمي، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ
زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

❁ ثالوث الفساد

الغدر والكذب والنفاق في حياة الأفراد والأمم - فلسفة
سياسية خطيرة - آية قرآنية يفخر بها المسلمون - تشبيه
بليغ - نصوص وحوادث - الغدر غير الخدعة في
الحرب - قبح الغدر حتى بين الأشقياء - الله لا يهدي
كيد الخائنين - الكذب والنفاق في السياسة - المكيافلية
ينكرها الإسلام - سياسة الوضوح - صفتان أدنا من
الكفر - أسماء على غير مسمياتها.

قلنا إن هناك أسباباً أخرى للاضطراب العالمي قد تكون
أقل شأنًا ولكنها عناصر هامة كذلك في عدم الاستقرار إلى سلم
دائم وعلاقة حسنة بين الشعوب والأقوام.

آثار الثالوث
في حياة
الأفراد والأمم

والآن نتخير من الأسباب الكثيرة الخلقية أسوأها أثرًا في
المجتمع البشري، وهي الغدر والكذب والنفاق. وهذه الصفات
الثلاث، على سوئها وضررها في حياة الأفراد، أبعد أثرًا وأعظم
ضررًا في علاقات الأمم، ولذلك عنيت الدعوة المحمدية عناية
كبيرة بمقاومتها في أخلاق الأفراد وصلات الشعوب. وقد فشت

مع الأسف الشديد هذه الصفات المذمومة بنسبة عكسية مع ضعف الحياة الروحية وسيطرة المادة، وأصبح الناس لا يستحيون من الغدر استحياء آبائهم، لما كان يصحب الغدر من ضياع الشرف والهيبة. بل صار كثير منهم ينظر للغادر نظره إلى الكيِّس المبدع في حسن التصرف، ويقيس فضله بنجاحه غير عابئ بالوسيلة وإن كانت أخسّ الوسائل. وإذا ضعف احترام الفضيلة وتقديرها لذاتها فشا الغدر في صلات الشعوب واضطربت العلاقات الدولية أيما اضطراب.

فلسفة سياسية
خطرة!

والمتعقب للسياسة الدولية في مدى نصف القرن الأخير يستطيع أن يشير إلى عشرات المواقف الغادرة، وقلّ أن يجد حلقة نقية في سلسلة الغدر الخبيث. فالمفاجأة والنكث بالعهود كادا أن يكونا القاعدة بعد أن كانا، حتى في الجاهلية وبعد أن انتشرت مع انتشار الإسلام والعرب آداب الفروسية في القرون الوسطى، من الصفات التي تحط من قدر الأفراد والشعوب وتعرضها للزراية العامة.

ولم يزل الكتاب الكريم يُسَفِّه الغادرين ويحض على الوفاء حتى جعل حق الميثاق فوق حق الدين كما أشرنا إلى ذلك في موضع سابق. وهذه الآية الجليلة ﴿وَإِنْ أَسْتَضْرُّوكُمْ

آية قرآنية يفخر
بها المسلمون

فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ يَبِينُكُمْ وَيَبِينُهُمْ
مِيثَاقٌ ﴿ [الأنفال / ٧٢] تبقى أبد الدهر فخر المسلمين في
حرمة العهود وحرمات الوفاء!

وزراية القرآن على الغادرين في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا
بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا
وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ
. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا
تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ
أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ. ﴿ [النحل / ٩١-٩٢] وتشبيهه
الغادر بالمرأة السفيرة تنقض غزلها بعد أن أبرمتها، مثل بليغ
للذين يعبثون بعهودهم، يهوي بهم إلى درك السفاهة، تلك
السفاهة التي يترتب عليها في الحقيقة اضطراب العالم كله إذا
حلّ الغدر محلّ الوفاء.

تشبيه بليغ!

نصوص وحوادث روى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا إنه
يُنْصَبُ لكل غادرٍ لواء يوم القيامة بقدر غدرته، ولا غدره أعظم
من غدره إمام عامة».

وقد ضرب رسول الله المثل الأعلى للوفاء طول حياته،
في صلّاته بالأفراد والجماعات، وبلغ من وفائه أنه سمع لنشيد
حسان في مدح أحد قتلى بدر من أعداء النبي نفسه.

كان مُطْعِم بن عَدِيٍّ من أشرف قريش المشركين، وكان رسول الله حين رجع من (الطائف) بعد أن لقي من (ثقيف) منكر القول والفعل، قد طلب جوار بعض رؤساء مكة ليدخلها أمناً على حياته، فأبوا وقَبِلَ مُطْعِم أن يدخلها في حمايته، فلما كانت واقعة بدر بعد ذلك ودارت الدائرة على قريش وقُتِلَ نفر من صنّادَيْهَا، كان بين القتلى مُطْعِم بن عدي. وفيه يقول حسان بن ثابت شاعر الرسول:

أَيَا عَيْنُ فَاكِئِي سَيِّدَ الْقَوْمِ وَاسْفَحِي
وَبَكِّي عَظِيمَ الْمَشْعَرَيْنِ كِلَيْهِمَا
فَلَوْ كَانَ مَجْدٌ يُخْلِدُ الدَّهْرَ وَاحِدًا
أَجَرَتْ رَسُولَ اللَّهِ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا
فَلَوْ سُئِلْتُ عَنْهُ مَعْدٌ بِأَسْرِهَا
لَقَالُوا هُوَ وَالْمُوفِيُّ بِجِيرَةِ جَارِهِ
فَمَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ فَوْقَهُمْ
بِدَمْعٍ وَإِنْ أَنْزَفْتَهُ فَاسْكُبِي الدَّمَاءَ!
عَلَى النَّاسِ مَعْرُوفٌ لَهُ مَا تَكْتُمَا
مِنَ النَّاسِ أَبْقَى مَجْدُهُ الْيَوْمَ مُطْعَمًا
عَبِيدَكَ مَا لَبَّى مُهْلٌ وَأَحْرَمًا
وَقَحْطَ أَنْ أَوْ بَاقِي بَقِيَّةِ جُرْهُمَا
وَذِمَّتِهِ يَوْمًا إِذَا مَا تَذَمَّأَ
عَلَى مِثْلِهِ فِيهِمْ أَعَزَّ وَأَعْظَمَا!

مات مطعم مشركاً مقاتلاً الرسول، ولكن الوفاء في هذا المثل يرثى فيه حسان عدواً مشركاً، والرسول يسمع ولا ينكر، يدل على أنه ﷺ أنزل الوفاء في مكان من القداسة لا يُنزله عنه خلاف في الدين ولا قتال وعداء. فالرسول حين يسمع إلى شاعره يبكي المروءة في عدو هو أحد صرعى القتال من المشركين المعتدين يَسُنُّ لنا في الرجولة والمروءة والوفاء مثلاً قد علا فوق كل شيء، ويحط من صفة الغدر إلى الدرك الذي لم يصل إليه أحد قد بقي له من الإيمان والخلق شيء.

وقد روت عائشة أن عجوزاً جاءت إلى النبي فقال لها: من أنت؟ فقالت: جَثَامَةُ الْمُزْنِيَّة. فقال: أنت حُسَّانَةُ! كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟ قالت بخير. بأبي أنت وأمي! فلما خرجت قلت: يا رسول الله: تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال! قال: «إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان».

فلو أن العالم دان بما تريده الدعوة المحمدية، واعتبر حسن العهد من الإيمان لو فر على نفسه ويلات كثيرة.

قد يبدو الغدر أول وهلة وسيلةً من وسائل الظفر، وطالما تحدث الناس بأن الحرب خدعة، وشتان بين الخيانة والنكث بالعهد أو المفاجأة والأخذ على غرّة وبين الخدعة في القتال؛ فالخدعة حيلة يعرف الخصم أنه معرض لها وليس له وعد باجتنبها، وهي دائماً في حدود الحرب المرعية، وقد تحدثنا عنها من قبل. فإذا ألقيت في روع العدو أنك ستأتيه بكامل قوتك من ناحية ولم تبعث إليها إلا الأقل، وحولت الكثرة لנاحية أخرى، فليس هذا غدرًا وإنما هو خدعة لا تتنافى مع الأخلاق، ما دام البشر يعتبرون الحرب لا تتنافى مع المروءة وحسن الخلق.

الغدر غير
الخدعة في
الحرب

حكى لي أحد أشقياء البدو عن شيخ كبير من البدو أنه غدر به بعد أن وعد ألا يدل عليه، والغدر منقصة حتى بين الأشقياء، فسألت عما يقول الشيخ في ذلك، فقليل: إنه قال: «الخنونة عونة» أي أن الخيانة مما يستعان به. وقد أنكر الناس ذلك على الشيخ البدوي أشد الإنكار.

قبح الغدر
حتى بين
الأشقياء

وها نحن أولاء مع الأسف نشهد مبدأ «الخنونة عونة» الذي يقول به شيخ من قساة البدو، والذي ينكر الناس اتخاذه مع شقي من الأشقياء في حادث سلب أو نهب، يفشو في علاقات الأم الكبيرة فتغدر وتفاجئ لتفتك في غفلة، متجاهلة حرمة

العهود وحرمان المروءة. فكما أن مبدأ «الخونة عونة» جعل الحياة قديماً بين بعض القبائل في اضطراب مستمر فسلبها الأمن، فهو بين الأمم المتحضرة يمد هذا الاضطراب بالوقود.

الله لا يهدي
كيد الخائنين

ولا أظن أن اتخاذ الغدر وسيلة من وسائل الظفر أدى للغادرين خدمة جليلة في زمن من الأزمان؛ فهو قد يكسبهم المعركة الأولى، ثم يرتد عليهم، ولا بد أن يتحقق في الغادرين قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف / ٥٢].

واتخاذ الخيانة وسيلة للظفر في علاقات الشعوب يؤدي قطعاً إلى التربص وسوء الظن، فيفقد الناس نعمة الأمن في السلم والحرب. وها هو ذا الجيل الحاضر يكتوي بويلات الحرب ليخرج منها إلى الخوف والاستعداد لحروب أخرى. ذلك هو الجزاء السماوي. ولذلك يحرص الإسلام على الوفاء حتى مع الغادرين، فوفاء بغدر خير من غدر بغدر.

الكذب والنفاق
في السياسة

أما الكذب والنفاق فلا نقول إن الناس أكثر تحريماً للإخلاص والصراحة مما كانوا، ولا إن الكذب من الأخلاق التي ظهرت في العهد الآلي بأسوأ مظاهره، ولكننا لا نستطيع كذلك أن نقول إن الصدق أكثر حرمة منه فيما مضى، وإنما

الذي نعنيه في هذا العصر هو الكذب في السياسة. ونستطيع أن ندعي أن الكذب والرياء من عناصر الاضطراب في العلاقات الدولية أكثر مما كانا في الماضي.

فمكيّفلي في كتاب (الأمير) مثلاً يجهر بنظريات لا ترتضيها قواعد الأخلاق والمروءة، والناس الآن يطبقون آراء (مكيّفلي) وليس لهم صدقه في إعلان رأيه. وعندي أن كتاب (الأمير) نفسه دليل على أن الناس في العصور الوسطى كانوا أقرب إلى الصدق، منهم في العصر الذي يستنكرون فيه المكيّفلية ويعملون بها.

المكيّفلية
ينكرها الإسلام

وهذا الكذب والنفاق في السياسة الذي يظنه بعض الناس مبرراً ويفتتون في تزويقه وتنميقه ويعدونه لازماً للدبلوماسية، يبغضه الإسلام وينفر منه. وتاريخ الفتوحات الإسلامية مثل باق من الصدق والجهر بالحق للعدو والصديق، وسير الخلفاء الذين يمثلون الدعوة المحمدية، والذين لم يقعوا في أساليب الفرس وأساليب بيزنطة، تفيض ببساطة الصدق ووضوح الحق؛ فإذا قالوا أو كتبوا أو عاهدوا هم أو سفراؤهم أو ولأئهم، وجدت قولاً واضحاً يتحرى أن يكون بعيداً عن التأويل جلياً لا ينمق ولا يماري. يقول رسول الله: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن

سياسة الوضوح

ترك المرء وإن كان محققاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه».

ولقد أراد الإسلام في جميع العلاقات بين الناس فردية أو دولية ذلك الوضوح، فتجده مطلوباً في كل شيء، وعدم الوضوح في العقود وتعريضها للتأويل والمشاحنة كان سبباً في تحريم كثير منها.

صفان أدنا
من الكفر

ويكاد القارئ لكتاب الله وأحاديث رسوله يحكم بأن الكذب والنفاق أحط من الكفر، فقد لعن الكاذبين وجعل المنافقين في الدرك الأسفل من النار. ولأول وهلة قد لا يدرك الإنسان حكمة هذه الشدة، فإذا نظر في أثر النفاق من الناحية العامة، وتجاوز برهنة أثره على المنافق نفسه، وجد أنه عنصر جوهري في فساد النظام العالمي.

وليظهر ذلك أرجو أن تفكروا فيما نحن فيه من اضطراب عالمي؛ أليس النفاق من أهم أسبابه؟ ولو كان القائمون على (جمعية الأمم) مثلاً - وقد اشترك فيها أو في تأسيسها كل الذين اقتتلوا في الحرب العالمية الأولى - قد بنوا مؤسستهم على الصدق وعلى الإخلاص أكانت تنهار كما انهارت؟ أكان

انهيارها يجر إلى هذا الفساد الكبير الذي وقع في الحرب العالمية الأخيرة؟ ولو أن الدعوة التي يدعيها الناس من حب الخير العام، ولو أن الحرمة التي للحقوق البشرية كانت حقيقية في نفوسهم وكانوا صادقين غير مرآئين، أكان الناس يختلفون على معنى هذه الحقوق وعلى معنى الخير العام كما يختلفون اليوم؟

إن النفاق قد ألبس الأمر على الناس، فإذا قيلت هذه الكلمات المحبوبة: الحرية، المساواة، العدل بين الناس، حق الجميع في عيش سعيد وسلم دائم، إذا قيلت، ظنوا أن المقصود غير ما قيل، والتبس الحق بالباطل.

أسماء على
غير مسمياتها

وأثر النفاق، وإن قل شأنه في علاقة فرد بفرد، يتضاعف أضعافاً كثيرة إلى أن يصير شراً مستطيراً إذا اتخذته الدول وسيلة من وسائل الظفر في سياسة شعوبها، أو في علاقاتها بدول أخرى.

والسياسة التي تستند على الغدر والكذب والنفاق تحرمها الشريعة المحمدية وتأبأها الأديان السماوية كلها؛ لأنها تغذي الاضطراب العالمي وتعين على تقويض العمران.

(٥)

في البحث عن
سند روجيه للحضارة

❁ الوصاية على الحضارة للأقوى أم للأتقى

الشعلة المتنقلة بين الأجناس - قصور «علم الإنسان» -
أدوار الحضارة ومن مثلوها - من «علم الإنسان» - الفروق
البدنية لا تكيف الحضارة - المدنية ليست اختصاصاً لقوم
وحدهم - هي أثر للحالات النفسية - قانون قرآني -
مساواة تامة بين الأرواح - وحدة التكليف الديني
ومغزاها - دعوى هي أصل الاستبداد والتفاوت - ميراث
النفس الطيبة.

نريد أن نتناول من بعض النواحي مبدأين متعارضين: الأول
سند الحضارة المادية، والثاني سند الحضارة الإسلامية. ولعل في
هذا البحث ما يكشف عن العوامل الخفية لسقوط الحضارة، وما
يفسر بعض أسباب الاضطراب العالمي أثناء هذا القرن.

فما هو الحق... هل هو للأقوى أم للأتقى؟

الشعلة المتنقلة
بين الأجناس

إذا استعرضنا تاريخ الأقاليم منذ بضعة آلاف من السنين،
نجد أن الحضارة لم تثبت في مكان واحد، ولا دامت لقوم

وحدهم، فهي كسلعة الذهب، تمر بأيدي الناس جميعاً، وقد ترجع إلى اليد التي ذهبت منها بعد أن تطوف الكرة الأرضية.

فالمدينة متاع مشاع يكسبه من قَدَر على الاحتفاظ به عهداً، ثم لا يطيق حمله فيتخلى عنه فيقع على كتف الأصلح لحمله، حتى إذا خارت قواه تخلى للأصلح وهكذا. فالتاريخ يشهد بوضوح على هذا التداول، ويأبى أن يشهد لقوم دون قوم أو جنس دون جنس بالصلاح الذاتي أو الاختصاص بالقدرة على حمل رسالة الحضارة لميزة طبيعية موروثة وملزمة للعنصر.

وكذلك إذا استعرضنا (علم الإنسان) «أنثروبولوجي» ونظرنا في الأجناس البشرية نجد هذا العلم على حدائته وغموض بعض نواحيه، يرشدنا إلى الفروق أو الميزات البدنية بين قوم وقوم، ولو أنه لا يساعدنا على إدراك الفروق الروحية والذهنية. وقد نخرج من محيط العلم الصادق إلى النظر والفروض كلما حاولنا تثبيت قواعده على أساس الفروق النفسية والروحية بين قوم وقوم، لنستخلص منها مؤهلات هذا العنصر دون ذاك لرسالة الحضارة والمدينة.

قصور «علم
الإنسان»

نعم إن بعض الأبحاث «الأنثروبولوجية» الحديثة قد تعين على قياس صفة الذكاء بين طائفة وطائفة من البشر، ولكنها لا تعين على تحديد للصفات المعنوية الكثيرة، والغرائز المتعددة، ومظاهر هذه الغرائز؛ وبذلك لا تهدي إلا إلى أقل العناصر النفسية شأنًا في تكييف قيمة عنصرٍ وآخر لحمل رسالة الحضارة التي تتطلب مجموعة من المعاني والقوى النفسية وتوازن هذه المجموعة.

فإذا كان (علم الإنسان) هياً لنا قدرًا من العلم نعرف به صفات نرُدُّ بها الناس إلى بعض أصولها القديمة، فإن هذا العلم لا يزال فيما عدا ذلك يتخبط بنا في المجاهيل. وإذا فليس لدينا دليل علمي يجعل أحد العناصر يمتاز بطبيعته وقوته على العناصر الأخرى لحمل رسالة العمران والحضارة والعلم.

ولننظر أولاً في الفروق العنصرية بين الأقوام التي قامت على أكتافها المدنات المختلفة منذ أن شاد الفراعنة هذه الأهرام شاهداً على الشأو البعيد الذي بلغوه في المدنية وسبقوا به الناس كافة:

أدوار الحضارة
ومن مثلوها قامت مصر بالدور الأول، بل الدور الأهم في تاريخ الحضارة البشرية؛ فهي التي علمت الناس الزراعة والبناء والكتابة.

ثم جاء السوماريون والبابليون والفينيقيون والأشوريون والكلدان والفرس واليونان والقرطاجنيون والرومان والعرب، ثم الأقوام الأوروبية والأمريكية الحديثة، يضيفون إلى الحضارة ويجددون. فإذا فرضنا أن أول الحضارة في مصر وآخرها الآن في أمريكا - إذ ليس عندنا دليل على البداية أو علم بالنهاية - وتجاوزنا مؤقتاً عن نصيب الأقوام الصفراء وأثرها في حضارة هذا الشق من الكرة الأرضية، أمكننا حصر الحضارة التي تشير إليها في العناصر النازلة في غرب آسيا وشمال إفريقية وفي أوروبا وأمريكا. وقد اتفق علماء الأجناس (الأنثروبولوجي) على أن هؤلاء البيض ثلاثة عناصر أصلية، بينهم اختلاف بدني واضح ومحدد، ومنازل العناصر الثلاثة تمتد متوازية من الغرب إلى الشرق.

من «علم
الإنسان»

ففي الساحة الشمالية نجد الشماليين (النورديك) وجنوباً منهم (الألبين) وجنوباً من هؤلاء (المتوسطين)، أو قوم البحر الأبيض المتوسط، وهم سكان ما حول هذه البحيرة.

الفروق البدنية
لاتكيف الحضارة

فللشماليين الأجسام الطويلة، والعيون الزرق، والرؤوس المستطيلة، وللألبين الرأس المستدير، وللمتوسطين الرأس المستطيل، والأجسام الأقصر من أجسام الشماليين، وسواد العيون والشعر. ولا حاجة بنا للخوض في الفروق البدنية التي حدد بها علماء الأجناس هذه العناصر، واستدلوا على وجودها قديماً وأثرها حديثاً، فإنها لا تغنيا كثيراً في تكيف الحضارات القديمة؛ إذ ليس بين أيدينا أدلة قاطعة على حقيقة الأقوام الذين حملوا رسالة المدنية قبل العرب أو حتى من العرب، ولأن البحث العلمي نفسه الذي دلنا على ميزات بدنية بين العناصر الثلاثة التي يتكون منها الجنس الأبيض الكبير، دلنا كذلك على أنه لا وجود لأحد منها في وطن معين خالص له؛ ففي بريطانيا نفسها، تلك الجزيرة الشمالية، توجد العناصر الثلاثة، وليست حتى بنسبة بعدها عن هذه الجزيرة. بل إن (المتوسطين) فيها أكثر نسبة من (الألبين). وكل ما نستطيع تحقيقه علمياً هو أن نثبت رجحان صفة بدنية في أمة من الأمم من صفات هذه العناصر، على صفاتها الأخرى.

وحتى إن استطعنا تقرير ذلك علمياً من الناحية الجسمانية كما قلت، فإننا لا نزال بعيدين جداً من قياس العوامل والآثار

النفسية في شعب من الشعوب، وإدراك هذه الآثار باعتبارها
نتائج لتفاعل الدماء الموروثة من الأقوام المختلفة.

وإذا يصح لنا أن نتساءل: لمن هذه الحضارة؟ وهل يجوز
نسبتها لجنس دون جنس؟

ثم ألم تكن الشعوب القديمة نفسها، وأقدمها الفرعونية
المصرية منذ آلاف السنين، كما هي اليوم، خليطاً من الأجناس
تغلب عليه جنسية البحر المتوسط؟ وما هي البضعة الآلاف من
السنين التي نعرف شيئاً قليلاً عنها منسوبة إلى عشرات الآلاف
في التاريخ البشري الذي لا نعرف شيئاً عنه؟ وسواء قامت
بعض الحضارات القديمة على أكتاف أحد العناصر الثلاثة التي
أشرنا إليها والتي حددها علماء الأجناس في الناحية الغربية من
الأرض، أم على أقوام متوالدة من اختلاطها، فإن أمراً واحداً
لا شك فيه، هو أن المدنية ليست امتيازاً ولا اختصاصاً لعنصر
منها، ولا هي لازمة له وتابعة لصفاته الخاصة؛ فليست نتيجة
للقوة الطبيعية الموروثة له، وليس سندها هو حق الأقوى بحال
من الأحوال.

المدنية ليست
اختصاصاً لقوم
وحدهم

هي أثر
للحالات النفسية

والحضارة إذا بجميع نتاجها المادي والأدبي أثر لحالات نفسية غير لازمة للصفات البدنية المميزة لقوم على قوم. ولو أننا ذهبنا بعيداً وحاولنا الاستدلال بالمعلوم على المجهول، وقلنا إن الصفات البدنية تشير إلى خصائص نفسية لا تزال بعيدين عن علمها، فإن ذلك لا يغير من الحق، وهو أن العناصر التي نعرفها، لم تختص على طول التاريخ البشري بالعقل أو العلم أو الابتكار، حتى ننسب شيئاً من هذا إلى صفتها العنصرية. ومن الواضح أن النفس وحدها هي التي تضيء فتتير ظلمات الحياة البشرية متى أثرت فيها مؤثرات خاصة، وتهيأت لها بيئة روحية خاصة. فسند الحضارة هو الروح والخلق لا القوة المادية.

قانون قرآني

وما أصدق القانون القرآني في هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد / ١١].

ولو فرضنا أن الصفات النفسية تُورث كما تُورث الصفات البدنية فإنه بما لا شك فيه أن المؤثرات العارضة هي التي تكيف القوى الذهنية، وأن العقيدة والآداب القوية هي المنشئ والحارس للمدنية.

إننا نجهل كنه الروح وحقيقة النفس، كما نجهل أسباب انفعالاتها ومداهم وأثارها ومصادرها وعواقبها، مما يمنع تقرير أصول علمية نميز بها بين صفات الأقسام النفسية كما نميز بين صفاتها البدنية.

وكل ما يمكن تقريره بالمشاهدة والاستقراء في الحال أو في الماضي، يشير إلى استعداد مُتشابه عند جميع الأقسام لتلقي العلم أو الأدب، أو بعبارة أعم، لتلقي الحضارة كيفما تلونت ومن أي جهة جاءت.

وإذا تجاوزنا عن بعض فروق محدودة تُحدثها البيئة والمناخ في بعض الحالات، فإننا نستطيع أن نطمئن إلى القول بالمساواة التامة بين الأرواح البشرية، أو بعبارة أخرى: إننا لا نعرف دليلاً على عدم المساواة. وتداول العلم والابتكار، بل وتداول الجهل والفساد، دليل على استعداد مشترك ومتساوٍ للخير والشر. وإذا كان كل ذلك من آثار العيش تحت عوامل مختلفة فإنه يشير إلى وحدة الروح، أو بعبارة أخرى، وحدة القوى الذهنية، أو تمام تشابهها.

مساواة تامة
بين الأرواح
البشرية

وهذا يكفي لنفي امتياز بعض العناصر البشرية على بعضها بصفات ذهنية تجعل لأحدها رجحاناً دائماً.

وحدة التكليف
الديني ومغزاها

ويحق لنا أن نقول: إنه ليس في الصفات البدنية ولا الصفات الروحية ما يدلُّنا على خلاف يجعل المدنية حِكْمًا لطائفة من البشر، أو يمنع من المساواة في التكليفات التي جاءت بها الشريعة المحمدية.

ومتى وضح ذلك انهارت الدعاوى العنصرية، وانهار معها مبدأ القوة كسندٍ للحضارة؛ لأنه لو ثبت أن الطبيعة هيأت قومًا دون آخرين للعرفان والعمران، لجاز أن يحمل هذا القوم غيره على الاحتذاء به، بل لكان في سيطرته وقهره غيره فائدة عامة.

وكما أن العلم لم يُثَبِّت لأحد رجحانًا، كذلك التجربة دلت على أن الأقوام إنما تستخدم ما أوتيت، من قوة في الاستزادة من المنفعة لنفسها واستغلال المغلوبين لأسباب عارضة، وقد بينا أن الغلب ليس ناشئًا عن صفات أصيلة طبيعية في عنصرٍ ما، وكذلك دلَّ تاريخ البشر على أن الأمم المغلوبة لا تستفيد من غالبها بل قد تندثر بسبب هذا الغلب.

دعوى مي
أصل الاستبداد
والتفاوت

فالقول بالحق للأقوى، هو قول يرجح بعض الأقوام على بعض دون سبب طبيعي، ويبيح الاستبداد للقادرين عليه، ويمحو حق المستضعفين. وهو قول تأباه الشريعة المحمدية كل الإباء؛

فهي التي جعلت الناس سواسية، وجعلت الحق للأتقى والأبر،
وقررت أن الناس أسرة واحدة، أكرمهم عند الله أتقاهم.

وهي التي يقول رسولها العربي الأمين «لا فضل لعربي
على عجمي إلا بالتقوى والعافية» أي حب الخير والسلام.
فليس أكرم الناس أقواهم بدنًا وأضخمهم ميراثًا، ولا أكثرهم
عرفانًا، بل أطيبهم نفسًا، لأن النفس الطيبة هي التي تملكها
التقوى فتمنعها من فعل الشر وتحضها على فعل الخير..

ميراث النفس
الطيبة

❁ قيام المدنية ودوامها

مداولة الأيام بين الناس - التفسير المادي للتاريخ -
التفسير العنصري للتاريخ - مناقشة التفسيرين - التفسير
الروحي هو الصحيح - من القرآن - بارود القذيفة -
ساعة الفصل بين التقدم والتأخر - نظرة تشاؤم إلى المدنية
الحاضرة - بين المدنية والحق - الانهيار الفجائي - عوامل
فناء المدنيات - الترف - الضعف عن حمل أمانات
الحضارة - هل جاء وعد الله؟

بيِّننا أن سند الحضارة الإسلامية هو حق الأتقى والأبرّ،
وقلنا إن الأرواح متساوية، وإن (علم الإنسان) لا يزال قاصرًا عن
بيان حقيقة القوى الذهنية وكيفية انفعالها بالمؤثرات، وأثبتنا أن
الفوارق العنصرية الظاهرة في أجسام البشر لم ترشد إلى امتياز
بينها في خلق الحضارة، وهي قطعًا لا تجعل لقوم امتيازًا على قوم
في الاختصاص بها.

مداولة الأيام
بين الناس

والتاريخ البشري يشير إلى الحضارة كأنها شعلة متنقلة،
ويدل على أن الأقوام التي أخرجت أعظم المدنيات، ما لبثت
أن هوت من شاهق مجدها إلى الخضم.

فإذا تعقبنا الأم أمة أمة في مدى خمسة آلاف سنة نجد أن هناك قاعدة لا تتخلف، وهي أن الأمة ترتفع ثم تهوي كما تقذف بالحجر إلى أعلى فيصل إلى مداه ثم يقف ثم يهبط عمودياً إلى الأرض، وكأن الأمة التي ارتفعت شيء آخر غير التي هوت وتحطمت. بل إن بعض الأمم التي لا يزال أثرها يُدَوِّي قد بقيت سلالتها ذاهلة عن عزتها، كأن ليس بينها وبين آبائها صلة! فما الذي رفعها وما الذي خسفها؟

لقد تعددت العلل؛ فالذين يفسرون التاريخ تفسيراً اقتصادياً يعللون هذا التداول الذي عبر عنه القرآن أوجز تعبير في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران / ١٤٠] بعلل مادية، ويفسرون الصعود والنزول بأسباب تنحصر في المادة، فإخصاب الأرض لسبب طبيعي، أو تحول المطر أو زيادته أو تغير الجو، أو اكتشاف طرق جديدة يتبعها تغير سبل النقل للتجارة، أو اكتشاف أرض جديدة، أو ابتكار آلة، أو استخراج معدن، أو استخدام وسيلة ما، أو غير ذلك مما يغني ويزيد في القوى المادية، هو العنصر الذي يدفع بقوم إلى التحضر وحياة العمران، كما أن فقدان الرجحان الاقتصادي يتبعه التدهور والانحطاط.

التفسير
المادي
للتاريخ

ويرى آخرون أن سبب ظهور أمة ما، هو في ذات جنسها وما يحصل من تزايد القوى الكامنة في ميراثها العنصري، وذلك بأن تمتزج مع قوم آخرين قريبين منها، فيخرج من التوالد عنصر أقوى يندفع إلى أعلى بما هو كمين فيه من القوى الموروثة، فيسمو ويضيف للتراث البشري علمًا ومدنية.

وهي أقوال لا تكفي لتفسير الواقع ولا تحل اللغز؛ فكثيرًا ما قام بالحضارة قوم، أو سقطوا واندثروا من غير أن تكون العوامل الاقتصادية سببًا في الظهور والاختفاء. بل إن قدماء المصريين وهم رأس الحضارة البشرية، وقدماء البابليين، هم الذين زرعوا الصحراء ولم تكن الصحراء هي التي زرعتهم.

وخروج العرب من شبه الجزيرة وانتشارهم، ووصلهم بين حضارات الأقدمين والحضارة الحديثة، وابتكارهم وافتنانهم في العلوم والصنائع، لم يكن لأسباب اقتصادية محلية، كما أن سقوط العرب والرومان والمصريين والبابليين لم يكن لأن أرضهم أجذبت، ولا لأن جوهم تغير، ولا لأن طرقًا جديدة أو أوطانًا جديدة قد اكتشفت.

التفسير
العنصري
للتاريخ

مناقشة
التفسيرين

وكثيراً ما كان الحرمان المادي سبباً لظهور أقوام وتغلبهم على المادة وحصولهم على ما يريدون بكفاحهم ليخرجوا للعالم حضارات ضخمة. ومثل اليونان والعرب والفينيقيين واضح، وخيرات أمريكا وإفريقية الوسطى لم تبعث قومًا جديدًا في آلاف السنين، وإنما بعث أمريكا المغامرون المحرومون.

كذلك لم يقم دليل علمي على أن توالد قوم فيما بينهم وعدم اختلاطهم، سبب في انحطاط هؤلاء القوم، بل بالعكس.

نعم لقد قيل إن ظهور الحضارة القديمة المصرية كان عقب ورود قوم من أسلاف العرب امتزجوا مع أهل الوادي وصاروا قدماء المصريين الذين بنوا الأهرام، ولكن ذلك ليس معناه أن انتعاش قوم من الأقوام كان لازماً لمثل هذا الحادث.

فلا النظرية الاقتصادية، ولا النظرية الأنثروبولوجية (نظرية علم الإنسان) كافية لتفسير أسباب ظهور المدنية أو سقوطها؛ لأن كلاً من النظريتين قد يفسر حالة، ولكنه لا يطرد مع الحالات الأخرى.

وإذا دققنا النظر نجد أن الأسباب الروحية والمعنوية هي التي ساعدت دائماً على الظهور أو الاختفاء، ونجد العلل

التفسير
الروحي

من القرآن

الأدبية ملازمة لجميع الحالات في كل الأقوام. والقرآن كما أشرنا في الفصل السابق يؤكد هذا المعنى في كثير من آياته فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُغَيِّرْ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد / ١١] ويقول: ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ . ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ لَمِ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال / ٥٢-٥٣]، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف / ٩٦]، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء / ١٠٥]، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور / ٥٥]، ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل / ١١٢]، ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ . فَلَمَّا

أَحْسُوا بِأَسَنَّا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ . لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا
أُتِرْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْتَلُونَ . قَالُوا يَنْوِلُنَا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ . فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَهُمْ حَصِيدًا
خَمِيدِينَ ﴿ [الأنبياء / ١١-١٥] .

فما من قوم خرجوا على الدنيا برسالة العرفان والعمران إلا
كانوا مهينين لهذا بإيمان قوي وأدب قوي ودعوة قوية، وما من أمة
تضاءلت عقائدها وانحط أدبها وتذبذبت إلا أصابها ما أصاب
من قبلها فهوت كأن لم تكن شيئاً مذكوراً.

فالعقيدة الصالحة والأدب القوي والعرف الصالح كقوة
البارود في دفع القذيفة، تدفع الأمم بقدر ما في عقائدها من قوة
واستقامة.

بارود القذيفة

وإذا أسمىنا العقائد والآداب والعرف بالقوة المعنوية، فإن
هذه القوة الدافعة تسوق الأمم إلى الأمام، حتى إذا ما تبددت
بقيت الأمم حيث أوصلتها الدفعة الأولى، ثم هوت إلى الأرض
كتلة لا تعي، وكأنما سلبت حياتها. والتاريخ يشهد على أن
انحطاط كل قوم من الأقوام يبتدئ حيث تبلغ السيطرة المادية
حد التسلط على حياتها، تسيرها وتحل محل السيطرة الروحية

ساعة الفصل بين
التقدم والتأخر

والمعنوية. أو بعبارة أخرى حين تغلب شهوات الأبدان شهوات الأرواح. تلك هي ساعة الفصل بين التقدم والتأخر.

وأكثر المتشائمين يعتبرون أهل الحضارة الحديثة من نظرة تشاؤم إلى الغربيين قد بلغوا هذا الدور، ولا يغترون بمظاهر القوى المادية؛ فلا الثروة ولا العلم ولا ما ينتجون من طائرات ودبابات ومدافع ووسائل سيطرة على الحياة المادية بمانة من هزيمة المدنية واندثار الأقسام التي تذبذبت عقائدها وضل أدبها وانقلب عرفها.

ويرى بعض العلماء أن سلامة العقل البشري ليست لازمة بين المدنية والحق للرقى المادي، فقد يسير هذا الرقي عهداً ما، وقد سلب الناس العقل الراجح والميزان الصحيح، ويكون سيرهم واندفاعهم بما يقرب قضاء الله فيهم وسنته فيمن خلا قبلهم من المترفين، ومحققاً لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا أَتْنَاهَا أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس / ٢٤].

وإتيان أمرها ليلاً أو نهاراً هو الإشارة إلى معنى المفاجأة، فإن الانهيار الفجائي انهيار المدنية وسقوط القائمين عليها لا يكون عليه دليل ظاهر

من الأحوال المادية، ولكنه خفي خفاء القوى الذهنية والعوامل النفسية التي لها الأثر الأول في قيام الحضارة وسقوطها.

ومن العسير جداً في مثل هذه العجالة أن نخوض في تفصيل عوامل فناء المدنية ونستقصي أسبابها وأثرها وسرعتها، ولكن ذلك لا يمنع من أن نشير إلى سببين قد يكون مجمعا عليهما.

عوامل فناء
المدنيات

الأول: الترف، فإن الأمم متى تهيأت لها بيئة روحية صالحة سمت واندفعت إلى العمران والعلم فأنتجت واستقامت لها الأمور بما يمسكها من إيمان وأدب يوحد بينها، ويحدد مسلكها، ويقوم معوجّها، ويحفظها من التردد والقنوط، فتجد نفسها بعد حين قد نعمت بالحياة ودانت لها طيبات الرزق، فتلهو بهذه الطيبات ثم تنغمس فيها ثم تعيش لهواها وتتسابق في شهواتها وتثقل رسالة الحق عليها، بما تفقد من الصبر وما تجد من لذات عاجلة، فيداخلها الشك في دعوة منشئ حضارتها، وترتاب في كل تراثها الأدبي، وتجد غضاضة في التقيد، فيضيع العرف الذي يمسكها، وتتداعى القوى الرابطة لكيانها، فتتفكك العرى وتحل الفوضى، ويستخلف الله للمدنية قوماً آخرين خِماص البطون، يحبون الحق كما يحب المترفون كأسهم وغوانيتهم.

الترف

وهذا الترف يتولد منه السبب الثاني للانحطاط، فإن رسالة القوم الأولين تكون بسيطة وهم قادرون عليها بتفرغهم لها. أما أعقابهم فإن أعباء رسالتهم تتزايد بطبيعة نمو الحضارة نفسها، وتطلبها مجهوداً أشق ونظراً أدق وعناية لا تنقطع. فقائد الكتيبة في جيش الفاتحين الأولين يحل محله بعد جيل قائد الجيش في دولة الحضارة الإمبراطورية، ومدير المصنع بعشرات الألوف من العمال، ومدير المصرف بآلاف الملايين من الدراهم. وتستلزم المدنية عندئذ من أربابها قلوباً متفرغة وعقولاً صافية وأبداناً رياضية ويثقل حملها، بينما يكون النعيم قد سلب الناس العقل، واللذة قد قضت على الفراغ ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب / ٤] فيضعف الجيل عن حمل الحضارة التي أنشأها آباؤه بدافع معنوي، فيخور ويفقد إيمانه بنفسه ويهوي إلى الأرض مسلوب الروح ضحية الهوى والضلال، وكان آباؤه في نهضتهم شهداء الحق والمروءة والعزة، يحبون الموت كما أحب أخلافهم الحياة، فعاش الأولون مشكورين وماتوا مذكورين، أما هؤلاء فماتوا مدحورين وعاشوا مغمورين منسيين.

الضعف عن
حمل أمانات الحضارة

فلا شك أن العقيدة الصالحة التي تحيط بها وتحدها التقوى هي القوة الأولى لبناء المدنية، وضياعها نذير بدمار المدنية.

ثم لا شك أن الإيمان القائم على صورة من العقائد الصالحة لل عمران يسير في ركابه عرف صالح وأدب صالح يستمد سطوته من العقيدة والإيمان. فهو القوة المنظمة والمخرجة للدور الحاسم في الحضارة. وقد جرت سنة الله على أن النفوس البشرية يستهويها المتاع والنجاح بما يهيئ لها من خيرات الأرض وطيباتها، فإذا تهيأت استغنى الإنسان عن الكد وطفى وصار إلى عاقبة الأمم الأولى.

وإنه ليحزننا أن يكون ما نرى في الدنيا نذيرًا بأمر الله! فلا الأمم المتأخرة من المسلمين، ولا المتقدمة من المسيحيين واليهود، على شيء من التقوى. تذبذبت العقائد، وذهب العرف وساد حب الدنيا، وعم الترف، فهل جاء وعد الله؟ إنا لندرجو أن يتدارك الله هذا العمران بقوم خِماص البطون يحبون الحق كما يحب المتحضرون المال والمتاع، ويرثون هذه الحضارة فيضيفون للعلم والعمران، ويردون إلى الدنيا ذلك العقل الضائع والإيمان القوي.

هل جاء وعد
الله؟

وسيجد هؤلاء في الدعوة المحمدية كما وجد الأولون
الروح والعقل والتقوى والهدى. نعم سيجدون الهدى ذلك
الذي هزئت به قريش وقالت ﴿إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفَ
مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص / ٥٧] فلما اتبعوه خُطِفُوا من أرضهم لا
للهوان، ولكن لسيادة الدنيا!

نظام جديد للعالم

صوت من أصوات الدعاة -فلنتحرر من النظريات القديمة- المدنية في رأي (كبلنج)- وطأة العيش في عصور الانتقال- هل نستطيع وضع نظام للمستقبل؟ ماذا بين أب جاهل وابن عالم؟ بين جاهل معاصر وجده الفرعوني- لنحذر عقوبة الغرور- إلى نظام سلبي مؤقت- لا أمل في شيوخ الساسة وفي العامة - الأمل في القدرة العليا وفي مرونة الطبيعة الإنسانية -فلنؤجل النظم المثالية المجردة- من تاريخ الاصطدام بين المثل العليا والواقع السيئ.

صوت مع
أصوات الدعاة

سنحاول ما استطعنا أن نجد القواعد التي نظنها صالحة لنظام جديد يرضاه الأفراد والطبقات والأمم، غير مقيدين في رأينا بما يقوله الدعاة في جوانب العالم، وعاملين جهد الطاقة على التحرر فيما نبدي من رأي من العصبية لعنصر أو مذهب من مذاهب الاجتماع، فإذا وُفِّقْنَا ففي هذا كل الخير، وإذا أخفقنا فإننا نرجو أن يكون الجهد ضمن الجهود المماثلة التي يستعان بها على الوصول إلى الحقيقة والهدى.

فلتحرر من
النظريات
القديمة

ولابد لنا من أن نروض تفكيرنا على التخلص من النظريات القديمة التي كانت في عهدها حقائق صحيحة، والتي جعلها تطور الحياة الاجتماعية، وتقارب الأوطان بتزايد سرعة النقل ضارة بسير المدنية. ولا شك أن العالم يمر في محنة غير مسبقة النظير؛ فإننا لا نعلم فيما بين أيدينا من تاريخ البشر مثل الذي دهم العالم هذا الجيل. فليست غارات (التر) التي لا يزال الناس يذكرونها قرينة للويل، شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى الدمار والقتل العام الذي استطاعته الأسلحة الجوية، والفناء الذي يستطيعه تسخير العلم الحديث؛ فلا بد إذاً من نظام جديد لهذا العالم يتداركه من سقطته ودماره.

فما هو هذا النظام؟ ذلك ما يتساءل الناس عنه في كل مكان. ولعلنا إذا ابتدأنا بحثنا كما يبتدئ الطبيب بالفحص عن أسباب العلة سلكنا الطريق المستقيم إلى تكييفها ثم إلى علاجها.

فأول ما يخطر في البال هو التساؤل: ما الذي جعل مدنتنا الحديثة مع ما وصل الناس إليه من علم ومعرفة مصحوبة بهذا الشر المستطير؟!

المدنية في
رأي كبلنج

يقول كبلنج «إن المدنية هي النقل» وهو قول يستحق التفكير، فلننظر إليه من هذه الناحية. فكم من القرون قضى الإنسان ليتعلم تسخير الحيوان في النقل؟ ثم كم من القرون مرت ليكتشف العجلة ويربط بينها وبين الحيوان، وليشرع للسفينة شراعاً ويستخدم الريح؟ وفي كل هذه القرون كم زادت سرعة حركته؟ فإذا قسنا ذلك بتسخير البخار في القطار والسفينة أدركنا المفاجأة التي فوجئ بها العالم حين ظهور المدنية الحالية قبل أقل من قرن. فإذا أضفنا إلى ذلك استخدام الكهرباء واكتشاف اللاسلكي والسيطرة على الجو بالطائرات، ونظرنا إلى تطور سرعة النقل في السنوات العشرين الأخيرة، أدركنا كذلك ما سيكون من فرق بين مدنية هذا الجيل ومدنية الجيل الآتي.

إن متوسط السرعة قبل مائة سنة لحركة الإنسان في الانتقال من مكان إلى مكان لم تزد على ثلاثين ميلاً في اليوم، ومتوسطها الآن قد وصل إلى أكثر من مائتي ميل في الساعة، ولا يزال يزداد باطراد.

فإذا كانت المدنية هي النقل كما يقول (كبلنج)، وإذا كانت
السرعة هي القياس لما بينها من فروق، فإن ما بين مدينتنا ومدنية
أبنائنا سيكون على هذه النسبة.

فكما فصل البخار العالم القديم من العالم الحالي
فسيفصل اللاسلكي، وكذلك هذه السرعة المتزايدة في الجو
عالمنا من العالم المقبل.

ومن سوء حظ هذا الجيل أن يكون صلة بين عالمين، وأن
يذهب ضحية الانتقال العنيف. وعلى ذلك هل نحن، أهل هذا
الجيل، حقيقة جديرون أن نضع نظاماً عالمياً لمن بعدنا؟ قد يكون
النظام الذي يرتضونه بعيداً عن تصورنا بُعْد نظامنا عما قبل
استخدام البخار.

وطأة العيش
في عصور
الانتقال

ومن ناحية أخرى فإننا نحن الذين لا نزال نجعل نفوسنا
فلا نصرفها ولا نملكها، ولا نحيط إلا بقليل مما أودع فيها من
القوى الذهنية والقوى الروحية، لن نستطيع وضع نظام للعالم
وهو ليس من صنعنا؛ فالإنسان فيه حيوان أوتي من القدرة ما
يسمح له بالتصرف في نطاق محدود.

هل نستطيع
نحن وضع
نظام للمستقبل؟

لقد سار العالم آلاف السنين على وتيرة واحدة. كانت الحضارة تتقدم ببطء وتنتقل من وطن إلى وطن، وفي كل نُقْلَةٍ تنطوي مئات السنين قبل أن تدبل، وتنقضي مئات أخرى قبل أن تزدهر في قوم جُدِّدٍ، فكان العقل البشري مستطيعاً في نطاق قدرته أن يسايرها وأن يسيطر إلى حدٍّ كبير على مُقَدَّرَاتِ مدنيته؛ فلما تفجرت فجأة ينابيع العلم الحديث زُلْزِلَت الأرض زلزالها وأُخرجت أثقالها فبُهِت الإنسان وقال مالها؟

ففي جيل واحد انقلب وجهها، وتناكر القديم والحديث.

ماذا بين أب
جاهل وابن
عالم؟

ولنضرب لذلك مثلاً: شيخ في قرية بجوار (طيبة) في صعيد مصر يعيش كما عاش أباه في مصر القديمة، بعث في أوائل هذا القرن بابنه إلى أمريكا فنشأ هناك وتزوج ورجع بأسرته إلى قريته، فوجد أباه حياً يفلح أرضه بمحراثه الفرعوني، ويأوي إلى بيت لا يزال على طراز العهد الهكسوسي، ويفكر كما كانوا يفكرون أيام خوفو؛ لا شك أن الابن وأباه حين التقيا تناكرا، فكأنما هبط الابن من كوكب آخر، فلن يستطيعا أن يتعاشرا ولا أن يتعاونوا على شيء.....

بين جاهل
معاصرو جده
الفرعوني

ولنفرض أن الله بعث في تلك الساعة أحد سكان (طيبة)
من قبره. بعث شيخ بلد من عهد (رمسيس) من أجدادهما،
ليشهد الحفل العائلي للابن العائد من أمريكا؛ فهل يجد الناس
أن شيخ البلد الذي بعثه الله من قبره بعد غياب ثلاثة آلاف
سنة، أقرب إلى شيخ القرية، أم إلى ذلك الابن الذي ولد في
القرن العشرين وغاب ثلاثين سنة فقط؟

سيجد شهود الحفل أن الجد الفرعوني أقرب إلى قلب
الأب وعقله وطراز حياته، من ذلك المولود فيهم، القادم عليهم
من العالم الجديد.

ثلاثون سنة فعلت بالعائلة البشرية ما لم يفعله ثلاثون قرناً!
وهي لم تفعل ذلك في مصر وحدها بل في العالم كله. قرن
واحد بدّل وجه الأرض كما يبدله الزلزال وفصلنا عن ماضينا
بعنف، وكأننا نقلنا إلى كوكب آخر.

وإذا فهل حقيقة نستطيع، نحن ضحايا هذا الانتقال، نحن
الذين مَلَكْنَا الآلة وَمَلَكْتْنَا، وأصبحنا نسيّرُها إلى مجهول وتطوينا
في ثناياها إلى مجهول أعظم، هل نحن حقيقة جديرون بوضع
نظام لعالم المستقبل؟

إذا ظننا ذلك فإنني أخشى عقوبة الغرور. وقد يكون من
الخير والصواب أن نكتفي فيما نسميه «النظام الجديد» بعمل
سلبي، هو نظام نمتنع فيه بتاتاً عن تسليط ما بأيدينا من قوى
للتدمير والتخريب، وعن مضاعفة العوامل التي اضطرب لها
وجودنا كله.

لنحذر عقوبة
الغرور
إلى نظام
سلبي
مؤقت

يجب أن يكون هدفنا فيما نسميه «النظام الجديد» تخفيف
ويلات عهد الانتقال.

لقد شاهدنا الحرب العالمية الأولى، وسمعنا وتحمسنا
لأحاديث عن نظم جديدة لعالم جديد. ونحن اليوم نشهد مرة
أخرى حرباً أعظم وحديثاً أشهى، ولكن هل بين العقل الذي
سيطر على أداة الدمار الماضية أربع سنين، من ١٩١٤-١٩١٨
والعقل الذي سيطر عليها، أكثر من أربع سنين من ١٩٣٩-
١٩٤٥ فرق؟ هو هو العقل العاجز أسير الماضي، غلبته الآلة
والمادة ومدنية النقل المتزايدة السرعة، فحار فيها وناء بحملها.

أقبلنا شُبَّاناً على أقوالٍ عن عالم جديد فتحمسنا لها، فإذا
سمعناها اليوم بعد تجربة، ملأتنا خوفاً وتشاؤماً، لما ظهر لنا من
الكذب والعجز.

مشت الحضارة البشرية القديمة في تطور بطيء مئات
القرون فهضمها العقل البشري، أما الحضارة الحديثة فستحتاج
إلى وقت طويل ليهضمها العقل البشري.

إنني قليل الرجاء في شيوخ الساسة وفي نضوج العامة
لتحمل المسئوليات الجسام المتجددة، ولكنني عظيم الإيمان
بالقدرة العليا التي تدير هذا العالم! ففي الطبيعة نفسها كل
الرجاء، فقد خُلق الإنسان وفيه من القدرة على الإفاقة من
الصدمة، وله من المصانة والمحاكاة والتطور ما يضمن بقاء
النوع واستمرار رُقيّه، وسيكتشف الإنسان بغريزة حب البقاء
بعد تجارب مروعة قاسية نظاماً عالمياً مناسباً متجدداً يساير العصر
الآلي، عصر السرعة المتزايدة، أقول نظاماً مناسباً متجدداً؛ إذ
ليس من الصواب في شيء أن نحاول إملاء نظام كامل ثابت
لا يتغير، فالأشكال والأوضاع والمستحدثات كلها تحمل في
طبيعتها التغير بل الزوال والفناء.

وأكثر ما يقع فيه الإنسان من كوارث هو عقوبة الغرور
والجهل، وأكثر ما يصيبه من شرٍّ هو ردّ الفعل لافترائه وادعائه.

فإذا حاولنا أن نعطي الناس نظاماً عالمياً مثالياً، وتجاهلنا غرائز
حب الظهور والسيطرة والتعالي، مما هو كامن في صميم النفس

لاأمل في شيوخ
الساسة والعامة
الأمل في القدرة
العليا وفي مرونة
الطبيعة الإنسانية

فلنؤجل النظم
المثالية المجردة

الإنسانية، فإننا نحاول إقامة هذا النظام على بركان من الغرائز الحيوانية المتفجرة الجامحة. وإذا فكل نظام عالمي لا يُرضي الغرائز البشرية، ولا يُعين على توجيه الدوافع الإنسانية، هو نظام تقضي عليه الغرائز نفسها، أو تتخذه وسيلة لإشباع شهواتها؛ فمن شأن الطبيعة الإنسانية أن تقلب كل نظام مثالي وأن تكيفه، وإلا أصبح بالنسبة لها نظاماً لا تطيقه.

من تاريخ
الاصطدام بين
المثل العليا والواقع
السيئ

وليس أدل على ذلك من تاريخ المذاهب والأديان الداعية إلى فلسفة سامية، خذ مثلاً دعوتين بينهما ألفا سنة: المسيحية والشيوعية، فماذا صنعت بهما غرائز الإنسان الفطرية الحيوانية؟ ألم تُرد كل دعوة منها أن ترسم نظاماً مثالياً سامياً؟ فماذا بقي من المثل الأعلى فيها؟ بقيت تلك المأساة التاريخية الطويلة! فقد سُفكت باسم المسيحية وفي سبيل المسيحية التي تُحرم الحرب دماء أغزر مما سُفك في سبيل أية دعوة أخرى في تاريخ البشرية. بل إن القارة الأوربية التي هي مقر المسيحية، هي وكر الحروب والدمار على طول الألف الأخيرة من السنين.

ماذا بقي من وصايا المسيح الجميلة الرحيمة المتواضعة؟ ألم تصنعها غرائز الغلب والقهر والزهو والاستعلاء صنعها، وتستخدمها في إشباع النوازع البشرية؟

كذلك الدعوة الشيوعية ليست حديثة، فهي أخت
(المزدكية) الفارسية ونسخة منها. دمرت المزدكية فارس فيما
مضى، وسُفك في سبيل الشيوعية الحديثة من الدماء ما لم
يُسفك من قبل في سبيل النهب والسلب في قوم من الأقوام؛
ومع ذلك فماذا يبقى من الشيوعية المثالية؟

الظاهر أن النظام المثالي الكامل خيال في هذه الدنيا؛ فإن
الطبيعة البشرية تأباه. فهل يحسن بنا أن نحري وراءه أو نُلحّ في
طلبه؟ أم الأولى بنا أن نقنع بنظام دنيوي يؤدي بين الطوائف
والشعوب وظيفة أشبه بوظيفة القانون العادي بين الأفراد،
فيقتص من أطراف الشر، ويدم السلم ويحصر أذى الحرب
ويوجه الغرائز وجهة ترضاهما، فتشبع شهواتها من غير طريق
العدوان؟ نظام ييسر للجميع العيش، وتسنده المصلحة المشتركة
للفرد والجماعة والشعوب في عالم جعل منه النقل السريع وطناً
واحداً.

وبعبارة أخرى: نظام هو مجموعة قواعد عامة تصبح عرفاً
عاماً يرضاه الناس ولا يعصونه.

❁ الواجب قبل الحق

شغل المفكرين في العالم - جمعية إنجليزية تضع دستوراً
لحقوق الإنسان - استفتاء عظيمين من مفكري الشرق -
رأي غاندي - غضب ويلز على غاندي - رأي نهرو - مع
رأي غاندي - فلنجرب طريقة غاندي - طريقة مجربة
في الإصلاح - تحويل التصور البشري - إعلاء الغرائز
وتحويلها - تربية يطرد بها روح الأديان.

شغل المفكرين
في العالم

قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى وبعدها، بل وقبل
نشوبها، أقبل كثيرون من المفكرين المخلصين في العالم، فرادي
وجماعات، على التفكير في نظام يرضاه الناس وينقذهم من
مآسيهم وآلامهم التي أوقعتهم فيها أسباب الاضطراب العالمي
التي استعرضناها في الباب السابق.

جمعية إنجليزية تضع
دستوراً لحقوق
الإنسان

ومن بين الجماعات الكبيرة التي اهتمت بذلك جماعة
تألّفت من أهل الفضل في لندن يرأسها المحامي الشهير (اللورد
سنكي) ويقوم بدعوتها الكاتب المعروف (ه. ج. ويلز).

وقد وضعت هذه الجماعة بعد مناقشات ومكاتبات مشروعاً أعلنت فيه حقوق الإنسان، واقترحت أن يكون دستور العالم بعد الحرب الأخيرة.

وقد تضمن هذا الدستور إحدى عشرة مادة، هي في نظر الجماعة حقوق الإنسان التي يجب أن لا تعترضها شريعة ولا عرف ولا أي نظام محلي لبلد من البلاد أو شعب من الشعوب؛ فهي القانون الأساسي الذي يَجِبُ كل تشريع مخالف له.

وأهم هذه المواد يتعلق بحرمة الملك، وحق التعلم، وحرية العقيدة، والحرية الشخصية، وحق العمل، وحق القاصر في حماية الجماعة، إلخ...

وقد بعثت هذه الجماعة بمشروعها لرجلين عظيمين من مفكري الشرق: هما المهاتما (غاندي) والزعيم الهندي (جواهر لال نهرو) تسأل رأيهما، فأجاب غاندي بما يأتي، قال:

«ما هي النتيجة العملية لإعلان هذه الحقوق؟ ومن ذا الذي يرها ويحرسها؟ وسواء أكنتم تقصدون إلى الدعاية وحدها أم إلى تنوير الرأي العام العالمي فقد ابتدأتم من الطرف المخطئ.. وإنني أقترح عليكم وأرى أن الصواب هو في أن تبدئوا بإعلان

استفتاء
عظيمين
من
مفكري الشرق

رأي
غاندي

«واجبات الإنسان». ولا شك عندئذ أن الحقوق ستتبع كما يتبع الربيع الشتاء.

إني أكتب إليكم عن تجربة وخبرة، فقد بدأت حياتي مهتمًا بحقوق، وكان جهدي منصرفًا لتقريرها والحصول عليها، وسرعان ما أدركت أن لا حق لي حتى قبل زوجتي. فأخذت أنظر في واجباتي وما عليّ قبل زوجتي وولدي وإخواني والمجتمع فأديتها، وأنا اليوم أجد نفسي ولي من الحقوق ما ليس لرجل آخر أعرفه في هذا العالم».

غضب ويلز
على
غاندي

وقد أثار جواب غاندي غضب (ويلز) فحمل عليه حملة منكرة، وعده إباء منه للتعاون، وتمشيًا مع مذهبه السلبي، واتهم غاندي بالتأخر وبعدم إدراك ضرورة العصر.

ولكن هل أنصف ويلز غاندي؟ ثم أليس في كلام غاندي ما يستحق النظر والتفكير؟ ذلك ما سنبحثه.

رأي نهرو

أما «جواهر لال نهرو» فقد أَرْضَى جوابه ويلز، فقال عنه: إنه عمليّ وإنه يستحق عظيم الاهتمام ولو أنه خالفه في أمور غير جوهرية.

يقول نهرو: «سمع الناس كثيراً مع الإعجاب موثيق
وبيانات أعلنت حقوق الإنسان وانتهت إلى لا شيء، وأحقها
بالذكر ميثاق (بريان - كيلوج) الذي حرّم الحرب.

ولقد نظرت في بيانكم عن حقوق الإنسان فأزعجني أن لا
أجد فيه ما يهدي إلى كيفية تحقيقه.

أنا لا أقصد التفاصيل، بل أقصد الأصول التي يقام على
قواعدها العالم اجتماعياً واقتصادياً. وإذا كان من الحق، وهو
عندي الحق، أن مآسي العالم الحالية ترجع قبل كل شيء إلى
فساد نظامه السياسي والاقتصادي، فلا بد من تغيير هذا النظام
كي يستطيع تطبيق ما تريدونه من الحقوق التي أعلنتموها.

إن بيانكم، يا مستر ويلز، ليس قابلاً للتحقيق بحال من
الأحوال ما دام النظام الاستعماري والرأسمالي يسودان العالم.
تقولون إن لكل إنسان كذا وكذا من الحقوق، وهو كذلك، ولكن
أنى لهذا الإنسان أن يصل إلى حقوقه تحت النظام الرأسمالي؟
ثم أنى له أن يتمتع بشيء منها ما دامت أمة أو طبقة تسيطر على
أخرى وتسخرها؟ إن الطريق إلى الخلاص هو الاشتراكية، وأن
يقوم النظام العالمي الجديد على أصولها.

ذلك هو جواب (جواهر لال نهرو) وهو من الشخصيات العالمية المحترمة وسنعود إلى ما يشكو منه في الفصل المقبل. أما جواب غاندي فإنه كما قلت، رغم اعتراضات ويلز، يستحق النظر والتفكير.

مع رأي غاندي
فحقوق الإنسان كثيراً ما أُعلنت، وكثيراً ما انتهكت. وما دام الأقوياء لا يترددون بداع من التربية والعرف والوجدان، فإنها تبقى حيث هي غير قابلة للتحقيق.

فلنجرب طريقة غاندي
ويصح لنا أن نجرب تربية جديدة وطريقة جديدة، فنتخذ الواجبات أساس النظام الجديد؛ فبدل أن نحاول المساواة بين الناس في الحقوق، نقيم هذه المساواة على أساس الواجب؛ فربما كان ذلك أفعال في ردّ العدوان وفي احترام حق الغير.

طريقة مجربة في الإصلاح
فلو أننا عودنا الناس بالتربية إكرام القائم على واجبه أكثر من المطالب بحقه، لجعلنا الواجب مصدر العلاقات الأدبية والاجتماعية وأنشأنا نظاماً جديداً لعالم أحسن من عالمنا الحالي، لأن التربية التي تجعل القيام على الواجب غاية الإنسان الراقى، تنتهي باحترام حق الغير احتراماً أحفظ وأنفع للحقوق من كل قوة تُستخدم لكسبها أو المحافظة عليها. ولعل هذه الطريقة في

التربية هي التي تتناسب مع تاريخ الإصلاح البشري؛ فهي طريقة الأنبياء والمصلحين الذين وجهوا همهم إلى تعريف الناس بواجباتهم. فليس من المتعسر الرجوع إليها ولا خلق ذهنية جديدة أساسها فضل من يؤدون واجبهم على سائر الناس.

حرّم الأنبياء القتل والسرقة والغدر والكذب، فشرعوا بذلك واجبات أساسها النهي. فإذا أخذنا في التعرف إلى ما نحرّمه على أنفسنا، وجعلنا هذه الحرمة عامة ودولية، كان ذلك عملاً إيجابياً حاسماً في سبيل إقامة نظام جديد، ولو كان ظاهره دعوى سلبية أساسها النهي والتزام الواجب.

فمثلاً لو أن الناس أدّبوا وعُلموا أن لا يفرقوا بين القتل والقتال، لأن الواجب يحتم على الإنسان المذهب المحترم أن يمتنع عن إزهاق أرواح الناس لغير جريمة ارتكبوها، وبغير قانون وقاضٍ يقضي فيها، ولو صار الامتناع عن القتل في الحرب كالامتناع عن القتل في غير الحرب واجباً، من يتعداه يُعتَبَر مجرماً، لكانت هذه التربية وهذا الأدب والعرف أفعال في منع الحروب من كل الموائيق والنظم.

ولو سادت هذه التربية لكانت وظيفة الجندي على أحسن صورها كوظيفة الجلاد في نظر العامة سواء بسواء.

تحويل التصور
البشري

نعم إن تحويل التصور البشري للأمر عمل شاق، ولكن ألم يتبدل في جيل أو جيلين تصوّر الناس لأمر كثيرة تبديلاً تاماً؟ فلم لا يستطاع بالتربية والتدريب خَلْقَ عُرْفٍ عام عالمي أساسه حرمة الواجب في كل الأحوال والظروف؟

ولعله من المتيسر أن نوجه الغرائز البشرية التي نشكو منها في إفساد النظم المثالية وجهة الفخر بأداء الواجب.

فالإنسان يزهو بإنقاذ غريق أو التعرض للخطر في إطفاء حريق. فإذا صار العرف أن هذا العمل هو الذي تُستَحَقُّ عليه أعظم ألقاب الشرف، وأن الامتناع عن الأذى والاستشهاد في ذلك هو البطولة الكاملة، لاستخدمنا غرائز الاستعلاء والظهور في الخير العام.

ولم لا يخلد ذكر الذين ظهرت آيات مروءتهم في تأدية واجبهم بدل الذين ظهرت قدرتهم على الافتراس والفتك بالغير؟ فقد نصل عن طريق تعليم الواجب وتقديسه إلى إقامة صرح الحق وتخليده، ونكون قد اصطَلَحنا مع الغرائز الفطرية،

فَنَعْدِلْ عَنْ كِتَبِهَا وَاسْتَفْزَازِهَا إِلَى تَوْجِيهِهَا وَاسْتِخْدَامِهَا فِي
تَدْعِيمِ النِّظَامِ الْجَدِيدِ.

وَلَا أَظُنْ أَحَدًا مِنْ جِيلِنَا الَّذِينَ شَهِدُوا هَذِهِ الْحَرْبَ وَالَّتِي
قَبْلَهَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَصَوَّرَ نِظَامًا جَدِيدًا يَسْتَحِقُّ الْبَقَاءَ لَا يَحْرُمُ الْحَرْبَ
تَحْرِيمًا بَاتًّا.. فَهَلْ لَذَلِكَ مِنْ سَبِيلٍ أَصْلَحَ مِنْ سَبِيلِ الْأَنْبِيَاءِ:
سَبِيلِ التَّحْرِيمِ عَنْ طَرِيقِ تَعْلِيمِ الْوَاجِبِ؟

فَإِذَا لَمْ نَعْلَمْ النَّاسَ وَنُرَبِّهِمْ عَلَى احْتِقَارِ الْقِتَالِ احْتِقَارَهُمْ
لِلْقِتْلِ، فَأَنْتَى لَنَا أَنْ نَكْفَلَ السَّلَامَ بِتَجْرِيدِ أُمِّ مِنَ السِّلَاحِ أَوْ وَضْعِ
أُمِّ مَسْلُحَةٍ حُرَّاسًا عَلَى السَّلَامِ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَضْمَنُ أَنْ لَا
يَقْتَتِلَ الْحُرَاسَ طَمَعًا فِيمَا ارْتَمَنُوا عَلَيْهِ إِذَا لَمْ تَكْفَلَ ذَلِكَ التَّرْبِيَّةَ
الَّتِي أُسَّسَ بِهَا تَقْدِيسُ الْوَاجِبِ.

لَيْسَتْ هَذِهِ التَّرْبِيَّةُ مُسْتَحِيلَةٌ وَلَا هِيَ خَيَالٌ؛ فَإِنْ فِي حَيَاتِنَا
الْأُولَى كَثِيرًا مِنَ الْفَخْرِ بِضَبْطِ النَّفْسِ وَالْحَرَمَانِ، وَتَارِيخِ الْمَرْوَةِ
تَارِيخِ طَوِيلٍ يَكَادُ يَلَازِمُ النَّاسَ فِي كُلِّ جِيلٍ، وَهَذِهِ الْمَرْوَةُ بِمَا
تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ نَكَرَانَ الذَّاتِ تَعْلَمُهَا النَّاسُ بِالْاجْتِمَاعِ وَبِالْدِينِ،
فَصَارَتْ فِطْرِيَّةً لِأَنَّ الْغَرَائِزَ الَّتِي تَرْضِيهَا الْمَرْوَةُ هِيَ ذَاتُ الْغَرَائِزِ
الَّتِي يَرْضِيهَا الْعَدَوَانُ.

إِعْلَاءُ الْغَرَائِزِ
وَتَحْوِيلُهَا

فحين كان فخر الناس بالكرم، كان إشباع غريزة حب الظهور في البذل والعطاء، ولما صار فخرهم بالأثاث والسيارات والمقتنيات، صار إشباع هذه الشهوة بالأثرة والأنانية.

ولو علمنا أولادنا أن زهوم وإعجابهم ليس في أن يلبسوا ثوباً جديداً في العيد، حين لا يجد أولاد عمومته أو جيرانهم ثوباً مثله، وعودناهم أن زهوم وظهورهم في أن يمتنعوا مختارين عن لبسه تأسيًا بأهلهم، فإن غريزة حب الظهور تتدرب على إشباع غرضها بالامتناع، وتجد حظها في أداء الواجب.

تربية يطرد بها
روح الأديان

ولن يكون هذا جديداً في حياة الإنسان؛ لأنه يتناسب مع روح الأديان التي سيطرت على تاريخ البشرية الطويل.

إن فطرة الناس واحدة ومظاهرها متعددة، فالنفس البشرية تتكيف حسب مقتضيات التربية والعرف العام لترضي الكمين من الغرائز فيها. ولا سبيل لإنكار الغرائز الفطرية لمن يفكرون في تنظيم العالم. ونهج الأنبياء الذين وجهوا الغرائز وجهة ترضي المروءة والمصلحة العامة، هو النهج المستقيم. فإذا نحن اليوم بدل أن نعلن حقوق الإنسان، أعلننا واجباته، وألبسناها حللاً من الحرمة والتقديس، فإننا قد نوفق إلى نظام صالح جديد.

وليكن القانون الأساسي لهذا النظام متضمناً واجبات الإنسان
نحو أهل بيته وجيرانه ووطنه وجنسه والمخلوقات الأخرى. وقد
يكون ذلك أبقي للعرف العام، وأثبت على مر الأيام.

❁ علل النظام الحالي

إجماع على فساد الرأسمالية الحالية - خطر رأسمالية
الآلة - الآلات بركات كثيرة اللعنات - مادية لا سند لها
من الروح - مشكلة التعطل في الأمم الرأسمالية - رجال
الكنيسة الإنجيلية يتحولون إلى اليسار - إلى التوازن
الإسلامي - الاستعمار الحديث - ويلات عالمية - شاهد
منهم - شاهد من العالم الجديد.

إجماع على
فساد
الرأسمالية الحالية

يقول (نهر): إن سبب فساد العالم يرجع في معظمه إلى
فساد نظامه الاقتصادي والسياسي الحالي، وإنه لا سبيل إلى
الإصلاح ما دامت الرأسمالية تسخر طبقة لطبقة، والاستعمار
يسخر أمة لأمة.

وقد وافق (ويلز)، وأظن أن أكثر المفكرين اليوم على هذا
الرأي. فالرأسمالية رغم أنها كلمة استعملت حتى ابتذلت، لا
تزال تعبر عن نظام يقوم على الربا ويهدي إلى الترف والإسراف.
وهي وإن كانت باستنادها إلى حقوق الملكية الفردية قديمة
العهد، فإنها تتكئ اليوم على ملكية الآلة للعمل.

وهي بالانقلاب الصناعي الكبير الذي نشأ عن استخدام البخار والكهرباء حديثة بعيدة الغور في حياة الإنسان ونظام المجتمع. بل تكاد الرأسمالية الحديثة تكون شيئاً آخر غير نظام الملكية القديمة في آثارها ومظاهرها، وإلى هذه الرأسمالية ينسب الاشتراكيون كل مساوئ النظام العالمي الحالي ويعدون العطالة والبؤس والترف والإسراف من مظالمها.

لا شك أن ملكية الآلة، وحسن استخدامها، ودوام التحسين في إنتاجها، كل ذلك يعمل باستمرار للاستغناء عن عمل الصانع والزارع.

خطر رأسمالية
الآلة

فبدل أن تكون وفرة الإنتاج وسهولته بركة من بركات عصر البخار والكهرباء، وبدل أن يكون استخدام الآلة والقوة سبباً في بهجة الحياة والسعة في أوقات الفراغ، انقلب الخير في ظل النظام الاقتصادي الحديث إلى شر مستطير، وحُرم الكادحون من رأس مالهم وهو العمل والجزاء المناسب له، واختص الممولون) بمجهود محدود وثمرات وفيرة، فارتفعوا فيه إلى مستوى الأمراء في العهد الإقطاعي، وسارت الكثرة تنظر إلى مباحج الحياة ولا تشترك فيها، بل فقدت طوائف المتعطلين والذين على حافة التعطل هناة العيش وهناة الإيمان، في ضوضاء الآلة، وكان الدين من

الآلات بركات
كثيرة اللعنات

قبل يمدّ المُعَوِّزِينَ بالسُّلُوى والعَوِضُ في الدار الأخرى، أما الآن فقد ضعفت سيطرة الدين وذهب مدده من العزاء.

نعم كانت الأديان تخفف من آثار الملكية بدعوتها القوية إلى الزهد واشتراك المحرومين في ثمرات الكسب بقوة القانون، كما فعلت الديانة المحمدية، أو بتحريم ملكوت السماء على الأغنياء كما فعلت المسيحية.

مادية
لا سند لها
من الروح

وكأنما النظام الرأسمالي الحديث، وقد سلب السند المعنوي والروحي، يتجه بعنف نحو الأثرة والاستزادة من الترف والإسراف، فيقذف بلا رحمة في هاوية التعطل فريقاً، ويسخر فريقاً آخر. وليس أدل على ما وصل إليه الخطر من أن المتعطلين في بريطانيا قد تجاوزوا قبل الحرب^(١) عدة ملايين، وبريطانيا هذه هي سوق الأموال في العالم ومن أهم مراكزه، وتنفرد فوق ذلك بِمُلْكٍ لم يُؤْتَه بلد في العالم، تُجَبَّى إليها الأموال من القارات الخمس ومن الأبيض والأسود والأصفر.

بريطانيا المحسودة تنوء بعبء النظام الاقتصادي الرأسمالي! وليس أدلّ كذلك على تداعي هذا النظام من أن قادة الكنيسة الذين ظلوا سند العناصر المحافظة جيلاً بعد جيل

رجال الكنيسة
الإنجيلية
يتحولون
إلى اليسار

(١) أي الحرب العالمية الأخيرة (الكتاب صدر في ١٩٤٦).

أخذوا يتحولون من اليمين إلى اليسار يتقنون أن يغمرهم سيل الفتنة كما غمر رجال الكنيسة الروسية، فنزعوا إلى التأويل أو رجعوا إلى المسيحية الأولى.

وآخر ما علمنا في هذا الشأن قرار مؤتمر ملفرن Melvern للكنيسة الإنجيلية، وهي قرارات لو نشرت في أول هذا القرن لَظُنَّ أنها مما أوحى به (كارل ماركس) أو بعض تلاميذه.. وكما أن هذا دليل على اتجاه الأفكار فإنه كذلك دليل على حصافة رجال الكنيسة في الغرب، وإننا لندرجو أن يتعظ العلماء وقادة الرأي في البلاد الإسلامية؛ فإن شريعتهم هي الشريعة التي وُفِّقَت كل التوفيق في تناولها هذه المشكلة المعقدة.

فلا بد للمسلمين الذين اندفعوا على غير هدى إلى تقليد الغرب من الرجوع إلى الإخاء والزكاة والتوازن بين الطبقات؛ ذلك التوازن الذي أقامته شريعتهم على أساس أن البر حق معلوم في أموال الأغنياء، وعلى ترجيح المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وعلى مسئولية ولي الأمر وسلطته الواسعة في النظر إلى حاجات المسلمين. وليس المقام مقام استرسال في نواحي الشكوى من النظام الحالي، فالصيحة تتردد من أوائل هذا القرن في جوانب العالم كله، والفتن يأخذ بعضها برقاب

إلى
التوازن
الإسلامي

بعض، فلا بد إذاً من نظام اقتصادي جديد يحل محل النظام الحالي.

ولنرجع النظر إلى العنصر الثاني لفساد المجتمع الحالي في رأي (نهر) وهو الاستعمار؛ وإذا كانت الرأسمالية قديمة ولها من الألفة بها سند؛ فإن الاستعمار حديث، والفطرة تأباه وتبغضه، وقد عملت كل الأمم في كل العصور للخلاص من سيطرة الأجنبي.

وإذا قلنا إن الاستعمار حادث فليس معنى ذلك أن الناس والحكام لم تتقاتل على الأرض وملكيتهما، أو على الملك وسعته؛ فذلك قديم، وإنما الجديد في الأمر هو ذلك الطغيان العام باسم التمدين، وقوامة الأمم الأوروبية على العناصر الملونة كما يقولون. سادت الأقوام الأوروبية الأصل الدنيا، وأصبحت الكرة الأرضية كلها في متناول الاستعمار الحديث بتطور وسائل النقل والسرعة.

وكان فيما مضى زحف (تخومس) من النيل للفرات غير مسبوق، وسير الإسكندر من الفرات إلى السند أعجوبة التاريخ. كانت شرور الفتح والنهب محدودة وطرائق الأثرة والاستغلال أولية.

ولايات عالمية أما اليوم فولايات الاستعمار عالمية وأثاره تشمل الكرة الأرضية. وقد أنصف كثير من الكتاب الغربيين أهل الشرق المغلوبين، ورثوا لحالهم قبل الحرب الماضية، ولعلمهم اليوم يرثون لما أصاب الغازين أنفسهم؛ فهم يستحقون كذلك الرثاء.

شاهد حق قال الكاتب الإنجليزي المشهور (سدني لو) سنة ١٩١٢ يصف الاستعمار: «ما أشبه غالب الدول الأوربية في سلوكها هذا الذي ما برحت تسلكه منذ عدة سنوات إزاء الأمم الشرقية بعصاة من اللصوص يهبطون على الحِلَلِ الأمانة فيثخنون فيها، ثم ينقلبون بالغنائم والأسلاب. وما بال هذه الدول الغربية بعملها هذا مؤيدة للدعوى الباطلة بأن القوي الشاكي السلاح يحق له الانقضاض على الضعيف الأعزل، وآتية بالبرهان القاطع على أن مكارم الأخلاق والآداب الاجتماعية لا شأن لها ألبتة حيال القوة المسلحة! ففي خلال عشرين سنة ثارت ثائرة الاستعمار في أوربا، وهبت عواصف الحضارة المادية الهوجاء فقوضت الآداب والحقوق الدولية تقويضاً».

ذلك ما قاله (سدني لو) قبل الحرب العالمية الأولى، وقد توالى حملات الاستعمار على العالم الشرقي أخذاً بعضها برقاب بعض.

لو أن «لو» كتب في الاستعمار بعد الحربين العالميتين لكان رثاؤه للمستعمرين الغربيين أكثر من رثائه للمغلوبين الشرقيين.

شاهد من
العالم الجديد

وقد دافع كذلك عن الشرقيين بعد الحرب العالمية الأولى الكاتب الأمريكي (لوثر روب ستودارد) في كتاب «حاضر العالم الإسلامي»^(١) بهذه العبارة: «إن مبادئ الحرية التي سادت في الغرب ونُودي بها غالب القرن التاسع عشر قد هبت عليها ريح هوجاء من المطامع السياسية والاقتصادية فمزقتها شراً ممزقاً، وبُذِّت صورها كل مُبَدَّد، إذ أخذ التزاحم يشتد والتنازع يُوغر قلوب الدول الغربية، حتى طفع الكيل فاشتعلت الحرب الكونية العظمى. واشتد نهم أوربا وجشعها للتوسع في الفتح والاستعمار ومناطق السيطرة ونيل الامتيازات واحتياز الأسواق الاقتصادية اشتداداً وحشياً غير مسبوق المثل».

فلو أن (ستودارد) كتب بعد أن وقعت الحرب العالمية الثانية وشهد ويلاتها، أما كان يرثي هو أيضاً للغالبين كما رثي لحال المغلوبين؟

(١) عربيه الأستاذ عجّاج نويهض، وعلق عليه تعليقات مستفيضة الأمير شكيب أرسلان - رحمه الله.

إن السيطرة الاستعمارية على العالم باسم الحضارة إنما تسعى لإشباع شهوات الرأسمالية الحديثة في الأسواق والمواد الخام. وقد وضعت الرأسمالية والاستعمار مُتَسَانِدَيْنِ أُسَسَ هذا الاضطراب العالمي الذي قد يقضي على الحضارة كلها.

فلا بد إذاً من نظام اقتصادي وسياسي جديد.

وحين يقول (نهر) ويوافقه (ويلز) إن النظام القائم على الرأسمالية والاستعمار والذي يعيش في ظل سيطرة طبقة على طبقة، وأمة على أمة، ليس نظاماً صالحاً للبقاء لا يجدان من العقلاء من يخالفهما، وإنما يأتي الخلاف حين يُقْتَرَحُ العلاج.

❁ مقترحات

البدء بتقرير قواعد بسيطة - يجب تطور الرأسمالية
والاستعمار - عالم واحد لا تتجزأ السلم فيه - هيئة
عليا عالمية لقيادة مشتركة - التدرج إلى حكومة عالمية -
البدء في قلوب الطفولة - من التربية القومية إلى التربية
العالمية- التدريب على الغضب للمصلحة العالمية -
فلنتعهد النواة الصالحة في «هيئة الأمم المتحدة».

البدء بتقرير
قواعد بسيطة

بما تقدم يتضح أن رسم نظام كامل لحياة عالمية سعيدة، أو
وضع تفصيلات لنواحي هذا النظام، ليس من شأنه أن يعين
على قبوله أو كماله. فنحن لذلك أميل إلى البدء بتقرير أسس
وقواعد بسيطة يقوم بعضها على «الامتناع» ومعرفة الواجب
وأدائه.

وقد وضح كذلك أن النظم المؤيدة للاستعمار والرأسمالية
الحديثة قد تطورت من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين
بكيفية أحدثت أثراً بالغاً في تقسيم الناس إلى أم مهيمنة
مستغلة، وأم مغلوبة مسلوقة، كما فرقت الجماعات في هذه الأمم

الغالبية والمغلوبة إلى طوائف وطبقات حاكمة متعادية. وقد أدت هذه النظم دورها في تجارب البشر، ولا بد لها من التطور لمسايرة عهد السرعة والإنتاج الآلي.

تطور الرأسمالية
والاستعمار
واجب

فهذا التطور من شأنه أن يمهّد السبيل لعهد جديد أساسه الإخاء العام، وهدفه التعاون على الخير والبر.

وعالمنا الجديد، وقد أصبح في حيز الإمكان الطواف حوله كله في يوم أو ليلة، واتصلت أطرافه باللاسلكي والراديو في لحظة، عالم واحد لا تتجزأ السلم فيه، ولا سبيل لسعادة قوم منه على بؤس الآخرين. ولا بد له أن ينتهي إلى قبول هيئة عليا لقيادة مشتركة كما قبلت الشعوب هيئات منها لقيادتها، فتولد عندئذ الحكومة العالمية التي نرى فوائدها في نظام «الأم المتحدة»، فتكون لها سلطات تنفيذية وتشريعية وقضائية يقر الناس شرعيتها كما يقرون شرعية حكوماتهم القومية، ويدينون لها بولاء مماثل لولائهم لدولهم.

عالم واحد
لا تجزؤه

هيئة عليا عالمية
لقيادة مشتركة

هذه الهيئة العالمية التي تتدرج إلى مقام الحكومة العالمية تقوم على أصول قليلة عامة تستضيء بها في رسم الخطط العامة

التدرج إلى
حكومة عالمية

لسياسة الدنيا. على أن تكون هذه القواعد العامة بسيطة ومقبولة بالفطرة من الناس على مختلف أجناسهم وألوانهم وعقائدهم.

فمثلاً تكون مبادئ المساواة والإخاء بعض قواعدها، فيكون ما ترسم للناس مقيّداً بحقوق المساواة وحقوق الإخاء.

ومثلاً يكون فيها حق العيش وتأمين الحاجة حقاً طبيعياً يهدف إليه الجميع، كحق الأمن يسعى للمحافظة عليه الجميع، فيكون إطعام الناس، وتأمينهم من الخوف واجباً على كل الناس.

البدء في
قلوب الطفولة

مثل هذه القواعد الفطرية، إذا دُرّب الناس على تقديسها وتقديسهم لأديانهم وأوطانهم، ولقنوها في طفولتهم وهم في أحضان أمهاتهم وحين تنشئتهم في المدارس، تنتهي حتماً إلى إقامة صرح نظام عالمي عليها، موطن القواعد ثابت الأركان.

من التربية
القومية إلى
التربية العالمية

وإذا اتفقت جميع الدول في (هيئة الأمم المتحدة) على برنامج للتعليم والتثقيف العام والدعوة، وجذّت كل دولة في بثّ هذه الأفكار في نفوس الشعوب الخاضعة لسلطانها، مكن ذلك (الأمم المتحدة) من التطور إلى الهيئة العالمية التي نرجو أن يدين لها الناس بالولاء والطاعة.

إن أثر الدعوات الإنسانية وأثر التربية واضح في تاريخ
البشر وضوحًا حاسمًا ومؤثرًا في حياتهم، فالدعوات الدينية
التي غالبت الدهر وعاشت القرون واستمرت تفعل فعلها في
نفوس الناس وفي تكوين الهيئة الاجتماعية، شاهد على قابلية
البشر لقبول الدعوات الإنسانية السامية للتآخي والتعاون.
وإن ما حرّمته هذه الدعوات استقرّت حرّمته في نفوس الناس،
فكبحت من جموحهم ومن شهواتهم، وحولت الدوافع والغرائز
لتتخذ لمظاهرها أشكالاً وألواناً أخرى. فإذا دعونا إلى تحريم الحرب
وتمكنت هذه الدعوة من النفوس، لاستحال تسيير الجيوش
للقتال إلا بقدر ما يحدث من الشذوذ ضد إرادة المجتمع، من
تكوين عصابات من القتل للسلب، ويصبح الوجدان الإنساني
أشد نفورًا في التوجه بالأذى والقتل إلى شخص مجهول له،
أكثر من شعور الفرد العادي حين يهم بجريمة القتل ضد أحد
المارة.

وهكذا إذا عودنا الناس أن استغلال الآخرين لمصلحتهم،
واستخدام الجاه أو النفوذ أو الحيلة للمنفعة الذاتية يعتبر عملاً
من أعمال السرقة، فإن الوجدان البشري ينتهي إلى اعتبار هذا

الاستغلال بأنواعه إجرامًا، كما يعتبر السارق الذي يستخدم قوته أو حيلته للسرقة مجرمًا.

فعلى الدعوة والتربية العامة التي تجعل الناس ينظرون إلى هذه المبادئ البشرية نظرتهم إلى القواعد التي تعارفوا عليها بالنسبة لأنفسهم كأفراد في أسرة أو وطن، يتوقف تمهيد السبيل للنظام العالمي الجديد الذي لابد منه لتطور الحضارة، ولاجتناب الفناء الذي هيأت أسبابه سيطرة الإنسان المتزايدة على المادة، وعلى مجرى الأمور في سلم المجتمع العالمي.

التدرب على
الغضب للمصلحة
العالمية

ويجب أن يُعَلَّمَ الناسُ الغضبَ لأشياء عامة، وفي المصلحة البشرية كما عُلِّمُوا الغضب لأوطانهم وعقائدهم الدينية، فتكون غيرتهم وانفعالهم للعدوان على حقوق الغير، أو للتقصير في عمل الواجب نحو الناس كافة، موجهة بالغريزة كتوجيهها في الماضي للدفاع عن حق الأسرة وشرفها.

فلنتعهد النواة
الصالحة في
هيئة الأمم المتحدة

وأخيرًا إن وجود «هيئة الأمم المتحدة» في شكلها الحالي، ورغم المؤثرات التي رافقت ميلادها يفسح المجال لأمال كبيرة في الاتجاه الذي نشير إليه؛ فهي نواة صالحة إذا تُعْهِدَتْ بالاحترام والثقة فيها، وأدركت الدول أنه لا سبيل إلى التخلي عنها، بل

اتخذتها محكمتها ومرجعها في كل نزاع؛ حتى يشعر الناس تدريجياً بضرورتها لسلامة عيشتهم وأمنهم، فيضحوا عن طيب خاطر في سبيل استمرارها وقدرتها، كثيراً من حقوق السيادة التي أظهرت الدول فيما مضى غيرة قوية على التمسك بها. بل قد يأتي اليوم الذي تضع فيه الدولة من الدول سيادتها وسلطانها تحت تصرف هيئة الأمم المتحدة، لضمان أمنها أو يسرها، أو للتغلب على معضلاتها الاقتصادية والاجتماعية.

فعلينا في سبيل هذه الغاية النبيلة أن نصبر ونصابر ونصمم.

ولنحذر اليأس ونتعلق بأهداب السعي المتواصل لتمكين «الأمم المتحدة» من سد هذا الفراغ في حياة العالم الجديد.

(٦)

في النظام الأساسي للدولة الإسلامية

❁ بعض أسس الدولة الإسلامية الإمامة الشورى السيادة

دلالة الفقه الإسلامي - المبادئ العامة محدودة وقاطعة -
من هم أهل الشورى؟ - المجمع عليه في الإمامة - تجربة
العصور - الأصول المقررة في رئاسة الدولة الإسلامية -
مفهوم السيادة في الإسلام - صورة لا نظير لها - حدود
سلطة الأمة - لا سند لما ينقض العدل والحق.

ظهرت في السنوات الأخيرة دول إسلامية مستقلة متعددة
في آسيا وأفريقية، وظهرت معها وفيها هيئات وأحزاب تريد أن
تقيم نظمها على مبادئ الشريعة الإسلامية وأصولها، وتعددت
الآراء فيما هو نظام الحكم الإسلامي، وفي كيفية إنشاء دساتير
تتفق ومقتضيات الإسلام، وتحقيق غايات الشريعة المحمدية.

والدول الإسلامية من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب
تشمل أقوامًا وثقافات وعرفًا وعادات وطرائق للحكم، وتختلف
فيها الحاجات باختلاف الأقاليم واختلاف البيئات الاجتماعية
وضروراتها، فحكمها بطريقة واحدة أمر عسير؛ لأن استيفاء

حاجاتها ومصالحها وسد الذرائع فيها يحتاج لتفصيل واجتهاد يجعلان من العسير أن يفي بحاجاتها دستور موحد ونظام حكم واحد بالمعنى الحديث للدساتير، يحقق الغرض الذي ترمي إليه الشريعة في كل مكان. بل قد يكون أدنى إلى تحقيق غرض الشريعة المحمدية أن تتعدد أشكال الدساتير ونظم الحكم على أساس أن تسودها المبادئ العامة للشريعة الإسلامية وأصول الآداب والأخلاق التي جاءت بها رسالة الإسلام واهتدى بها البشر من أقدم العصور، لأن اختلاف القوانين المنظمة للشئون العامة قد يكون في ذاته ضرورة محققة لأغراض الشريعة ولمصالح المسلمين في مختلف ظروفهم، وأدعى لتحقيق المصلحة، من الإصرار على دستور موحد شامل يطبق في كل مكان.

ولعل الفقه الإسلامي في نشوئه وتطوره وتعدد آراء المجتهدين فيه متأثرين قطعاً بظروف البيئة وظروف الزمن، هو الهادي إلى ما نظنه الصواب في هذا النظر.

دلالة الفقه
الإسلامي

فالدساتير الإسلامية التي يطالب بها الأندونيسيون أو الباكستانيون أو المصريون أو غيرهم من الأمم الإسلامية، يمكن أن تكون في جوهرها متفقة متقاربة، وإن اختلفت في فروعها

وتفصيلاتها وما يتفرع من ذلك من قوانين ومراسيم وإجراءات تقتضيها المصلحة وتسد بها الذرائع.

وعليه، فما هو هذا الدستور أو هذا النظام الإسلامي الذي يوحد بين المسلمين من غير أن يعوق التطور التشريعي والاجتماعي وفق مقتضيات العدل والمصلحة في مكان ما أو زمان ما؟!

المبادئ العامة
محددة وقاطعة

إذا نظرنا في الكتاب والسنة وتاريخ المسلمين في أيام خلفائهم الراشدين نجد أن الإسلام محدد قاطع في كل ما هو من المبادئ العامة الصالحة لكل زمان ومكان وقوم، فإذا كان الأمر تنفيذاً لهذا المبدأ وإقامة لأصل من أصول الإسلام، تجلت مرونة الشريعة الإسلامية وتفويضها لعقولنا واجتهادنا، وصارت الشريعة وكأنها تشير إلى هدى النبي ﷺ في قوله «أنتم أعلم بأمور دنياكم» فينفسح مجال الرأي ويكون الفضل بالنسبة للصواب أو عدمه لحكم العقل والتجربة الهادين إلى المصلحة العامة والمتجنبين للضرر.

ولعل ذلك هو فضل الإسلام الذي يجعل منه شريعة خالدة للناس جميعاً، ويحقق قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ

وَأَنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ [الحجر / ٩] إذ لو كان الإسلام غير ذلك ما كان ديناً يسراً، ولضاق بالناس في مختلف أزمانهم وأوطانهم وحاجاتهم المتغيرة. فوضوح الإسلام في الأصول العامة ومبادئ الأخلاق السامية وتركه الكثير من الأمور للرأي والاجتهاد لم يكن سبباً للضعف في شريعته، بل سبباً لاستمرار الحياة والخلود لهذه الشريعة وعظمة الفقه فيها.

❁ في الشورى

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة: كره الإسلام أن تقوم الدولة على السيطرة والجبروت من شخص أو جماعة، وأرادها أن تقوم على الرضا والتعاون، فأمر بالشورى فقال ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية / ٢٢] ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران / ١٥٩] ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ يَنبَغُ لَهُمْ﴾ [الشورى / ٣٨] فجعل الشورى مبدأ عاماً لا مفر من إقراره واعتباره في كل دولة أو جماعة إسلامية في أي مكان وأي زمان وأي قوم. وقد دلت تجارب البشر على اضطراب هذا المبدأ ونفعه، ولكنه لم يرد أن يشق علينا بتعيين نظام واحد لهذه الشورى أو تعديد صور له لنختار منها ما يقتضيه المكان والزمان، فترك لنا الاختيار والتنظيم للشورى معتمداً في ذلك على إخلاصنا لديننا وإخلاصنا لأنفسنا، وعلى أن الأعمال بالنيات وأن لكل امرئ ما نوى، ولنقرر في حدود هذا الأصل أشكال هذه الشورى وكيفياتها وفق حاجتنا كي نكفل للأمة الاستقرار والرضا العام.

ولذلك نجد كبار الصحابة ومن بعدهم من التابعين والأئمة
والفقهاء قد اجتهدوا في هذا الأمر وتركوا لنا آثارهم فتعدد الرأي
في كفيات الشورى:

١- فنجدها مرة بعرض الأمر على العامة في المسجد أو الخاصة
في ندوة.

٢- ونجدها مرة ثانية بدعوة لعدد من كبار الصحابة لتبادل الرأي.

٣- ونجدها ثالثة بعرض الأمر على من حضر من أهل الرأي
والمقام في ظرف معين.

٤- ونجدها رابعة مقتصرة على واحد أو أكثر يختارهم الإمام
ويثق في سداد رأيهم ويشعر بمشاركة العامة إياه في ذلك.

وهكذا كان المعول في الأمر كله على حسن نية ولادة الأمر
ومراعاتهم لأمر الله ﷻ في الشورى وخشيتهم له فأدوها بالكيفية
التي تطمئن لها نفوسهم حسب مقتضيات الظروف والأحوال.

وقد اصطلح المسلمون على أن أهل الشورى هم جماعة
من أهل الحل والعقد. و«أهل الحل والعقد» هم من إذا أبرموا
وعقدوا أمراً أبرمه الناس، وإذا نقضوه وحلّوه نقضه الناس.

من هم أهل
الشورى؟

فلو علمنا من هم أهل الحل والعقد الذين إذا قالوا قال الناس، وإذا رأوا رأياً تبعهم الناس لكان فيهم كل الكفاية للحصول برضايتهم على الرضا العام ومثلت الأمة خير تمثيل، ولكن المشكل الذي ظهر في مدى العصور الإسلامية هو الاتفاق أولاً على من هم أهل الحل والعقد الذين تنعقد بهم مثلاً البيعة للإمام، وثانياً على كيفية اختيارهم، ولذلك تعدد الرأي، فحصرهم البعض في العلماء، والبعض في العلماء وغيرهم من المتبوعين في أقوامهم، والبعض فيمن تتوفر فيهم صفات الاجتهاد من العلماء.

والواقع أن تعيين أهل الحل والعقد ليس أمراً هيناً، فهم في المدينة غيرهم في البادية، وهم في الريف غيرهم في العواصم ومراكز الاكتظاظ والصناعة، وهم في عصر من العصور العلماء المتبوعين، وفي غيره المتغلبون النافذون في العشائر والأوطان والممالك، وفي عصرنا قد يكونون بين رؤساء الأحزاب والطوائف والنقابات وغيرهم.

وهكذا يختلف النظر بالنسبة لأشخاصهم وبالنسبة لاختيارهم وتعيينهم باختلاف الأقوام والعرف والعادات

والأزمان، ليكونوا أهل الرأي في البيعة، وأهل الشورى في كل حين.

ولذلك نظن أن الدستور الذي يوضع لتمكين أهل الحل والعقد من إبداء الرأي، وتمكين الإمام ورئيس الدولة الإسلامية من اختيارهم واستشارتهم يتغير بتغير ما أشرنا إليه. وقد يكون في دستور أية دولة من الدول الإسلامية غيره في دستور دولة أخرى.

هذا مثل قد يوضح في أذهاننا ما هو موضع الرأي وما هو موضع التقليد فيما نختار من النظم والدساتير لتكون موافقة للشريعة الإسلامية وأغراضها.

❁ في الإمامة

ومثل آخر هو: مسألة الإمامة واختيار رئيس الدولة، وما يجب أن يتوفر في الإمام من شروط، وما له وما عليه من واجبات، ففي هذا أيضاً نجد الشريعة الإسلامية واضحة فيما هو ثابت ومستمر من أمر الإمام والإمامة، وتاركة للرأي والاجتهاد والمصلحة ما هو متغير وغير ثابت وتقتضي المصلحة فيه هذا التغير وعدم الاستمرار.

فمنذ اجتماع المسلمين في «سقيفة بني ساعدة» عقب وفاة الرسول ﷺ والبيعة لأبي بكر رضي الله عنه وموضوع الإمامة محل خلاف بين المسلمين، تعددت فيه الآراء والمذاهب. وإن اجتمعت الأكثرية العظمى على رأي أهل السنة فإن هذا الاجتماع لا يخلو كذلك من خلاف على تفصيلات كثيرة. ويمكن القول بأن المسلمين لم يجتمعوا إلا على أمر واحد: هو وجوب الإمامة منعاً للفوضى وإقامة لحدود الله.

الجمع عليه
في الإمامة

وليس القصد هنا تناول هذا الموضوع من الناحية النظرية، ومناقشة المذاهب والآراء التي لا تزال ممثلة في طوائف كثيرة من أهل السنة والشيعة والإباضية، وإنما القصد هو الإشارة إلى هذا الخلاف ليتبين للناس اتجاه الشريعة الإسلامية ببيان المفروض والمتروك لهم، ليقرروا بشأنه ما يشاءون وفق المصلحة وحسب مقتضيات معاشهم وزمانهم وأوطانهم.

فإذا تتبعنا ما اختلفوا فيه نجده قد تناول الكثير من أمر الإمامة، حتى اللقب نفسه، فسمى المسلمون رئيس الدولة خليفة، كما سموه أمير المؤمنين، وإماماً وسلطاناً.

وقد بلغ الخلاف في الموضوع أنه لما توفي الرسول ﷺ واجتمع الناس في السقيفة لم يكن الأمر واضحاً لهم، حتى قال الأنصار: «منا أمير ومنكم أمير» وقال المهاجرون «منا الأمراء ومنكم الوزراء» أي قال قوم بوحدة الإمام وآخرون بتعددده. ثم اجتمع الرأي باختيار أبي بكر لفضله، ولأنه لا تتناول إليه الأعناق كما قال عمر رضي الله عنه. ولا يعني هنا أن نخوض في أصل وجوب الإمامة وكونه عقلياً أو شرعياً وغير هذا، ما دام المسلمون قد فصلوا في ذلك الوجوب بإجماع الصحابة، ومارسوا الأمر، ثم اجتهدوا فيما يجب للإمام وما عليه لإقامته وتمكينه من حراسة

مصالحهم الدينية والدنيوية، في مجتمع وُلِد نتيجة للدعوة والإرشاد والكفاح المحمدي على أسس جديدة غير مألوفة في ذلك العصر فهو مجتمع متكافل متكامل، الناس فيه عيال الله، وأكرمهم أتقاهم، وهم سواسية كأسنان المشط، وليس لأحد عليهم سلطان إلا بقانون مرجعه الشرع الإسلامي، فهو بذلك مجتمع جديد في عصره وفي عالم كان يقتسمه قيصر وكسرى كأرباب من دون الله.

في هذا المجتمع نشأت الإمامة، وسادت الشريعة واستقرت مبادئ وأصول ونظم لها كل القداسة، وهي بذلك الدستور الدائم للمسلمين الذي لا يوهب ولا يسلب، تتعين فيه الحقوق والواجبات العامة للجميع، ولا تملك قوة في الأرض، حتى الأمة نفسها، له تغييراً أو تبديلاً، ففيها الإمامة مثلاً أمانة والأمين عليها يتصرف في حدود الأصول العامة للشريعة وفق مصلحة الكافة.

والإمامة كنظام إسلامي فريد غير مسبوق، لا تُؤتي أحسن ثمارها إلا في أمة صالحة، ينظم أمورها وفق الشريعة دستور واضح، يتطور بإرادة الأمة وفي حدود الشريعة لتجلب به المصالح وتسد الذرائع.

تجربة العصور

وقد دلت تجربة العصور على أنه إذا فسدت الأمة، وإذا فشا فيها الجور فلم يقف الناس عند حدود الشريعة، فسد الأمر كله، فضاع حق الراعي وحق الرعية، وكثرت الفتن وانطوت سيادة القانون، فلا بد لاتقاء هذا من نظام ودستور إسلامي ترضاه الكافة، ويكون حدود الله بين الناس، فيه ما هو ثابت خالد من الأصول، وما هو متغير وفقاً للمصلحة من الفروع، لأن الشريعة تركت لنا الاختيار والاجتهاد في شأنه وفي صورته وأشكاله وما يتفرع عن ذلك من المسائل لدوام الأمن والرضا والعيش الكريم.

الأصول المقررة
في رئاسة
الدولة الإسلامية

وأخيراً وبعد مراجعة الكثير من آراء الأئمة وفقهاء المسلمين في مختلف مذاهبهم، ومتابعة التاريخ الإسلامي، أشعر أن الشريعة الإسلامية لم تقرر لحكمة سامية في أمر رئاسة الدولة إلا بعض أصول قليلة: كإقامة الإمام، وأن يكون بالغاً، عاقلاً، مرضياً عنه من الأمة مستعيناً بصالحيتها، مشاوراً لأهل الحل والعقد فيها، وأن يكون بعد ذلك حارساً على مصالح المسلمين مقيماً لشريعتهم. وينتقض أمره بمخالفته أوامر الله ومصالح المسلمين. وأظن أنه فيما عدا هذه الأصول القليلة قد ترك للناس أن يجتهدوا ويضعوا من النظم ما يصلح أمورهم، ليتناسب ذلك مع دعوة الإسلام العامة وأن هذا الدين للناس كافة.

❁ في سيادة الأمة

ومثل ثالث: هو أمر «سيادة الأمة» وكونها مصدر السلطات بالمعنى المتعارف عليه في هذا العصر. فللإسلام في هذا منهج غير نهج الدساتير الحديثة.

إن الإسلام دين عام، لا يتقيد في أصول العقائد والآداب والأخلاق والمبادئ والحقوق بالأوطان الخاصة ولا بنعرات الجنسيات والقوميات والألوان، ولهذا فالسيادة عنده للشيعة: أي لتلك الأصول التي قامت عليها دعوته، وليس للأمة مجتمعة أو متفرقة، متفقة مع رئيس الدولة أو مختلفة، ممثلة في برلمان أو في هيئة تأسيسية أو غير ممثلة، أن تتصرف فيما جعله الله حقاً أو واجباً للأفراد أو للجماعات في وطن ما أو للناس كافة في الدنيا كلها.. إذ لهذه الأصول وحدها القائمة على ما شرع الله من حقوق وواجبات عامة للإنسان، السيادة والخلود، لأنها دائمة بإرادة الله لا غيره. وهذا أصل إسلامي عظيم يجب دائماً أن لا يغيب عن أذهان الباحثين الإسلاميين، وأن ينوه به

في هذا العصر خاصة ويعلن عنه، لأنه جعل من رابطة الإنسانية رابطة أعلى من الروابط العنصرية والوطنية، وجعل من الحقوق البشرية ما يسمو على السيادة أو المصلحة القومية.

مفهوم السيادة
في الإسلام

فالسيادة بمعناها العصري عند الآخرين أو مقلديهم من المسلمين غيرها في النظام الإسلامي، فهي فيه مكونة من عدة قوى يجتمع بها سلطانها: هي الشريعة، والأمة، والإمام حارس الشريعة ومختار الأمة، ولذلك يسمو النظام الإسلامي على ما عداه، فهو يكفل أصول المبادئ الأخلاقية العامة، وأسس العدل العام والمساواة بين الخلق والإخاء البشري، فيقيم الحقوق والواجبات البشرية على قواعد الشمول والخلود بأمر الله تعالى وإرادته، فيقطع بذلك السبيل على الهوى والتعصب والتحزب، إذ ليس للأمة ولا للملوك ولا للرؤساء ولا للعامة سبيل إلى نقض حقوق الإنسان وواجباته بدعوى حرية الأمة وسيادتها في وطنها.

فمفهوم السيادة في الشريعة الإسلامية غير مفهوم السيادة الشعبية في دساتير الأقوام الأخرى ودساتيرنا المنقولة عنها، إذ هي لا تتحقق كما قدمنا إلا باجتماع العناصر الثلاثة التي ذكرناها: الشريعة الإسلامية، والأمة ممثلة في أهل الحل والعقد، والإمام المختار ففيهم مجتمعين السلطان الذي يسمى حق

السيادة Sovereignty وقد كانت قديماً للملوك وصارت حديثاً للشعوب.

صورة لانظيرها

وهذه الصورة الإسلامية للسيادة مانعة من الهوى والتردي في مزالق الرأي، وهي ضمان للحقوق والواجبات الإنسانية لا نظير له في مذاهب الأمم السابقة واللاحقة للإسلام.

والتعبير عن هذه السلطة لا يتأتى بإرادة واحدة كما يحدث، باسم الشعب مثلاً في حزب الأكثرية، أو باسم الملك، أو باسم الدكتاتورية شيوعية أو غير شيوعية، بل لابد للتعبير عن هذه السلطة من اجتماع إرادة الله: أي شرعه، وإرادة الدولة: أي الأمة والحكومة فمن هذه الإرادات الثلاث تنتظم الحقوق والواجبات في جميع الأوطان والأزمان.

فمثلاً إذا قالت الشريعة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل / ٩٠]. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة / ٨]. ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء / ١٣٥] لم تستطع الأمة ولا الإمامة ولا هما مجتمعين أن يتجاوزوا ما أرادته الشريعة

من عدل وإنصاف، ولو كان ذلك باسم سيادة الأمة وحققها في تقرير مصائرها.

وإذا لا تكون الأمة مصدر السلطات بمعنى أنها طليقة تفعل بنفسها ووطنها أو غيره ما تشاء، فهذه المشيئة محدودة بمبادئ الأخلاق العامة ومبادئ العدل وحقوق الإنسان وواجباته كما أرادها الله.

حدود سلطة
الأمة

أما أن للأمة أن تكيف نظمها وتضع القوانين والدساتير في حدود هذه السيادة المشتركة، فأمر لها فيه كامل الحرية، فهي سيدة في كل ما لا تجده إرادة عليا هي إرادة الله مصدر الوجود، الذي استخلف الإنسان في الأرض، وحمله أمانة الحكم، وجعل هذه الخلافة تقصد إلى العدل والحق ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص / ٢٦].

نعم أن الأمة مصدر السلطات، وليس للملوك ولا للرؤساء من أي نوع كانوا في الشريعة الإسلامية من الأمر إلا ما تريده الأمة، فهي التي تقيم الدولة، وهي التي تنظمها، وهي التي

تختار أولياء الأمر فيها، وهي التي تقدر مصالحها وتدرأ مفسدها، فهي في هذا كله مصدر للسلطات: تلك السلطات التي يحددها ويحيط بها نطاق الشريعة الإسلامية.

ومن هذا المثل أيضاً في أمر السيادة يتضح بعض ما له صفة الخلود، وبعض ما هو مقيد بإرادتنا ومتغير بمشيئتنا واختيارنا من الأشخاص والقوانين والنظم والدساتير.

لا سند لما ينقض
العدل والحق

وسيادة الشريعة فيما هو متعلق بأوامر الله لا تنقض برأي فرد ولا جماعة ولا قوة. وكل رأي أو قوة تحول بين الناس وبين العدل والحق كما جاء بهما الإسلام، لا مبرر له ولا سند من الدين الإسلامي، ولو كان له سنداً من السلطان والأمة. فليس للأمة أن تتجاوز مصالح الناس في أوطان أخرى، وأن تفعل بقوانينها وشرائعها ما تشاء، أو أن للأغلبية فيها أن تشرع وأن تتصرف بظلم في حقوق الأفراد والجماعات بما يقتضيه رأيها باعتبارها معبرة عن الإرادة العامة للأمة في زمان ما.. فهذه الصورة التي في أذهان المعاصرين من الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية، والتي توحى بحرية التصرف الكامل طبق المصلحة الوطنية ليست صحيحة من الوجهة الإسلامية النظرية، فإن الإسلام قد جاء بشريعة للناس كافة، ولا يتقيد بما يسمى

المصلحة الوطنية إذا كانت هذه المصلحة تتعارض مع مصلحة الناس كافة، وأن تكون بها «أمة هي أربى من أمة» إذ قصده للخير العام يجب ما قد يبدو من خير خاص. وهنا يتخصص ويتقيد الحق الناشئ من دعوى «السيادة الشعبية» كما يقول به فقهاء الدساتير الحديثة الديمقراطية، بالحق العام للناس كافة كما يقرره الإسلام.

(وبعد) فهذه أمثلة ثلاثة قدمتها في الحديث عن النظم الأساسية للدولة الإسلامية، وهي الشورى، ورياسة الدولة، وسيادة الأمة، وهي الأصول الكبرى التي تقوم على بيانها وبيان التفريع عليها الدساتير. وقد قدمها الإسلام وتاريخه وآراء فقهاءه، واضحة محددة فيما هو ثابت خالد، ومتغيرة مرنة فيما يحسن فيه التغيير والتطور والمرونة.

وأني لأرجو أن أكون في هذا الفصل الموجز قد حفزت همم العلماء والفقهاء وأهل الرأي لاستقصاء البحث والتوسع فيه، إذ كل قصدي، وقد أخذ الناس في كل أقطار المسلمين يتحدثون فيما هو نظام الحكم الإسلامي والدستور الذي يبين هذا النظام، لا يكلفهم شططاً، وأن صور الدساتير الإسلامية قد تتعدد جلباً

للمصلحة ودفعاً للمضرة ما دامت في حدود الأصول الإسلامية الخالدة.

فما دام المسلمون في أي قطر من أقطارهم أو دولة من دولهم، يعملون بنية خالصة محترمين شرعهم ومقيمين نظاماً دستورية تتناسب مع أحوالهم، فإنهم يحدثون بذلك نظاماً إسلامية هي خير لهم من تلك التي يقلدون فيها ما يسمى بالديمقراطيات الشيوعية أو الديمقراطيات الرأسمالية.

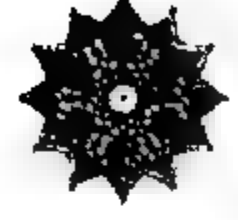
فيكونون بذلك أمة الوسط كما سماهم القرآن ويوفقون إلى حل ما استعصى على غيرهم، ويجمعون بين حاجات الروح وحاجات البدن، معطين الحضارة والحياة الإنسانية السنين الذين لا بد منهما للسلم والاستقرار والرخاء، إذ ليس الإنسان حيواناً ليكون كل همه في بطنه، ولا ملكاً ليكون كل أمره في روحه. وقد امتازت الرسالة الإسلامية باختيار الوسط من الأمور، فأخذت في الاعتبار حاجات الروح والبدن الدائمة وسنت لها أصولاً خالدة لا سبيل إلى نقضها، وتركت الفروع تتغير طبق المصلحة المتغيرة في الدنيا، وقد نظرت في المصلحة العامة للإنسانية كلها ولم تغلب عليها أية مصلحة قد تدعيها أمة لنفسها، وجعلت السلطة التي تنشئ الحقوق والواجبات الفرعية

مقيدة أولاً باجتماع العناصر الثلاثة التي أشرنا إليها وضرورة موافقتها للمبادئ العامة الإنسانية التي يجب أن يتضمنها أي نظام إسلامي. وقد نهت الأمم كافة عن السعي إلى أن تكون مصلحة أمة أربى وأكثر من مصلحة أمة أخرى، وفي هذا يقول القرآن الكريم ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة/ ١٤٣].

(٧)

في انتشار الدعوة

انتشار الدعوة في الوثنيين



شهرة باطلة - خلط بين انتشار الدعوة وامتداد الدولة -
فتح مكة بجيش المستضعفين المطرودين - الدعوة السرية
والجهرية - الدفاع عن النفس مشروع - الموقف في الحديبية
يشهد - تاريخ الدعوة هو تاريخ الصبر والمقاومة - الموقف
في خارج الجزيرة - رواية الكولونيل (فردريك بيك) -
فتنة واعتداء - مع الروم في شرق الأردن (مؤتة) - دليل فذ
من أدلة التسامح الإسلامي - فتح مكة - لم يكن مفر من
تحكيم السيف في فتحها - الغرض من فتحها - صورة من
التسامح المحمدي - دليل على انهيار النظام الجاهلي -
الفتح السلمي قبل الفتح الحربي - دليل من إسلام أبي سفيان
زعيم المشركين - الوفود تتوالي من الجزيرة على الرسول
باختيارها - الخدمة الوحيدة التي أداها السيف للإسلام -
أبياع الدين بدراهم معدودات ! ما بعث الله محمداً جابياً -
قصة تكشف عن روح عصرها .

شهرة باطلة

استقر في أذهان كثير من الناس، المسلمين وغيرهم، أن
الدعوة المحمدية ظهرت وانتشرت تحت ظلال السيوف، وأن
القبائل التي حملت كتاب الله في رقابها حملت سيوف الحق

في أيديها، وانطلقت للمغرب والمشرق، فحكمت السيف حتى
دان الناس للكتاب المعلق في الرقاب، وليس أبعد من الصواب
ولا أدل على البحث السطحي المعتل من هذا الظن! لهذا
يحسن أن نتناول هذا الأمر بشيء من الإفاضة وتتبع انتشار
الدعوة في العصور المختلفة، ليستقر الحق في نصابه، ويتبين
الرشد من الغي. ولعل ذبوع هذه الفكرة الخاطئة عن انتشار
الدعوة المحمدية بالسيف جاء من اقتران ظهورها خارج الجزيرة
العربية بظهور الدولة الإسلامية، وامتزاج تاريخ الفتوحات
السياسية والدولية بتاريخ الفتح الديني، مما جعل الناس
يخلطون بين دخول الأقوام في الإيمان وقبولهم لرسالة التوحيد
وبين خضوعهم لسلطان الأمة الجديدة التي كانت السابقة إلى
قبول الرسالة المحمدية.

خلطين
انتشار الدعوة
وامتداد الدولة

وقد نسي الناس أن الفتح المحمدي لمكة وغيرها، إنما كان
بجيش قوامه آلاف المستضعفين المهتدين قبل هذا الفتح، ممن
أسلموا سرًا واضطهدوا جهريًا، وهاجروا من أوطانهم قهريًا، وعبروا
البحر مرتين لاجئين إلى الحبشة، وفرّوا إلى المدينة، واحتتموا في
جوار كل ذي حَوْل أو طَوْل.

فتح مكة
بجيش
المطرودين

الدعوة السرية
والجهرية

دعا محمد ﷺ، أول ما دعا إلى الإسلام، آل بيته، فمنهم من آمن، ومنهم من عصى. دعا سرًا فدخل في دعوته من أشرف القوم وصناديد الجاهلية، كما دخل جماعة من المستضعفين والعبيد، ولم يستطع هؤلاء وهؤلاء أن يحموا رسولهم، وألجأته قريش إلى قبول النفي الاختياري مع آل في الشعب حيث بقوا حقة من الزمن مقاطعين منبوذين من أهل مكة وأحابيشها وأشياعها من ثقيف وغيرها، ثم خرج من هذا الحصار، وقد فقد زوجته وعمه، وأخذ يعرض نفسه على القبائل، ورجع مهين الجناح من (الطائف) ولم يستطع دخول بلده إلا في حماية المطعم بن عدي من كفار قريش، وقد أجاره نخوة ومروءة.

مشروعية الدفاع
عن النفس

وما زال يدعو سرًا وجهراً، وينال أصناف الأذى في نفسه وأتباعه، حتى لقي أهل البيعة الأولى من شبان المدينة في موسم الحج، فحببوا إليه الهجرة إلى وطنهم، ففر من الموت إلى أحضان (يثرب) الموالية، ولم يتركه خصومه في ملجئه. فلما بسطوا أيدي الشر إلى أطراف الواحة التي نزل بها، خرج إليهم والتقى بهم في (بدر) وقد أذن له بالقتال بهذه الآية الجليلة ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا

دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدِمَتْ صَوْمِعُ وَيَبِعُ وَصَلَوْتُ
وَمَسَجِدُ يَذْكُرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَكَ اللَّهُ
مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي
الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ
وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿الحج / ٣٩-٤١﴾.

والآية في صراحتها وبساطتها وتعليلها للإذن بالقتال،
وتحديد الغرض منه، وفي سياقها كله، واضحة في تصوير الحالة
تصويراً ينافي تماماً ما علق في أذهان كثيرة من صورة الكتاب
والسيف متلازمين.

استمر الرسول قبل واقعة بدر خمس عشرة سنة يدعو
بالحكمة والموعظة الحسنة، ويصبر على الظلم؛ فلما لم يبق إلا
الدفاع عن النفس بالقوة، جاء إذن الله، ووقعت الواقعة في بدر،
وأذل المستضعفون الجبابرة، وضمَّ جوفُ القليب^(١) من فحول
قريش من كانوا على مر السنين ينوعون وسائل التعذيب للذين
يدخلون في دين الله إيماناً واحتساباً.

(١) جوف القليب: البئر التي دفنت فيها جثث قتلى بدر من المشركين.

ومع ذلك فقد رجع الرسول إلى المدينة صابراً داعياً، فلم تصبر قريش ومن معها، وعادوا لمهاجمته في نفس المدينة. ولما كانت (الحديبية) اغتتم الرسول الفرصة للهدنة، ورضي بشروط لم يكن ليرضاها لو كان عماد دعوته السيف، فإن تلك الشروط لم تُرضِ حَمَلَةَ السيوف من أنصاره، واعتبروها هواناً ولما يقاتلوا ولما يُغلبوا. ولكنه ﷺ كان يعلم أن دعوته إنما يمنعها من الانتشار السيف؛ ولا يبسطها في الناس سيف، فإذا هو هَادِنٌ وسَالِمٌ غَلَبَ، وذلك ما كان؛ فقد كانت هدنة (الحديبية) فتحاً، وكان هذا العقد الظاهر الغبن الذي عُقد للحصول على السلم بشرائط تبدو مذلة، سبباً لانتشار الدعوة، وقد نزلت سورة الفتح بعد الحديبية، وتحققت الآية، ودخل الناس في أيام الهدنة أفواجا في دين الله الذي قام بالدعوة، والذي أُحِلَّ فيه القتال لحرية هذه الدعوة ولا شيء غيرها.

فتاريخ الدعوة في الجزيرة العربية هو تاريخ المسلمين الصابرين. وكل تَعَقُّبٌ لتفصيلات التاريخ الإسلامي يكشف لنا عن هذه الحقيقة، ويؤيد عمل النبي. ويحقق قوله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة / ٢٥٦] وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ

الموقف في
الحديبية يشهد

تاريخ الدعوة هو
تاريخ الصبر
والمقاومة

حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿يونس / ٩٩﴾ وقوله ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف / ١٧].

قد يقول بعض الناس: إذا كان هذا شأن الرسول في مكة والمدينة، يصبر على الأذى ويُرجح السلم حتى بشروط لم تُرض أنصاره، فما الذي دعاه للخروج من قلب الجزيرة العربية، وسوق الجيوش لقتال الرومان في سورية؟ أليس الرغبة في تحكيم السيف؟

الموقف في
خارج الجزيرة

ذلك ما قد يظنه بعض من لا يعرفون كيف ابتدأت الحرب بين النبي والروم وأنصارهم من العرب. وإليكم رواية الكولونيل (فريدريك بيك) في مؤلفه الحديث «تاريخ شرق الأردن وقبائلها»، وقد اعتمد الكولونيل بيك على مراجع محترمة من كتب المسلمين وغيرهم، وأشار إليها في كتابه. قال في صحيفة ٨٥ «في عام ٦٢٧-٦٢٨ م (٦هـ)» استشهد أول مسلم في شرق الأردن بسبب إسلامه: ذلك أن فروة بن عمر الجذامي عامل الروم على (عمّان) -وفي رواية ابن هشام على معان- كان قد اعتنق الدين الإسلامي، وأرسل مع مسعود بن سعد الجذامي بغلاً أشهب وفرساً وحماراً وأقمصة كتانية وعباءة حريرية هدية للنبي. ولما بلغ الرومان ذلك حاولوا عبثاً إقناع فروة ليرتد عن

رواية الكولونيل
بيك

إسلامه فأبى فما كان منهم إلا أن سجنوه، ثم صلبوه على ماء يقال له (عفري) بفلسطين.

وفي تموز (يوليو) عام ٦٢٩م (٨هـ) أوفد النبي كتيبة من خمسة عشر رجلاً إلى حدود شرق الأردن، ليدعوا الناس إلى الدين الحنيف؛ وليستطلعوا أخبار الروم وحوادثهم، فخرج عليهم جمع غفير في مكان يقال له (طلة) بين الكرك والطفيلة، وقتلوهم كلهم إلا واحداً لاذ بالفرار.

وبنفس الوقت أرسل النبي رسولاً اسمه الحارث بن عُمَيْر إلى أمير غسان في سوريا يدعوه إلى الإسلام، فقبض عليه شَرْحَبِيل بن عَمْرٍو سيد (مؤته) - وهي قرية بجوار الكرك - وقتله.

وحوالي هذا الزمن أيضاً وصلت رسل النبي من الشمال تحمل أخبار الاستعدادات الحربية على تخوم الولايات الرومانية، ووجود (هرقل) وجيشه في الكرك مع حلفائه من بهراء وجُذام وبَلَيّ والبلقاوية.

فتنة واعتداء

تجمع وتهديد

كل هذه الأسباب جعلت النبي يعقد النية على بعث حملة إلى جنوب شرق الأردن ليقترض من قَتَلَة الحارث؛ وليختبر قوة أعدائه واستعدادهم، وليعرف أسباب تجمعهم على الحدود الجنوبية.

وفي أيلول (سبتمبر) عام ٦٢٩ م (٨هـ) جمع النبي ثلاثة آلاف مقاتل في (الجوف) قرب المدينة ليسيرهم نحو سورية وأمر عليهم زيد بن حارثة «فإن أصابه قَدَر فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإن أصابه قَدَر فالأمير عبد الله بن رواحة على الناس، فإن أصيب فليرتض المسلمون برجل من بينهم يجعلونه أميراً عليهم».

مع الروم
في شرق
الأردن
«مؤته»

فمضى الجيش حتى إذا كان بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من روم وعرب، واقتتل الفريقان في قرية (مؤته) بجوار الكرك.

استبسل المسلمون في هذه المعركة، بالرغم من قلة عددهم بالنسبة لعدوهم، فلما استشهد أميرهم زيد بن حارثة تولى جعفر (كما وصاهم النبي) فقطعت يميناه، وكان بها اللواء، فأخذه بشماله، فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قُتل، وكان فيه نحو خمسين جرحاً. فلما نُبِيَ ذلك إلى النبي ﷺ قال: «أثابه الله

بجناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء» فأصبح يُعرَف فيما بعد بجعفر الطيار.

وبعد جعفر أخذ الراية عبد الله بن رواحة، فقاتل حتى قُتل، وتولى خالد بن الوليد وانسحب بالجيش إلى المدينة.

تلك رواية الكولونيل (بيك) عن كيفية وقوع الحرب بين النبي والروم. وهي واضحة في أن الروم صلبوا (فروة) لما أبى أن يرتد، وهي واضحة كذلك في بيان الاضطهاد والغيرة التي استولت على أفكارهم وأعمالهم. ولا مجال للشك في أن الروم وأنصارهم من العرب لما أخذتهم العزة والخوف من الدعوة السلمية، لجأوا إلى العنف، بل إلى القسوة والغدر، ولم يكن بد لصاحب الدعوة من أن يدفع الشر عنها، ويقاوم في سبيل حريتها.

دليل فذ
من أدلة
التسامح
الإسلامي

وما يرويه المؤرخ المذكور أيضًا أن أسرة مسيحية تدعى (العزيزات) كانت تعيش في مؤتة، فلما قدم الجيش الإسلامي خرج أخوان من هذه الأسرة للقاءه، وفتح أبواب القرية، وقَدَّمَا له الطعام والشراب، ثم اعتنق أحدهما الإسلام وبقي الآخر على نصرانيته، فأمر النبي ألا يُستوفى منهما ولا من أعقابهما

جزية ولا خراج، وظل أمر النبي نافذاً مدة ألف وثلاثمائة سنة. وقد أخذت الحكومة التركية تحصيل منهم الأموال الأميرية بعد سنة ١٩١١ فقط، لما ثار أهل الكرك. والعزيزات يقطنون اليوم (مادياً) وهم من أقوى العشائر.

ومغزى هذه الحادثة واضح؛ فقد أمر النبي ألا تؤخذ جزية ولا خراج من بعض المسيحيين وأعقابهم، لأنهم أحسنوا لقاء جنوده، واحترم المسلمون هذه الرغبة مئات السنين، وهي في ذاتها دليل تسامح يستحيل معه أن يكون السيف وسيلة الدعوة وهادي الإيمان.

أما ما كان من فتح مكة بالقوة فنظرة عاجلة في تطور النزاع بين محمد ﷺ وعشيرته قريش، كافية لإقرار الحق في نصابه، وأنه لم يكن مفر من تحكيم السيف بين الفريقين، حتى لو لم يكن محمد رسولاً وكان رجلاً كريماً عزيزاً أُخرج من وطنه، وأُخرج معه كل من قال برأيه.

فتح مكة

يقول القرآن على لسان قريش ﴿ وَقَالُوا إِن نَّبِيعُ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ [القصص / ٥٧] فقريش التي

لم يكن مفر
من تحكيم
السيف
في فتحها

أقامت لنفسها سيادة دينية على العرب بسدانة الكعبة^(١) ورعاية الحج، وحراسة أوثان العرب وآلهتها، والتي اتخذت هذا المقام وسيلة لنفوذ سياسي، واقتصادي في كل الجزيرة العربية، والتي كانت تدرك ضعفها، وأن هذه السيطرة التي لا تتناسب مع عددها ومقرها إنما تركز على النظام الجاهلي الذي يدعو محمد لتقويضه، والذي عبرت هذه الآية أصدق تعبير عن إخلاص قريش له؛ فلو أنها تبعت هدي محمد لهانت وذلت كما تدعي، قريش هذه أنى لها أن تصبر على هذا الداعي ودعوته! لذلك حكمت من أول الأمر القوة.

ولما اقتتل خزاعة وبكر بعد صلح الحديبية لم تصبر قريش عن نصرة بكر، ولم ترع هدنة ولا احترمت ميثاقاً، بل عادت إلى تحكيم السيف فقبل الرسول هذا التحدي، وترك للسيف أن يحكم في نزاع دام عشرين سنة، وقد حكم للمسلمين يوم الفتح. على أن الرواية التاريخية تذكر أن النبي ﷺ أمر قواد جيشه بعدم القتال إلا أن يُقاتلوا. ومعاملته لقريش يوم الفتح دليل قاطع على أن السيف لم يكن وسيلة للدعوة.

(١) بسدانة الكعبة: بخدمتها. (م).

فلم يكن الإكراه في الدين، ولا قهر الناس على الإسلام هو سبب القتال في مكة التي حرّم الله القتال فيها، والتي يقول الرسول إنها أبيحت له ساعة من نهار هي بعدها حرام، وإنما كان الغرض أن يُوضَعَ حدٌ للاضطهاد الديني وأن يباح للناس حق اختيار العقيدة من غير إكراه ولا قهر.

الغرض من
فتحها

ولذلك لما سأل صفوان بن أمية الرسول ﷺ أن يكون له الخيار في مغادرة مكة أو الإسلام لمدة شهرين بعد الفتح قال: «بل أنت فيه بالخيار أربعة»، وكان صفوان وأبوه أمية بن خلف ممن أساءوا للمسلمين أشد إساءة، يعذبون ضعفاءهم، ويستهزئون بنبيهم، فكان أمية يسخر ويفتّ العظام البالية في يده ويقول «يزعم محمد أن هذه تحيا مرة أخرى!» فنزلت الآية ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس / ٧٨-٧٩] فمع ذلك التاريخ السيئ الطويل يطلب منه صفوان أن يترك له الخيار في الدين فيسمح له بعد الفتح والغلبة التامة! فهل هذا شأن من يقيم دينه بالسيف؟ كلا.

صورة من
التسامح
المحمدي

دليل على انهيار
النظام الجاهلي

لم يُقتل في موقعة مكة إلا بضعة عشر شخصاً، مع عظم الجيوش المقاتلة، فلقد كان جيش الإسلام وحده مقدراً بعشرة

آلاف، مما يدل على أن النظام الجاهلي قد انهار أمام الدعوة
المحمدية قبل يوم الفتح، وأن عصابة قريش لم تستطع أن
تستنهض للقتال جمهرة الناس بعد أن نفذت العقيدة المحمدية
إلى صدورهم. وإلا كيف تستطيع تفسير استسلام مكة بهذه
السهولة ولما تُغلب؟ وآخر وقائعها ذلك النصر في (أحد) بعد
(بدر)، وكيف تفسر دخول الناس في دين الله أفواجا بين يوم
وليلة، وهم الذين كانوا يقولون ﴿إِنْ تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطِفَ
مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص / ٥٧].

الفتح
السلمي قبل
الفتح الحربي

لا شك أن أيام الهدنة بعد الحديبية لم تُقْضِ عبثاً، وأن
الدعوة وجدت في ظلال السلم سبيلها للنفوس التي تهيأت
لقبول الحق، وأن زعماء قريش قد أحسوا الأرض قد زُلْزِلَتْ
تحت أقدامهم، وأن العامة مالت للحنيفية السمحة، وإلا فما
الذي جعل أبا سفيان يُسَلِّم ليلة الفتح، ويتوسل بالعباس
إلى ابن أخيه، لو كانت مكة لا تزال تؤمن بالنظام الجاهلي؟
أليس أبو سفيان هو الذي حمل راية الحرب جيلاً في وجه هذه
الدعوة؟ ثم أليست هوازن وثقيف حلفاؤه لا يزالون في مَنَعَتِهِمْ،
حتى لقد كادوا بعد الفتح يوم (حُنَيْن) أن يفعلوا بجيش
الإسلام الأفاعيل ويقتلوا الرسول؟ فما بال أبي سفيان وغيره

دليل من
إسلام أبي
سفيان
زعيم
المشركين

من الزعماء لا ينحازون بأتباعهم إلى حلفائهم ويديموا القتال،
والعرب بطبيعتهم صلاب العود مريرو العداوة يديمونها جيلاً
بعد جيل؟ السبب واضح: هو أن مكة قد أسلمت وانقادت
للدعوة قبل أن يدخل أرضها جيش خصومها من أهل (يثرب)
ومن حولها من الأعراب.

فحتى فتح مكة الذي يظنه بعض الناس حادثاً عسكرياً
ترتب عليه إسلامها قهراً، لم يكن إلا وسيلة لكف الأيدي
الباطشة عن أهلها ليُعلنوا إيمانهم ويدخلوا في الدعوة التي مالوا
إليها سرّاً أفواجاً أفواجاً.

ثم بعد فتح مكة نجد الوفود من أطراف هذه الأرض الواسعة
الترامية تتوالى على المدينة، من اليمن ونجران وكندة والبحرين
وشمال الجزيرة ومن نجد وتهامة، ومن كل ناحية، وتدخل فيها
إيماناً واحتساباً.

الوفود تتوالى
من الجزيرة
بأختيارها على
الرسول

فماذا كان قدر السيف ليرد الناس عن دينهم، وبينه وبينهم
مسيرة الشهور، وهم في منعة بعددهم وعدتهم؟ إن الخدمة
الوحيدة التي أداها السيف للإسلام هو أنه منع الرسول في
المدينة من أن يقع فريسة لخصومه من العرب واليهود والروم،
فمكّن له بذلك من نشر دعوته وإيصالها إلى العقول والقلوب.

الخدمة الوحيدة
التي أداها
السيف للإسلام

وإدراك الرسول قوة الدعوة في ظلال السلم، هو الذي دعاه كما قلنا لإمضاء صلح الحديبية، والمسلمون بعد الرسول إنما أطاعوا الله ورسوله حيث جعلوا للناس الخيار بين الإسلام والجزية، إذا لم يحكموا السيف في رقاب المسلمين ولم يحولوا بين الناس واختيار العقيدة التي يَلْقَوْنَ الله عليها.

ولو كان السيف وسيلة الدعوة ما كان للناس خيار، وما اشترى أيُّ إنسان في البلاد المفتوحة دينه بدينار أو بنصف دينار. والدين الذي لا يساوي عند صاحبه ديناراً فالإسلام أولى بصاحبه منه.

كان الناس في البلاد المفتوحة يعصمون أنفسهم وأموالهم ودينهم من قهر السيف بجزية هي (ضريبة شخصية) يدفعها القادرون منهم لولاة المسلمين، فيكفلون لهم مقابلها جميع حرياتهم المدنية والدينية.

أبيع الدين
بдраهم
معدودات؟!

فهل تتصورون أن قومًا يبيعون دينهم وعرفهم ووطنيتهم بنصف دينار يدفعه القادر عليه منهم، وليس على النساء ولا على الأطفال ولا العجزة ولا الرهبان ولا القسوس؟ لا شك أن الذين جازوا إلى الإسلام بعد الخيار بينه وبين الجزية، وجدوه أحب إلى أنفسهم مما كانوا عليه.

مفارقات!

بل من الغريب أن الدينار الذي كان يعصم كل عزيز
لدى الأمم المفتوحة من سيف الإسلام، والذي كان أزهى شيء
عندها، كان أعزّ على بعض ولاة المسلمين من إسلام هذه
الأقوام، فكانوا يكرهون دخول الناس في دينهم ونقص جزيتهم!
كتب والي مصر إلى ذلك الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز
ينخبره أن المصريين مقبلون على الإسلام، وأن إيرادات الجزية
تناقصت بسبب ذلك، ويطلب منه أن يأذن له في الاستمرار على
طلب الجزية منهم..

ما بعث الله
محمدًا جانيًا

فكتب إليه الخليفة تلك العبارة الماثورة: «قَبِّحَ اللهُ رأيك! ما
بعث الله محمدًا جانيًا، ولكنه بعثه هاديًا!!».

قصة تكشف
عن روح
عصرها

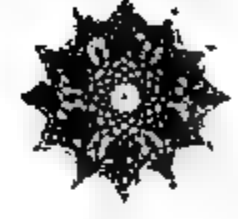
تلك الحادثة تقرب لنا تصور الحالة الذهنية في القرن الأول
لظهور الدعوة المحمدية، فلا بد أن قدر التسامح الديني كان
على أعظم جانب، وأن حرية العقيدة كانت في أوجها، وإلا
فكيف تستطيع أن تتصور واليًا يكتب لخليفة المسلمين هذا
الكتاب إذا كان في المحيط الذي يعيش فيه أي أثر للتعصب
أو الرغبة في قهر الناس على الدخول في الإسلام؟ إن تناول
الموضوع بهذه الصورة دليل على أن الوالي، الذي يحس طبعًا
بحس البيئة، كان يكتب في شيء لا يظنه عجيبًا ولا يراه منكراً،

والا لكان هذا الوالي عُرضة لفتك الجماهير، بل وانتقام الخليفة إرضاء لهذه الجماهير.

لم يعاقب الخليفة واليه بعزله، بل كان ما كان، أن قبّح رأيه، وهو الذي يحاول منع الناس من الإسلام احتفاظاً بدينار الجزية.. فهل تتصورون أن ولاية لهم هذه العقلية، وأن خليفة له هذا التسامح مع ما اشتهر به بين خلفاء عصر كامل من التقوى، وأن أمة فاتحة مسيطرة تُخَيّر الناس بين البقاء على أديانهم ونظمهم مقابل جزية هي أقل الضرائب بالنسبة لعصر كعصرنا هذا أو المساواة بالفاطحيين، يخطر لدعاتها وولاتها أن يتخذوا السيف وسيلة للإيمان؟!!

كلا، لم يكن السيف وسيلة للدعوة المحمدية، وإنما كان حاميتها من القهر والاضطهاد، وكان شعارها ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف / ١٧].

انتشار الدعوة في الأمم المسيحية



ماذا بين الموجة العربية وموجات الهون والفندال والتتار؟
موجة تحمل رسالة الهدى والعدالة - موجة فذة في
التاريخ - في ساحة المسيحية - شهادة السير توماس
أرنولد - انتشار المسيحية في ظلال الإسلام - تحاكم
المسيحيين إلى عدالة المسلمين - فرض مرفوض - الوزراء
والولاة المسيحيون في دولة الإسلام - الكنائس تُشاد في
رعاية الإسلام - العرب المسيحيون يحاربون مع إخوانهم
المسلمين - بطولة عربي نصراني في واقعة البويب - لم
يكن السيف من أسباب دخول المسيحيين في الإسلام -
وقائع اضطهاد هي الاستثناء الذي يثبت القاعدة -
السياسة والحسد الاجتماعي لا الدين - برهان قاطع على
تسامح المسلمين - بلاد الإسلام هي منطقة اللقاء الودي
الدائم بينه وبين المسيحية - التعصب الديني بضاعة
غريبة.

ماذا بين الموجة
العربية وموجات
الهون والفندال
والتتار؟

يظن بعض من لا يعلم، أنه لما جمع محمد ﷺ شتات
العرب، وقهر الوثنية في وسط الجزيرة العربية، طغت بعده
جماعات الرعاة من قساة البدو، على الشمال والشرق للنهب
والسلب والقضاء على حضارة الروم والفرس، وعلى معتقدات

هاتين الدولتين وقواهما التي كانت تصون المدنية القديمة ضد طغيان الهمج من الشمال والشرق والجنوب، وأن ظهور العرب كظهور الهون والفندال من الأقاليم التي تدفقت من المشرق يسوقها الجوع، ويغريها الطمع، ويقويها الفخر بنسبها، أو كغيرهم من موجات المغول والتتر المتأخرين، وسيلتهم العنف، وغايتهم ما في أيدي الناس. ومثل هذا الظن بالعرب الحاملين دعوة الإسلام بعيد كل البعد عن الحق وعن ثابت التاريخ. فمع أن حَمَلَةَ الدعوة كانوا ممن غلبت عليهم البداوة، ومع أن أعراب الجزيرة كانوا من أرغب الأقاليم في النهب وسفك الدماء، إلا أن الرسالة التي حملوها والشرعة التي دانوا لها كانت أملك لنفوسهم مما تعودوه من الطمع والفخر؛ لذلك اختلفت آثارهم عن آثار أشباههم من الأقاليم التي استمر هاديها في فتوحاتها النهب والفخر.

فقد أقام العرب دولة امتدت من فرنسا إلى الهند والصين، وعربوا الأقاليم وأدمجوها فيهم، وهدوها بهديهم، فكان وفاؤهم للعهد واحترامهم للشرع وتحقيقهم معنى العدل مَضْرِبُ أمثال الأمم، وموضع عجب المؤرخين والمحققين. لذلك لم يُكْرَه هؤلاء البدو أحدًا على تغيير دينه، ولم يعاملوا الناس فرادى وجماعات

موجة تحمل رسالة
الهدى والعدالة

إلا بقانون تواضعوا عليه مستمداً من نصوص الشريعة التي حملوا رسالتها، أو من روحها. وقد لقنوا ذلك مَنْ دخل في دينهم من الأقوام المتبدية كالأتراك والبربر، فصار هؤلاء كذلك مثلاً للخضوع للشرع وللوفاء بالعهود والتسامح، بما لقنوا من الأدب المحمدي، صادقين في احترام أوامر دينهم متسامحين مع أهل الأديان الأخرى. بل يمكن القول بحق: إنه فيما نعلم من تاريخ الأقوام والدعوات، لا توجد دعوة صحبتها العدالة وسعة الصدر والعفو والتسامح في عفوانها وضعفها كالدعوة المحمدية، سواء أكان العرب أم الترك هم الحاملون إياها.

موجة فذة
في التاريخ

لقد غلبت النفوس الجامحة، وهذبت الأمم القاسية، وبقيت كلمة الله هي العليا، وأمره المطاع، وهو الذي يقول لحملة الرسالة عرباً وعجمًا ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ [آل عمران / ٢٠].

في ساحة
المسيحية

كانت المسيحية هي الديانة الغالبة في دولة الروم من جبال طورس إلى جبال الأطلس، أي في الساحة التي تشمل اليوم سورية ومصر وطرابلس الغرب وتونس، وكانت هذه الأقطار من أول ما حرّر العرب في الدفعة الأولى أيام خلفائهم الراشدين، وأيام أن كان الحماس للدين الجديد في أوج حرارته.

وكان النصارى في الأقطار المفتوحة من مختلف الشعوب واللغات، فمنهم العرب، ومنهم غير العرب. فماذا كان حكم الفاتحين في المغلوبين؟ ذلك ما ندع الكلام فيه للسير (توماس أرنولد) ذلك المؤرخ والعالم الكبير المختص في هذا الموضوع.

يقول السير توماس في كتابه (انتشار الإسلام): «حقاً إن الكنيسة المسيحية قويت وتقدمت في رعاية المسلمين وحكمهم، فلم يَحُلْ الحكم الإسلامي بينها وبين الانتعاش والرقى، بل إن النساطرة لم تتفجر فيهم الحمية والحماسة الدينية إلا بعد أن دخلوا في حكم الإسلام بما لا عهد لهم به من قبل، فنشروا المسيحية تحت راية الإسلام، وبلغوا بدعوتهم الصين والهند تحت حماية الخلفاء. وإذا لم يكن لغير النساطرة من أهل النصرانية ما لهؤلاء من النشاط والهمة في نشر دعوتهم الدينية، فليس هذا ذنب المسلمين، ولا ذنب حكامهم، فقد كانت جميع المذاهب المسيحية تتمتع بالرعاية والتسامح من الحكام المسلمين على حدٍّ سواء. بل كان هؤلاء الحكام هم الذين يمنعون اضطهاد بعض المسيحيين لبعض، ويكفلون الحرية الدينية للجميع»، وقد عدّد السير توماس حوادث النكاية بين المذاهب المسيحية، وبين كيف كان الحكام المسلمون يتدخلون لإقامة العدل، وإنصاف

شهادة السير

توماس أرنولد

انتشار المسيحية

في ظلال

الإسلام

تحاكم
المسيحيين
إلى عدالة
المسلمين

فرض مرفوض

المظلوم من غير تحييز وبمتهى التسامح، بما لا محل للإطالة فيه الآن، ويمكن الرجوع إليه في صفحة ٦٠ وغيرها من كتابه السالف الذكر.

كذلك بين أن ما يعرفه من التسامح والإحسان الذي امتد ظله على الرعايا المسيحيين في العصر الأول، وما ساقه من الأمثلة والوقائع، لا يسمح بما يفترضه كثير من الناس ظناً، وهو أن الأمم المسيحية دخلت في الإسلام قهراً أو بحدّ السيف، فذلك لا شك باطل ولا مبرر له، وعلينا أن نبحث عن أسباب أخرى لتفسير إسلام المسيحيين.

الوزراء والولاة
المسيحيون
في دولة الإسلام

مراسم المسيحية
في قصر
الخلافة الإسلامية

ويقول السير توماس «تحت نظام من الأمن يكفل حرية الحياة والملك والعقيدة الدينية، تمتع المسيحيون، وعلى الأخص في المدن، بثروات ونجاح كبير في عصور الإسلام الأولى، فكان منهم أرباب النفوذ الواسع في قصور الخلفاء». وقد ساق على ذلك شواهد كثيرة، من أطرفها أن أخوين مسيحيين (سلمان وإبراهيم) وليّا للخليفة العباسي المعتصم مناصب الوزارة، ومنها بيت مال المسلمين، ولما مرض إبراهيم عادّه الخليفة في بيته، فلما مات حزن عليه حزناً شديداً، وأمر بجثته فجيء بها إلى القصر وجرت المراسيم المسيحية والصلوات عليها في قصر الخلافة

الذي شُيِّعت منه الجنازة! وذكر السير توماس من بين مَنْ ذكر من الوزراء المسيحيين، (نصر بن هارون) الذي تولى رئاسة الوزارة لعُضد الدولة بن بويه، وبنى عددًا كبيرًا من الكنائس والمعابد.

وقد عُدَّ كذلك أمثلة للتسامح في الكنائس التي أمر ببنائها الخلفاء، وأنفقوا عليها في شمال الجزيرة والعراق والشام، ولا يزال بعضها قائمًا إلى اليوم ككنيسة (أبو سرجة) في مصر العتيقة مما بني في العهد الأول الإسلامي بالفسطاط. وليس أدل على سعة الصدر من أن والي الأمويين في العراق وفارس (خالدًا القسري) بنى لأمه المسيحية كنيسة لتتعبد فيها في العهد الأول للدعوة وأيام صولة الفتوحات والحروب بين المسلمين والروم المسيحيين. ويمكن للذين يريدون تفصيلًا أوسع في هذا الشأن أن يرجعوا إلى كتاب السير توماس وما يشير إليه من المراجع الأجنبية والإسلامية.

الكنائس تشاد
في رعاية
الإسلام

لقد كان بين العرب المسلمين وأولاد عموماتهم العرب المسيحيين من الإخاء والتسامح في عهد الفتوحات الأولى، ما جعل نصارى العرب يقاتلون في الصفوف الإسلامية انتصارًا لعروبته واستجابة لعدالة أبناء عمومته. والتاريخ

العرب
المسيحيون
يحاربون
مع إخوانهم
المسلمين

الإسلامي مستفيض بحوادث الأفراد والجماعات المسيحية في العراق والشام ومصر، التي احتفظت بدينها وساهمت في بناء الإمبراطورية العربية بجهدا ودمها.

بطولة عربي
نصراني
في واقعة
البويب

ففي واقعة الجسر، لما زلزل جيش (المُثَنَّى) وحُصِر بين الفرات والجيش الفارسي، كان نصارى بني طيٍّ خير أعوان إخوانهم العرب المسلمين، فحمل زعيمهم حملة صادقة وحمى المعبر للمسلمين. ولما عاد (المُثَنَّى) واستنجد الناس لمحو عار هزيمة الجسر كان بنو النمير المسيحيون من خير من أنجده. ففي واقعة البويب قاتل نصارى العرب جنباً لجنب مع مسلمي العرب، وكان فخر اليوم لنصراني من بني تغلب لحق بالمعركة أثناء اشتدادها، وقطع رأس زعيم الفرس وسلبه جواده وفاز بالغنيمة وركض راجعاً بين صفوف المسلمين يفخر بنسبه وأنه من نصارى تغلب، والمسلمون يهتفون له ويحيون نجدته.

ولقد بقيت (تغلب) على نصرانيتها، وهي التي أبت الجزية وطلبت أن تدفع الصدقة أسوة بالمسلمين، فأمر عمر رضي الله عنه لها بذلك قائلاً: «لا تُدَلُّوا العرب. خذوا من بني تغلب الصدقة».

وقد بين السير توماس أرنولد في كتابه سالف الذكر جملة أسباب لترك المسيحيين دينهم في العصور والأوطان المختلفة، وسرد الحوادث سردًا علميًا مدعمًا بالحجة القاطعة. وفي كل زمان ومكان تتكرر مفخرة المسلمين التي لا يدانيهم فيها أحد؛ وهي التسامح وسعة الصدر والإنصاف للمخالفين في العقيدة.

وسواء أكان المسيحيون الذين تركوا دينهم قد فعلوا ذلك إعجابًا بالدين الجديد وبأصحابه، أم بغضًا لما هم فيه من فرقة، أم يأسًا من الإصلاح، أم فرارًا من أذى بعضهم لبعض، أم إهمالًا من قساوستهم ومرشديهم، أم طمعًا في دنيا، أم هدى من الله.. فإن هذه الأسباب المتنوعة والتي يشير إليها المؤرخون من أهل الملل الأخرى في تعليل إسلام المسيحيين، أدلة على بُعد السيف عن ميدان العقيدة المحمدية.

لم يكن
السيف من
أسباب دخول
المسيحيين
في الإسلام

نعم لقد وقعت في التاريخ الإسلامي بعض حوادث لا تخلو من اضطهاد المسيحيين، وأكثر ما يُشار إليه من هذه الحوادث في أيام المتوكل العباسي والحاكم بأمر الله الفاطمي، وبعض المماليك. والأول كان شديدًا على المسلمين أنفسهم، قاسيًا على التشيعة والمعتزلة من الفرق الإسلامية، والثاني كان بالعكس فاطميًا قاسيًا على المسلمين من غير الشيعة. فإذا

وقائع اضطهاد
عن استثناء
يثبت القاعدة

أصابوا لضيق صدرهم النصارى، فلهؤلاء فيما أصاب المسلمين أسوة. ومع ذلك فنفس هذا الاضطهاد هو الاستثناء الذي يثبت القاعدة. ووقوع حوادث منعزلة قليلة في تاريخ أكثر من ألف سنة، هو الدليل القاطع على تسامح منقطع النظر وتاريخ ناصع مشرف في سجل الأقوام والأديان.

السياسة والحسد
الاجتماعي
لا الدين

وأكثر حوادث الأذى التي أصابت بعض المسيحيين في أزمنة متباعدة، أثارتها نازعة حسد لما كان يتمتع به النصارى من ثراء كبير ونفوذ قيل إنهم أساءوا به، أو نازعة خوف؛ فقد كان النصارى في بعض العهود ضالعين مع إخوانهم في الدين وراء الحدود الإسلامية ومتجسسين متربصين، فأصابهم بعض الأمراء، أو سلط عليهم العامة تخلصاً من أذاهم. وفي تاريخ مصر والشام والدولة العثمانية والأندلس حوادث متفرقة يمكن تتبعها وردها إلى السياسة لا إلى العاطفة الدينية، أو رغبة المسلمين في إكراه غيرهم على الدخول في دينهم. ومن مفاخر المسلمين المتفق عليها أن تاريخهم خلّو من القوانين الباطشة الجائرة التي حرّمت العقيدة الإسلامية في أسبانيا أيام فردناند وإزابيلا، وحرّمت البروتستانتية في فرنسا على عهد لويس الرابع عشر، وحرمت دخول اليهود في إنجلترا أربعة قرون.

ويقول السير توماس «إن بقاء الكنائس والمذاهب المسيحية معزولة في الشرق الإسلامي تلك القرون الطويلة، هو البرهان القاطع على تسامح الدول الإسلامية تسامحاً عاماً».

برهان
قاطع على
تسامح
المسلمين

لم يكن السيف إذاً وسيلة الإسلام إلى القلوب المغلقة كما كان السيف والاضطهاد وسيلة لإنقاذ أرواح المسلمين واليهود وحتى المخالفين في المذاهب المسيحية... وكيف يكون ذلك في قوم عاهد نبيهم القبائل المسيحية ووفى لها وكفل حرية ملكها وعقيدتها وأمن رهبانها وقساوستها؟! وقد قال القرآن الكريم فيهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرِيُّ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة / ٨٢].

لقاء ودي
دائم في
بلاد الإسلام
بينه وبين
المسيحية

على هذا الأساس الصالح ترك الناس لضمائرهم ولهداية الله، فنشأت واستمرت علاقة أهل الشرق بعضهم ببعض، وستنمو على هذه القواعد، وتبقى مثلاً للذين أساءوا إلى الإسلام والمسيحية من متعصبة الغرب لضيق صدورهم وعدم إنصافهم. ويحق لنا نحن الشرقيين مسلمين ومسيحيين أن نعتر ونفخر بهذه السيرة المحمدية وأن نطالب الأقوام المتناحرة أن تهتدي بهدينا وتستنير برشدنا.

التعصب
الديني
بضاعة غريبة

✻ إسلام الصليبيين

دور من الصراع بين المسلمين والمسيحيين - تاج العرب
والترك من بعدهم - إسلام طوائف من الصليبيين - في
الحرب الصليبية الأولى - في الحرب الثانية - رواية
راهب صليبي عن إسلام ثلاثة آلاف - القسوة الغادرة
بالإخاء - الرحمة المنقذة للأعداء - رحمة أشد قسوة
من الخيانة - احتكاك أفاد الصليبيين - تبادل الأسوة
الحسنة - تأثير الإعجاب بصلاح الدين - أمراء كثيرون
يسلمون - صليبيون يقاتلون في صفوف المسلمين - فرح
نصارى الشرق بزوال حكم الصليبيين - شواهد أخرى
من الشرق البعيد في العهد الأموي - سلوك كريم في
كل مكان وزمان - أساس قرآني لم يختلف باختلاف
العصور - هل من نهضة للحق والحرية يقوم بها المسلمون
والمسيحيون في الشرق؟

دور من
الصراع بين
المسلمين
والمسيحيين

تغلبت دعوة التوحيد على كل ما عداها، ودارت، بهذا
البحر الأبيض المتوسط حتى عبرت جبال البرانس إلى فرنسا،
فعرّبت شبه الجزيرة الإيبيرية، ثم هزمت بيزنطة، ولفّت بالجناح
الشرقي حتى وصلت إلى شواطئ الأدرياتيك، فغلبت لغة

الأتراك وأدبهم في جنوب أوربا الشرقي، كما غلبت من قبل لغة العرب وعرفهم في جنوبها الغربي، وحظي من حمل لواء هذه الدعوة من القبائل العربية والتركية ممن أخلصوا لها، بجزء من الله منقطع النظير! بسطة الملك ودوامه، وإقبال الدنيا حتى اندمج في هيئتهم ولغتهم وعنصرهم من الأقوام من هم أعرق منهم في العمران والملك. وقد سبق للعرب وسبق للترك أن فتحوا ممالك، وأقاموا دولاً قبل أن يعرفوا محمداً ويهتدوا بهديه، فما عظم لهم شأن ولا بقي لهم ذكر محمود، ولكن هاتين الأمتين المعروفتين بالقدرة على الغزو والقهر والموصوفتين بالتوحش في التاريخ القديم، هذبتهما الرسالة المحمدية فمشتا إلى الأقوام المتحضرة والبادية، يهديهما شرع واضح في كتاب كريم، وأدب عال قوامه الفضيلة، ونظام أساسه العدل، ودعامته خشية الله في عباده، فسحرتا المتقدمين والمتأخرين، وما زال الناس من الأقوام المنتصرة الأوروبية والآسيوية والإفريقية يتمثلون بمثلهما، حتى دخلوا أفواجا في دعوتهما من غير قهر ولا أذى.

تاج العرب والترك
من بعدهم

دخلت الأمم المسيحية مستجيبة لدعوى العرب والترك طوعية واختياراً للجانب الأعز بالحق والمثل الأعلى في الأدب والفضيلة، ولعل من أظهر الأدلة على ذلك وأعجبها، إسلام

إسلام طوائف
من
الصليبيين

طوائف من الصليبيين الذين حُشدوا من كل جنس وجيل، وجاءوا المشرق تغلي صدورهم بالبغضاء، وتقطر من أيديهم الدماء، حتى ذبحوا نفس النصارى في طريقهم ممن لم ينشط لدعوتهم، أو ممن خالف رأيهم، أو كان على غير مذهبهم في المسيحية. هؤلاء العتاة القساة ما لبثوا أن اقتبسوا أدب أعدائهم، فاتسعت صدورهم وتهذب تعصبهم، وتعلموا ممن يبغضونهم التسامح، فصار القادم عليهم مدداً من الغرب ينكر ما يجدهم فيه من أدب سما على البغضاء والحقْد.

في الحرب
الصليبية
الأولى

بل إن كثيراً من زعماء الصليبيين وكثيراً من عامتهم الذين قطعوا الأرض لقطع رقاب المسلمين، ارتموا في أحضان الدعوة التي غامروا كل مغامراتهم للقضاء عليها منذ أول تعارف؛ ذلك هو أعجب آثار التسامح!

في الحرب
الثانية

فقد أسلم في الحرب الصليبية الأولى ممن أسلم (رينود) أمير طوائف الجرمان واللمباردين، وأسلم معه خلق كثير منهم، وأسلم في الحرب الصليبية الثانية، كما يروي السير توماس عن راهب من رهبان سنت دنيس كان قسيساً في المعبد الخصوصي للملك لويس السابع، ورافقه في هذه الغزوة طائفة كبيرة. وإليك ما يقوله الراهب في عبارة شائقة:

«في طريق الصليبيين إلى المقدس، عبر جبال الأناضول، التقوا بجيش المسلمين، فهزم الصليبيون شر هزيمة، وكان ذلك في الممر الجبلي «فريجيا» وذلك سنة ١١٤٨، ولم يصلوا إلى مرسى «أضاليا» إلا بشق الأنفس، ومنها استطاع القادرون بعد تلبية طلبات التجار اليونانيين الباهظة أن يرحلوا إلى أنطاكية بحرًا، وقد دفعوا مبالغ طائلة، وتركوا خلفهم الجرحى والمرضى والحُجَّاج، فدفع كذلك لويس خمسمائة مارك لليونانيين على أن يُعَنِّوا بهؤلاء الضعفاء حتى يُشَفَّوا، وعلى أن يرافقهم حرس اليونانيين حتى يلحقوا بمن سبقهم؛ فما كان من اليونان الغادرين إلا أن تربصوا حتى تباعد جيش الصليبيين، واتصلوا بالمسلمين الأتراك وأخبروهم بما عليه الحُجَّاج والجرحى، بمن تخلفوا من الوهن والعجز، ثم قعدوا ينظرون إلى إخوانهم في الدين ينال منهم البؤس والمرض وسهام المسلمين. ولما ضاق الصليبيون المتخلفون ذرعًا بما أصابهم، خرج ثلاثة آلاف أو أربعة من قلعهم محاولين النجاة بأنفسهم، فحصرهم المسلمون وشدوا عليهم، ثم حملوا على المعسكرات الصليبية، وكان حال من خرج ومن بقي في المعسكر ليس فيه أقل رجاء، ولم يُنْقَذُوا إلا بما نزل في قلوب المسلمين من الرحمة، حين اطلعوا على ما فيه عدوهم من بأساء، وما أصابهم من ضراء. رقت قلوبهم وذابت نفوسهم

رواية راهب
عن إسلام ثلاثة
آلاف صليبي

القسوة الغادرة
بالإخاء

الرحمة المنقذة
للأعداء

رحمة لأعدائهم الصليبيين المساكين، فواسَوْا المريض وأحسنوا للفقير، وأطعموا المسكين بسخاء وكرم. وبلغ من إحسانهم أن بعضهم استرد بالشراء أو الحيلة أو القهر النقود الفرنساوية التي أخذها اليونان من الحجاج، وردها عليهم، ووزعها على المحتاجين من الصليبيين.

وقد كان الفرق واضحاً بين معاملة هؤلاء الكفار - يقصد المسلمين - للحجاج المسيحيين، ومعاملة اليونان الذين سَخَرُوا إخوانهم في الدين، ونهبوا أموالهم وضربوهم. كان الفرق عظيماً لدرجة حملت الصليبيين على اعتناق دين الأعداء المنقذين، ومن غير أن يُكْرَهُوا أو يُقَهَّرُوا. لقد فروا من إخوانهم في الدين الذين أساءوا إليهم، فلاحق ثلاثة آلاف بالجيش الإسلامي بعد أن رجع عنهم ودخلوا في دينه. لقد كانت الرحمة أشد قسوة من الخيانة! لقد أعطاهم المسلمون الخبز وسلبوهم الإيمان. واحسرتاه! لقد ارتدوا عن المسيحية من غير أن يُجْبَرَ واحد منهم على ترك دينه».

رحمة أشد قسوة
من الخيانة!

احتكاك أفاد
الصليبيين

ذلك ما يقوله الراهب. ويقول السير توماس «لقد كان اختلاط النصارى الصليبيين بالمسلمين ينمو على مر الأيام، وينمو معه الاحترام والتقدير بمزايا عدوهم وفضائله، وتزايد تقليد

الفرجة النازلين في فلسطين للمسلمين تزايداً كان له أثر واضح على أفكارهم الدينية. وأظهر هذه الآثار ذلك التسامح الديني الذي أخذ يتصف به كثير من فرسان الصليبيين وأمرائهم، وذلك الصدر الرحب الذي أخذوا يتلقون به التعاليم المحمدية، حتى إن الأمير السوري (ابن مُنْقِذ) لما زار بيت المقدس أثناء بعض الهدنات كان أمير الصليبيين على المسجد الأقصى يأذن له بإقامة صلاته في المعبد، فعجب الصليبيون الجدد لهذه الحالة العقلية، واحتجوا عليها. ولكن الصليبيين الذين أثر فيهم جوار الشرق كرهوا أن يتدخل أحد في حرية ضيقتهم الدينية، ولم يردهم عن هذا التسامح الذي تعلموه في الشرق حرج الكنيسة وغضبها في الغرب». ثم قال: «لقد اجتذبت الدعوة المحمدية إلى أحضانها من الصليبيين عدداً مذكوراً، حتى في العهد الأول، أي القرن الثاني عشر، مما يلفت نظر من يطلع على سجلات الصليبيين.

تبادل الأسوة الحسنة

ولقد بلغ تأثير الإعجاب بشجاعة صلاح الدين وفضائله في الصليبيين، أن كثيراً من أمرائهم وعامتهم المعجبين به ذهب بهم هذا الإعجاب إلى ترك دينهم وأهلهم والدخول في الإسلام.

تأثير الإعجاب
بصلاح الدين

مثل ذلك ما فعل الزعيم الإنجليزي (روبرت سنت أليان) وكان ذلك قبل انتصار صلاح الدين في معركة حطين الفاصلة التي وقع فيها ملك القدس (جاي) أسيرًا. ويقول بعض مؤرخي النصارى: إن ستة من أمراء هذا الملك استولى عليهم الشيطان ليلة المعركة فأسلموا وانضموا إلى صفوف الأعداء دون أن يُقهرُوا من أحد على ذلك. وقد وصل الأمر (بريمون الثالث) أمير طرابلس الشام أن اتفق مع صلاح الدين على أن يدعو قومه إلى الإسلام.

أمراء كثيرون
يسلمون

وحتى بعد صلاح الدين، لما قام الصليبيون بحربهم الثالثة انتقاماً لسقوط بيت المقدس، وحاصروا عكا، وأصابتهم البأساء، وعضهم الجوع، فر كثير إلى صفوف المسلمين؛ فمنهم من آمن، ومنهم من رجع إلى قومه، ومنهم من استمر على نصرانيته، واختار البقاء وأن يقاتل في صفوف المسلمين. وفي هذا المعنى يقول السير (جون ماندفيل) أحد المعاصرين للصليبيين: «كان بعض المسيحيين يرتدون عن دينهم ويصيرون عرباً، لفقرهم أو غباوتهم أو شقاوتهم». ولا يُنتظر بالطبع من صليبي كالسير جون أن يفسر ما يسميه المسلمون بالهداية إلا بالغبابة والشقاوة. والذي يعنينا من الأمر أن الفقراء والأغبياء والضالين الذين

صليبيون
يقاتلون
في صفوف
المسلمين

ذكرهم السير مانديفيل، دخلوا في الإسلام الذي جاءوا لمحوه، مختارين، واجتذبوا إليه بالدعوة والإرشاد، لا القهر والاضطهاد. بل إن بعض المؤرخين المسيحيين المعاصرين للفتح الإسلامي واسترداد بيت المقدس، وبعد ذلك بكثير بعد انهيار دول الفرنجة في الشام كلها، يشيرون إلى فرح النصارى بالتححرر من حكم الصليبيين. ويقول السير توماس في هذا المعنى: «لقد سكنوا إلى الحكم الإسلامي وادعين مستبشرين، كما استمر الحكام المسلمون على عاداتهم القديمة من التسامح وسعة الصدر لأهل الملل الأخرى».

فرح نصارى
الشرق بزوال حكم
الصليبيين

وإذا كان ما ذكرنا هو بعض الشواهد على انتشار الدعوة المحمدية بالحجة بين أشد خصومها المحاربين، وفي أحلك أيام الدولة الإسلامية، أيام غارات الصليبيين والتتر، فإن لنا شاهداً آخر من بطريق خراسان في أعز أيام الدولة الأموية العربية، نختم به هذا الفصل. يقول البطريق (يوساب الثالث) اليعقوبي في خطاب طويل بعث به لحبر زميل «أين أبنائك أيها الأب! أين هذا الشعب العظيم شعب مرو! لم تصبهم جائحة ولا سقطوا للسيف، ولا عذبوا بنار، وإنما أصابهم متاع الدنيا، فارتدوا عن دينهم، وقذفوا بأنفسهم كما يقذف المجانين في مهاوى الهلاك

شواهد أخرى
من الشرق
البعيد في العهد
الأموي

والكفر، فلم ينج من هذا السعير إلا قسيسان اثنان فرًا بنفسيهما من جحيم الكفر -أي الإسلام- واحسرتاه على الآلاف المؤلفة الذين حملوا اسم المسيحية وصفتها، ولم يقع منهم شهيد واحد ولا ضحى واحد منهم لدينه!!

أين كذلك بيع كرمّان وكنائس فارس! لم يكن قدوم شيطان ولا ملك ولا أمير، ولا أمر خليفة أو سلطان هو الذي قضى عليها. لم يكن ساحراً موهوباً أوتي المنطق وسلطة الشيطان على النفوس، ولكنه ساحر هز رأسه فقط فخرت كنائس فارس كلها على الأرض!

سلوك كريم في
كل مكان
وزمان

أما العرب الذين آتاهم الله ملك الدنيا كما تعلم -فإنهم عندك كذلك- فلم يطعنوا في ديننا ولا اعتدوا على بيعنا، بل بالعكس ضالعو مع ديننا وفضلوه على غيره، وأكرموا رهباننا وقساوستنا، واحترموا أوليائنا، وأحسنوا الهبات إلى معابدنا. فلماذا إذا هجر أهل مرو نصرانيتهم زلفى لهؤلاء العرب، وهم يعلمون ويقولون إن العرب ما طلبوا منهم تغيير دينهم، بل أقروهم عليه كاملاً، ولم يسألوهم إلا ضريبة بسيطة يؤدونها عن أنفسهم، ولكنهم اشتروا خلود أرواحهم في دين المسيح بمتاع قليل!؟

هل هناك بيان أوضح من هذا البيان عن نفاذ الدعوة
المحمدية بالحجة إلى قلوب المسيحيين؟ لقد سقنا لك الشواهد
من المشرق والمغرب في القرن الأول، وفي القرن السابع، في
المحاربين والمهادنين، لقد اختلف كل شيء، اختلفت الأمم
والقرون والظروف، ولم يختلف الحق الذي ساير هذه الدعوة
منذ ظهورها، والذي وضع أصله القرآن في قوله تعالى: ﴿لَا
إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة / ٢٥٦].

أساس قرآني
لم يختلف باختلاف
العصور

وحق لنا نحن سلالة الأقاليم العادلة المنصفة الحليمة
الرحيمة في المشرق، مسلمين ومسيحيين، أن نطمع في نهضة
جديدة نكون فيها مثلاً ودعاة لحرية العقيدة وحرية الرأي في
عالم ضاق صدره بالمخالفين في الرأي. لقد كان أباًؤنا حماة هذه
الحرية ومثلها العليا، فلنكن نحن ورثة هذا الصبر عليها، وحملة
رايتها في أمة ناشئة ودولة جديدة.

هل من نهضة
للحق والحرية يقوم
بها المسلمون
والمسيحيون
في الشرق؟!

إسلام الأوروبيين



تاريخ مشرف لنا وتاريخ غير مشرف لغيرنا- مزاج قاس
وصدر ضيق- مفارقات بين البدو المسلمين والحضر
المسيحيين- المسيح البريء من روح التعصب الغربي-
النزعات البشرية بين إطلاق المسيحية وتقييد الإسلام-
أثر تركيز الدين في النظام الكهنوتي- الحرية في فهم
القرآن لدى جميع المسلمين- والقيود في فهم الإنجيل
لدى المسيحيين- الحلال والحرام كلاهما بين في الإسلام
لدى الخاصة والعامة- أدب القرآن مع المخالفين- بساطة
الدخول في الإسلام تعصم الدماء والأموال- من تاريخ
تعصب المسيحيين في إسبانيا- اضطهاد اليهود والعبيد في
إسبانيا- فرار المضطهدين إلى الإسلام برغبة- أثر تسامح
الفاحين وعدم ترفعهم عن المخالطة- استعراب واندماج-
نصارى يتلون القرآن- دخول في الإسلام حتى في وقت
سقوط دولته- هزيمة العرب في فرنسا سببت تأخر وصول
الحضارة إلى أوروبا ثمانية قرون- بين وطأة المسيحيين في
الغرب ورحمة المسلمين في الشرق- سلطات وامتيازات
لبطارقة المسيحيين في دولة الأتراك- العمى عن الأسوة
الحسنة! هو المزاج الغربي الدموي دائماً! أمل في رحمة
الله!

يصحب نشر الدعوة المحمدية في أوربا الشرقية وأوربا الغربية تاريخ جدير بالذكر الحسن، وتحقيق بفخر المسلمين، كما يصحبه، مع الأسف من الناحية الأخرى، حوادث لا حصر لها من أمثلة السوء الدالة على ضيق صدور كثير من الأوروبيين، وعلى التجائم في سبيل تأييد آرائهم الدينية إلى أرداد الوسائل وأنكر الأعمال!

تاريخ مشرف لنا
وتاريخ غير
مشرف لغيرنا

ومع أن الذين رفعوا راية الإسلام في الغرب من ناحية إسبانيا وفرنسا وإيطاليا، كانوا من العرب والبربر، وهم أقوام اشتهرت كلها بالبأس والشدة، فإن تاريخهم من ناحية نشرهم الدعوة المحمدية، وتسامحهم الديني، هو أظهر ما في صفحات مجدهم وأحقها بالفخار. وذلك على عكس الأقوام الأوربية؛ فقد كان ينتظم برّها وفاجرّها في سلسلة الفظائع الدموية التي اقترنت بمقاومة الدعوة المحمدية والقضاء عليها في أوربا الغربية والشرقية في مدى مئات السنين.

مزاج قاس وصدور
ضيق

وبما يصعب أن نجد له تفسيراً أن القسوة التي كانت وسيلة الأوروبيين في القضاء على حضارة المسلمين ودينهم في أسبانيا وفرنسا وإيطاليا أو في شرق أوربا، لم تتخلف عن الظهور، بأشنع

مظاهرها حتى ضد النصارى أنفسهم كلما وقع نزاع حاد على رأى في الدين، أو دعوة من الدعوات المسيحية، أو ضد اليهود.

وليست الأقوام الأوروبية كلها جنسًا واحدًا، ولا من بيئة واحدة، ولا طبيعة واحدة؛ فبينها من الخلاف في الجنس واللغة والطبائع ما بين أم الشرق؛ فماذا وَّحد إذا وسائلها، وجعل الفتك والغيلة والغدر والظلم من أظهر هذه الوسائل لإعلاء دين على دين؟

مفارقات بين
البدو والمسلمين
والحضر
المسيحيين

وماذا جعل أقوامًا بادية كالعرب، وأقوامًا صناعتها القتال كالترك والتتر والبربر، تختار لنشر دينها الحجة والقدوة؛ فلا نجد في تاريخ طويل شمل المشرق والمغرب أكثر من ألف سنة حوادث دموية تشبه عن قرب أو بعد، تلك الفظائع الساحقة التي تتكرر على ممر الزمن، على أيدي الأوربيين في أنفسهم، أو مع أهل الملل الأخرى؟!

المسيح البريء
من روح
التعصب الغربي

لا نجد لذلك تفسيرًا نجزم به؛ فالسيد المسيح عليه السلام هو ضحية العنف، ومن خير من دعا إلى المعروف والسلام، ودعوته تحرم الحرب و القتل تحريمًا قاطعًا؛ فليس دين المسيح هو الذي

بثّ روح التعصب الممقوت، ولا هو الذي حوّل مزاج الغربيين
إلى مزاج سفّاح....

أما الدين الإسلامي قد أباح القتال، وظهرت دعوته في
العالم مصحوبة بتلك الفتوحات التي لم تقف في وجهها
شاهقات الهملايا، ولا شاهقات الأطلس والبرانس والبلقان،
فلماذا كان أصحابه أكثر الناس تسامحاً مع رعاياهم من أهل
الأديان، وأوسعهم صدرًا للملل والنحل؟!

لعل السبب بينهما ناشئ من اختلاف النظم الدينية؛
فإن للمسيحيين نظامًا إكلييريكيًا، أو بعبارة أخرى كهنوتيًا جعل
عليهم قوًا من طوائف رجال الدين.

وكذلك لم تكن المسيحية واضحة في شئون الدنيا،
فتسلطت النزعة البشرية. أما الإسلام فحرّم هذه القوامة، ولم
يسمح بصلة بين العبد وربّه غير صلة الضمير، وكانت أوامره
ونواهيه في شئون الدنيا جليّة. فلعل سيطرة العنصر البشري
على العقيدة هي التي أخرجت هذا الفرق الهائل في مزاج
الأقوام الديني الذي نشهد مظاهره طول الدهر وفي كل مكان.

النزعات البشرية
القاسية بين
إطلاق المسيحية
وتقييد الإسلام

أثر تركيز الدين
في النظام
الكلهوتي

الحرية في فهم
القرآن لدى
المسلمين
والقيود في فهم
الإنجيل لدى
المسيحيين

الحلال والحرام
بين في
الإسلام لدى
الخاصة والعامة

أدب القرآن مع
المخالفين

بساطة الدخول
في الإسلام تعصم
الدماء والأموال

وأيضاً كان وضوح الأوامر الدينية عند المسلمين، مما جعل كلاً من الحلال والحرام بيّناً في كتاب مبين. فالخاصة والعامة يعلمون أن الله قد حرم عليهم الإكراه في الدين، ويعلمون أنه يقول لنبيه ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس / ٩٩] بل إن الدين الذي حرم على أهله سب الأديان الأخرى لا يدع سبيلاً للاضطهاد والظلم. يقول تعالى ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام / ١٠٨].

لعل كذلك من أسباب تكوّن هذا المزاج المتسامح ببساطة العقيدة المحمدية، فإنها تقوم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله، وأن هاتين الكلمتين تعصم الدماء والأموال. فلما درج الناس على هذه البساطة وتركوا ما وراء ذلك لحساب الله، تعودوا التسامح وسعة الصدر، بعضهم مع بعض، ومع من خالفهم من أهل الملل الأخرى.

قد تكون هذه الأسباب، وقد يكون غيرها علة الخلاف الجوهري بين مزاج المسلمين ومزاج الأوربيين الديني. وليس هذا مقام سرد تاريخ طويل لبيان ما نشير إليه من خلاف، فهو

هَيِّنْ عَلَى مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّبِعَ الْحَقَّ، وَلَكِنْ قَدْ يَحْسُنُ سَوْقُ بَعْضِ
الشواهد:

لما دخل العرب إلى إسبانيا كان مجمع طَلِيظَةَ السادس
قد قرر أن يُقَسِّمَ الملوك عند تولي سلطتهم أن لا يطبقوا في
ملكهم من لا يتمذهب بمذهب الكاثوليك، وأن يُنَفِّذُوا القانون
بكل شدة على من يخالف. وكان من ضمن هذه القوانين
السجن المؤبد مع مصادرة الملك لكل من يفكر في مناقشة أوامر
الكنيسة، وتعاليم الكثلكة. ويقول (بودسين) «كان للإكليروس
السيطرة التامة على شئون الدولة؛ ففضلاً على ما للأساقفة من
رأي نافذ في جميع مجالس الحكم؛ قد كان لهم حق التصديق
على انتخاب الملك وحق خلعهِ إذا خالف ما يرسمون من
قوانين. ولقد اتخذ الإكليروس من سلطانه سبيلاً لاضطهاد
اليهود الذين كانوا عنصراً مهماً في إسبانيا» ويقول (هلفريخ)
«إن أوامر وحشية صدرت لتعميد من يَأْبَى الارتداد عن دينه
من اليهود، فلما وصل العرب تلقاهم اليهود بالترحيب الذي
يستحقه المنقذون، وكذلك فرح العبيد المتنصرون لقدم العرب
فرحاً شديداً. فأخذ المضطهدون يدخلون في دين العرب أفواجا،
بل أخذ النبلاء والعامّة يقبلون على الدعوة الجديدة الحرة».

من
تاريخ تعصب
المسيحيين
في إسبانيا

اضطهاد اليهود
في إسبانيا

فرار
المضطهدين
إلى الإسلام برغبة

ويقول السيرتوماس أرنولد. «لقد أصبحت الطوائف الكثيرة التي اعتنقت الدين الإسلامي مختارة، من أشد أنصاره تحمُّسًا وأظهرها زهدًا؛ فكانوا يمثلون الطهر والتقشف، حتى صار الفرق بينها وبين الأرستقراطية العربية التي مالت للترف واضحًا».

تسامح الفاتحين
وعدم ترفعهم
عن المخالطة

ولم يُسمَع في أيام الفتح العربيّ بأية محاولة من الفاتحين للإكراه في الدين، أو الاضطهاد والظلم لتغيير العقيدة. ولعل السبب الأول في امتلاكهم السريع لهذا الجزء من غرب أوروبا هو سعة الصدر والتسامح الذي كان ديدنهم. كما أن تسامح الحكام بما أباحوا من الحرية الدينية للمسيحيين واختلاطهم بهم وتزاوجهم معهم، أدى إلى تعريب واسع للعناصر المسيحية، فاتخذ كثيرون من النصارى أسماء عربية، وتختنوا كجيرانهم المسلمين. وتسمية المسيحيين الذين في حكم العرب بكلمة (Muzarabe) أي مستعرب، تشير إلى الاتجاه الذي اتجهت إليه جماعتهم.

استعرب واندماج

نصارى
يقرءون
القرآن

ولقد بلغ من إعجاب النصارى المتعربين بلغة القرآن أن صاروا يتلونه ويعجبون به، بل لقد بلغ أثر هذه الدعوة إلى رؤساء الكنيسة نفسها، فتلقحت أفكارهم في إسبانيا وخارجها بالنظريات الإسلامية. كل ذلك يفسر لنا ما كان للمثل والقدوة

مع نشاط الدعوة من الأثر في خروج المسيحيين عن دينهم، حتى صارت الأكثرية الكبيرة للإسلام في زمن قصير.

وقد بلغ من أثر القدوة الحسنة والدعوة بالحكمة أن المسيحيين لم ينقطعوا عن الدخول في الإسلام، حتى وأهله يرسفون في المظالم الوحشية، فيشرّدون ويُقتلون ويهجّرون من أوطانهم، ومن أغرب ما رُوي في ذلك ما ذكره (سترلنج ماكسويل) عن حوادث ١٤٩٩، أي بعد سقوط غرناطة بسبع سنين؛ فقد أشار إلى مسلمين جُدد دخلوا في الإسلام وهاجروا في جموع الفارين من السيف والنار.

دخول في
الإسلام حتى
في وقت
سقوط دولته

وليس المقام مقام تفصيل، وإنما أردنا الاستشهاد لسيرة كريمة معترف بها من جمهور المسيحيين عن حكم العرب في غرب أوروبا، وما تمتع الناس به من حرية العقيدة، وما كسبوا من علم وعرفان وحضارة في ظل الآداب والأوامر والنواهي الإسلامية. ولقد بلغ من اعتراف المنصفين بهذه الحقيقة أن أحد المؤرخين قال عند ذكر واقعة (بواتيه) التي قُتل فيها (عبد الرحمن الغافقي) وفازت جيوش (كارل مارتل) على العرب في غرب فرنسا: «لقد كانت هزيمة العرب سبباً في تأخر وصول الحضارة لأوروبا ثمانية قرون!».

هزيمة العرب في
فرنسا سببت تأخر
وصول الحضارة
إلى أوروبا ثمانية
قرون

بين وطاءة
المسيحيين
في الغرب ورحمة
المسلمين
في الشرق

فازت جيوش الهمج من الأوربيين على العرب في القرن الثامن فأخرت الحضارة، وفاز الغلاة المتعصبون من الفرنج مرة أخرى فوزاً ساحقاً في القرن الخامس عشر، فقصوا على العرفان والحضارة. وفي الوقت الذي كانت محاكم التفتيش وسيوف الدولة تسوق إلى المذبحة أو إلى البحر رسل الحضارة في الغرب، وتُخلي أوطاناً بأكملها من أهلها، وفي الوقت الذي تسقط فيه غرناطة ويُمحى أثر مائتي ألف مسلم بها، وجُلهم من أهل إسبانيا نفسها ومن عنصرها الأصلي ذبحاً وطرذاً وتشريداً، كانت جيوش الإسلام الظافرة تحت راية أخرى تفتح الممالك الأوربية الشرقية، فيستظل المسيحيون بظل العدالة الجديدة، وينعم الناس بحرية الضمير وحرية الأديان.

سقطت بيزنطة مركز العداوة للمسلمين، ومبعث العواصف على الأوطان الإسلامية مدة ثمانين قرون، فما استبيحت الحرمات الدينية، ولا تسلط الفاتحون على العقائد والأديان، ولا طُرد الناس من أوطانهم وحُسبوا على نياتهم وضمائرهم.

سلطات وامتيازات
للمسيحيين
في دولة الأتراك

ولندع الكلام للمؤرخين المسيحيين: فرنترز، وفنلي، وبتزيبوس، ودهسون، كما لخصه أرنولد: «كانت أولى الخطوات التي اتخذها (محمد الثاني) بعد الاستيلاء على القسطنطينية

أن طمأن المسيحيين بالتعهد بحماية الكنيسة الأرثوذكسية، ومنع منعاً باتاً اضطهاد النصارى، وصدرت الإرادة السنية بأن يكون للبطريق والأساقفة في النظام الجديد جميع الحقوق والامتيازات التي كانت لهم في النظام السابق للفتح، واستلم البطريرق (جناديوس) من يد السلطان الأداة التي كانت شارة ولايته، ومعها ألف قطعة من الذهب وحصان مُطَهَّم بعدة فاخرة ليركبه في موكبه في المدينة. ولم يَهَب السلطان لرأس الكنيسة المسيحية الامتيازات التي كانت له في عهد الإمبراطور المسيحي فحسب، بل مكَّنه من سلطة مدنية واسعة على الرعايا المسيحيين؛ فكان مجلس قضاء البطريرقية هو الذي يفصل في منازعات المسيحيين ويقضى بالغرامة والحبس والقتل، وكانت حكومة السلطان تنفذ ما يقضي به مجلس البطريرقية. فكان للبطريرق السلطة المطلقة في الشئون الروحية، ولم تتدخل قط في هذه الشئون السلطات المدنية الإسلامية، كما كانت تفعل المسيحية، قبل الفتح. ولما كان البطريرق معتبراً من كبار رجال الدولة في نظر السلطان، ومعتزاً به، فقد كان له أن يتدخل لرفع الظلم الذي يقع من بعض الولاة على النصارى باتصاله مباشرة بالسلطان، وكان للأساقفة في الولايات من الحرمة والسلطة مثل ما للبطريرق في العاصمة، حتى انتهى الأمر إلى أن صاروا في

مناطق سلطانهم الديني كأنهم مأمورو الدولة وولاتها، فحلوا محلّ الأرستقراطية البيزنطية التي انقرضت بسقوط دولتها.

العمى عن
الأسوة الحسنة

ذلك ما فعل المسلمون في المشرق، وقد سقطت غرناطة للإسبان بعد سقوط القسطنطينية للترك بأربعين سنة؛ فهل كان للفرنجة فيما فعل المسلمون أسوة؟ وإذا لم يكن لهم في الماضي الطويل من التسامح المنقطع النظير، ما يوجههم وجهة الإنصاف والرحمة، فلم لم تكن لهم عظة فيما بين أعينهم من مثل عالٍ؟ كان ذلك كما قلنا سابقاً، لأسباب عدة أشرنا إلى بعضها، وقد يستطيع غيرنا أن يبين أسباباً أخرى. وهي في نظري ليست في طبيعة الدين المسيحي؛ فإن سيدنا عيسى ما جاء إلا رحمة للعالمين.

هو المزاج الغربي
الدموي دائماً!

وإذا كانت كل حوادث التاريخ تشير إلى أن المزاج الغربي يجنح دائماً إلى القهر والتدخل في شئون الغير الروحية والمعنوية تدخلاً ينتهي بالمظالم والإسراف في سفك الدماء، فليس من الغريب أن نرى في الحرب الأخيرة والتي قبلها من مظاهر هذا المزاج صوراً من الماضي، وقد حل النزاع الأيديولوجي (الفكري) في هذا القرن محل النزاع الديني في القرون الوسطى.

أمل في
رحمة الله!

«وبعد» فهل يُكْتَبُ لسكان الشرق من المسلمين والمسيحيين الذين تتعلق نفوسهم دائماً برحمة الله وتترقب هُداه إذا اشتدت الكروب والظلمات، أن ينهضوا مرة أخرى بميراثهم السامي الذي يُقَوِّم من عِوَج النزاع الفكري والاقتصادي والعنصري، ويلطف من حدة المزاج الغربي، حتى يؤمن بالأخوة الإنسانية ويعمل لخدمة السلام العام بإخلاص نية وحسن توجه، بما مكن الله له في الأرض؟

ذلك ما نسأل الله رب العالمين أن يعجل بتهيئة أسبابه.
﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة / ١٤٣].

«النهاية المتن»

معد التقديم في سطور

عصمت حسين سيد نصار

- أستاذ الفلسفة ووكيل كلية الآداب لشئون التعليم والطلاب جامعة بني سويف بمصر.
- حصل على ليسانس الآداب من جامعة القاهرة عام ١٩٨٢، وماجستير في الفلسفة الإسلامية المعاصرة بجامعة أسيوط فرع سوهاج عام ١٩٩١، ودكتوراه في الفلسفة الإسلامية والفكر العربي الحديث جامعة الزقازيق فرع بنها عام ١٩٩٥.

من أهم أعماله المنشورة

- الأبعاد التنويرية للفلسفة الرشدية في الفكر العربي الحديث.
- اتجاهات فلسفية معاصرة في بنية الثقافة الإسلامية.
- أحمد فارس الشدياق قراءة في صفائح المقاومة.
- ثقافتنا العربية بين الإيمان والإلحاد.
- حقيقة الأصولية الإسلامية في فكر الشيخ عبد المتعال الصعيدي.
- الصراع الثقافي والحوار الحضاري في فلسفة محمد إقبال.
- فلسفة اللاهوت المسيحي في العصر المدرسي المبكر.
- أوهام الفهم.

اللجنة الاستشارية للمشروع

(١٤٣٤ - ١٤٣٥ هـ / ٢٠١٢ - ٢٠١٣ م)

- إسماعيل سراج الدين (مكتبة الإسكندرية)، مصر - رئيس اللجنة.
- إبراهيم البيومي غانم (جامعة زايد، دبي)، الإمارات العربية المتحدة.
- إبراهيم زين (الجامعة الإسلامية العالمية، كوالالمبور)، ماليزيا.
- أبو يعرب المرزوقي (عضو المجلس التأسيسي، وزير مستشار لدى رئيس الحكومة التونسية في مجالي التربية والثقافة)، تونس.
- جاسر عودة (مركز دراسات التشريع والأخلاق، كلية الدراسات الإسلامية)، قطر.
- حسن مكّي (جامعة إفريقيا العالمية)، السودان.
- رضوان السيد (الجامعة اللبنانية، بيروت)، لبنان.
- زاهر عبد الرحمن عثمان (مؤسسة إعمار بالرياض)، السعودية.
- زكي الميلاد (رئيس تحرير مجلة الكلمة)، السعودية.
- سعيد بنسعيد العلوي (جامعة الرباط)، المغرب.
- صلاح الدين الجوهري (مكتبة الإسكندرية)، مصر - أمين اللجنة.
- ظفر إسحق أنصاري (الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد)، باكستان.
- عبد الرحمن السالمي (وزارة الأوقاف والشؤون الدينية)، عُمان.
- عمار الطالبّي (جامعة الجزائر)، الجزائر.
- مجدي عاشور (دار الإفتاء)، مصر.
- محمد زاهد جول (كاتب وباحث)، تركيا.
- محمد عمارة (هيئة كبار العلماء، الأزهر الشريف، القاهرة)، مصر.
- محمد كمال الدين إمام (جامعة الإسكندرية)، مصر.
- محمد موفق الأرناؤوط (جامعة العلوم الإسلامية العالمية)، الأردن.
- مصباح الله عبد الباقي (جامعة كابول)، أفغانستان.
- منى أحمد أبو زيد (جامعة حلوان، القاهرة)، مصر.
- نور الدين الخادمي (وزير الشؤون الدينية)، تونس.
- نوزاد صواش (مؤسسة البحوث الأكاديمية والإنترنت، إسطنبول)، تركيا.

سلسلة «في الفكر النهضوي الإسلامي»

صدر في هذه السلسلة

- (١) العودة إلى الذات، تأليف علي شريعتي.
- (٢) الحياة الروحية في الإسلام، تأليف محمد مصطفى حلمي.
- (٣) امرأتنا في الشريعة والمجتمع، تأليف الطاهر الحداد.
- (٤) الإسلام دين الفطرة والحرية، تأليف عبد العزيز جاويش.
- (٥) المرأة والعمل، تأليف نبوية موسى.
- (٦) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، تأليف مصطفى عبد الرازق.
- (٧) دفاع عن الشريعة، تأليف علال الفاسي.
- (٨) مقاصد الشريعة الإسلامية، تأليف الطاهر ابن عاشور.
- (٩) تجديد الفكر الديني في الإسلام، تأليف محمد إقبال، ترجمة محمد يوسف عدس.
- (١٠) طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تأليف عبد الرحمن الكواكبي.
- (١١) المدرسة الإسلامية، تأليف محمد باقر الصدر.
- (١٢) الإسلام وأصول الحكم، تأليف علي عبد الرازق.
- (١٣) أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تأليف خير الدين التونسي.
- (١٤) الحرية الدينية في الإسلام، تأليف عبد المتعال الصعيدي.
- (١٥) الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقيقة الشريعة المحمدية، تأليف حسين الجسر.
- (١٦) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، تأليف محمد الغزالي.
- (١٧) القرآن والفلسفة، تأليف محمد يوسف موسى.
- (١٨) كشف المخبأ عن فنون أوربا، تأليف أحمد فارس الشدياق.
- (١٩) المرشد الأمين للبنات والبنين، تأليف رفاعة الطهطاوي.
- (٢٠) شروط النهضة، تأليف مالك بن نبي.
- (٢١) مناهج الألباب المصرية في مباحج الآداب العصرية، تأليف رفاعة الطهطاوي.
- (٢٢) نهضة الأمة وحياتها، تأليف طنطاوي جوهري.
- (٢٣) البيان في التمدن وأسباب العمران، تأليف رفيق العظم.
- (٢٤) - (٢٥) تحرير المرأة، تأليف قاسم أمين، وتربية المرأة والحجاب، تأليف طلعت حرب.
- (٢٦) تنبيه الأمة وتنزيه الملة، تأليف محمد حسين النائي، تعريب عبد المحسن آل نجف، تحقيق عبد الكريم آل نجف.
- (٢٧) خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني، تأليف محمد باشا المخزومي.
- (٢٨) - (٢٩) السفور والحجاب، تأليف نظيرة زين الدين، ونظرات في كتاب السفور والحجاب، تأليف مصطفى الغلاييني.
- (٣٠) في الاجتماع السياسي الإسلامي، تأليف محمد مهدي شمس الدين.
- (٣١) لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟، تأليف الأمير شكيب أرسلان.
- (٣٢) المدنية الإسلامية، تأليف شمس الدين سامي فراشري، ترجمة محمد م الأرنؤوط.
- (٣٣) المدنية والإسلام، تأليف محمد فريد وجدي.
- (٣٤) المسئلة الشرقية، تأليف مصطفى كامل.
- (٣٥) وجهة العالم الإسلامي، تأليف مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين.
- (٣٦) طلعة الشمس شرح شمس الأصول، تأليف نور الدين عبد الله بن حميد السالمي.
- (٣٧) أدب الطلب ومنتهى الأرب، تأليف محمد بن علي الشوكاني.
- (٣٨) الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني، تأليف آدم عبد الله الإلوري.
- (٣٩) أم القرى، تأليف السيد الفراتي (عبد الرحمن الكواكبي).
- (٤٠) تجديد الفقه ونصوص أخرى، تأليف محمد بن الحسن الحنجوي.
- (٤١) الحضارة الإسلامية، تأليف أحمد زكي.
- (٤٢) الرسالة الخالدة، تأليف عبد الرحمن عزام.
- (٤٣) مسألة الخلافة وجزيرة العرب، تأليف أبي الكلام آزاد، ترجمة مصباح الله عبد الباقي.
- (٤٤) النبأ العظيم .. نظرات جديدة في القرآن، تأليف محمد عبد الله دراز.

‘AL-RISĀLAH ‘AL-KHĀLIDAH

‘Abdul-Rahmān ‘Azzām

**DAR AL-KITAB
AL-MASRI**

**DAR AL-KITAB
AL-LUBNANI**

٢٠٢٠

٢٠٢١

٢٠٢٢

٢٠٢٣

٢٠٢٤

٢٠٢٥

٢٠٢٦

٢٠٢٧

٢٠٢٨

٢٠٢٩

٢٠٣٠

٢٠٣١

٢٠٣٢

٢٠٣٣

٢٠٣٤

دارالكتاب المصرى
القاهرة

لا يهدف المشروع فقط الى اعادة اصدار آخر طبعه
اصليه صدرت في حياة المؤلف . حتى تتجنب ما لم
من تحريف مقصود او غير مقصود على يد بعض
الناشرين للكتب بعد رحيل المؤلف . وانما يتم ايضا
اعداد دراسة تقديمية موسعة لكل كتاب . يقوم بها
باحثون متخصصون . في محاولة لعرض فكرة الكتاب
وقضيته المحورية في ضوء القضايا المطروحة
في سياق ذلك العصر . وفي ضوء المشروع الفكري
للمؤلف . وتقوم اللجنة العلمية للمشروع بمراجعة
هذه الدراسات التقديمية وعقد مناقشات مفتوحة
لاصحابها مع نظرائهم من الباحثين وذلك قبل
اقرارها للنشر .



فكر النهضة الإسلامي

'AL-RISĀLAH 'AL-KHĀLIDAH

'Abdul-Rahmān 'Azzām

(42)

هذا الكتاب

طُبِعَ لأول مرة عام (١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م)، وتُعد هذه الدراسة من أهم المؤلفات العربية الحديثة، التي عبّرت بمنحى موضوعي عن حقيقة الخطاب السياسي الإسلامي، الجامع بين الثوابت العقدية التي لا يمكن التفريط فيها ولا تبديلها في المجتمعات الإسلامية، والمتغيرات الحضارية التي يجب الأخذ بها لتجديد وتحديث المشروع الإسلامي، على نحو يمكنه من قيادة العالم وتحقيق العدالة والأمن والسلام العالمي.

كما تكشف كذلك عن أصالة أفكار عبد الرحمن عزام وطرافة نهجه في المصالحة بين القديم والجديد، وصدق جهاده وكفاحه في مناصرة الحركات التحررية في العالم العربي، وجهوده في تأسيس الجامعة العربية، ودعوته لإنشاء منظمة أو اتحاد للأمم الإسلامية.

وقد أثرت آراء المؤلف في الدوائر البحثية المعنية بالفكر الإسلامي في الشرق والغرب، وترجمت هذه الرسالة إلى العديد من اللغات، وطُبعت عدة طبعات.

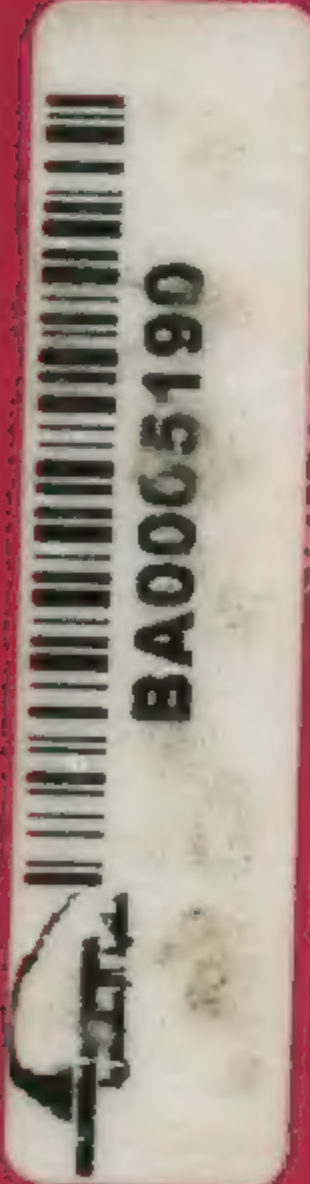
يقول الإمام الأكبر أحمد الطيب عن المشروع:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن هذا المشروع الذي تقوم به مكتبة الإسكندرية - وهي تستهدف إعادة نشر الإنتاج العلمي والثقافي لأعلام نهضتنا في العصر الحديث - ليُعدّ فيما أرى - من أهم المشاريع العلمية نحو تأصيل المفاهيم الثقافية في العالم الإسلامي وإعادة تأسيس عقل إسلامي معاصر يستوعب أصوله، ويعيش عصره. وإني أدعو إلى ترجمة هذه الأعمال إلى اللغات الحية، وتعميم نشرها، بكل الوسائل الورقية والإلكترونية.

شيخ الأزهر

أ.د/ أحمد محمد الطيب



ISBN: 978-977-452-250-0

DAR AL-KITAB AL-MASRI
CAIRO

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

DAR AL-KITAB AL-LUBNANI
BEIRUT